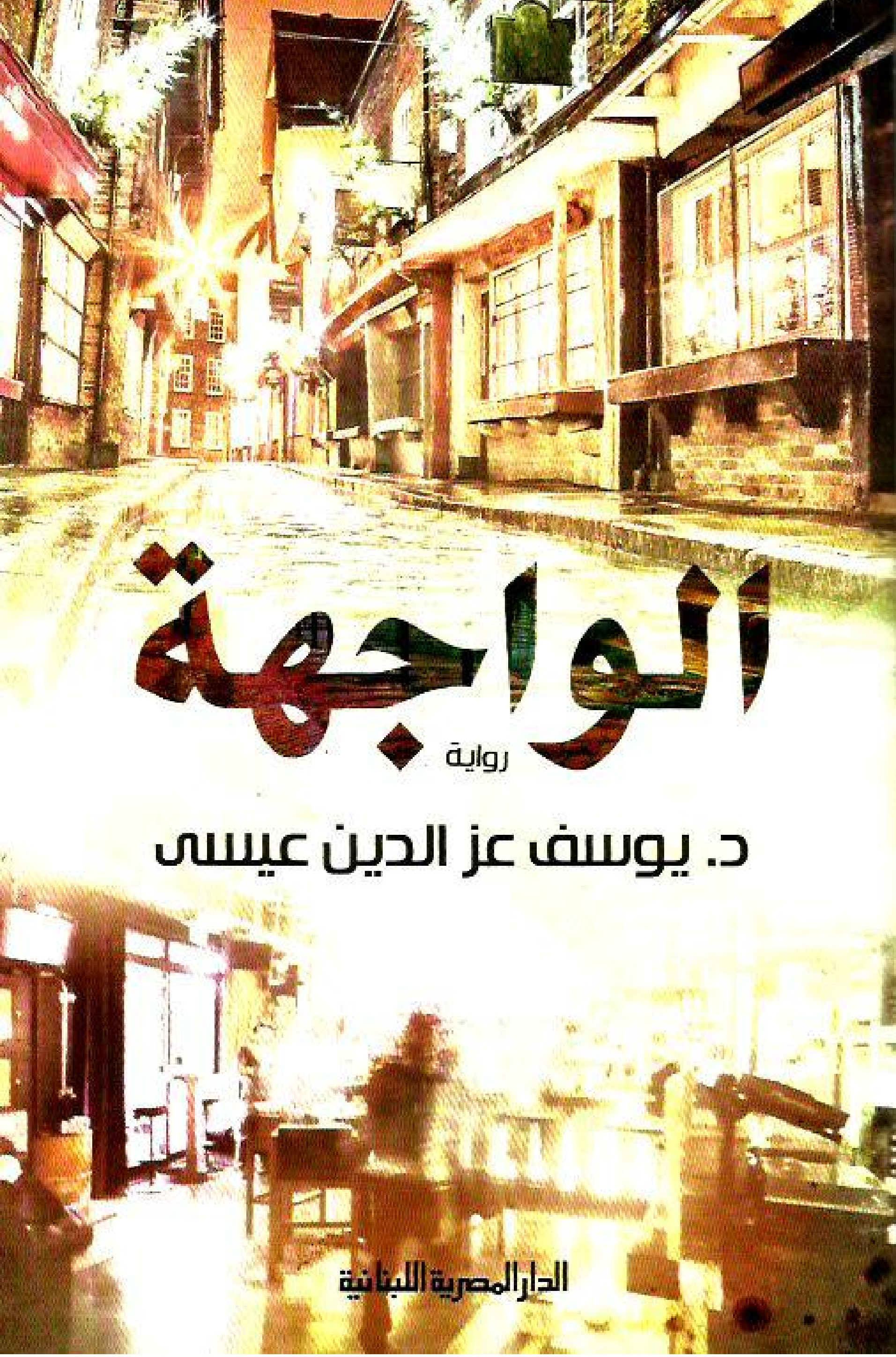

الواجهة
رواية
د. يوسف عز الدين عيسى
الدار المصرية اللبنانية

الواجهة

رواية

عيسى، يوسف عز الدين.
الواجهة: رواية / يوسف عز الدين عيسى .- ط1.
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2015.
392 ص؛ 20 سم.
تدمك: 9 - 940 - 427 - 977 - 978
1- القصص العربية.
ب- العنوان. 813
رقم الإيداع: 20644 / 2014

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: ربيع أول 1436 هـ - يناير 2015م



د. يوسف عز الدين عيسى

الدار المصرية اللبنانية

تقــديم

عبـر صفحات تلك الرواية الحافلة بأعلى درجات التشـويق والإثارة تمضـي رحلة «ميـم نون» من البداية إلـى النهاية. الرحلة شـاقة، ومترعة بشـتى صنوف القسـوة وأمر مرارات الأحزان. وحين تفرغ من قراءة هذه الرواية تجد نفسـك أمام الأسـئلة الأبدية: ما الإنسان؟ وما الحياة الدنيا؟ وما الآخرة؟ وهل الإنسان مسير أم مخير؟ وماذا عن الكون العظيم؟ وما السـعادة؟ و مـا معنى أن تنتهي كل هذه المسـائل الملغـزة بلغز أكبر منها وهو الموت؟!..

والرواية حافلة بالرموز الموحية التي قد لا يختلف اثنان على المعنى المقصود بأي منها، وإن اختلفا فلن يرجع الاختلاف إلى غموض الفكرة بقـدر ما سـيرجع إلـى اختـلاف الرؤيـة وطبيعة التصـور لكل منهـا فيما يتعلـق بموضـوع الرمز نفسـه، وإننا في كل الأحوال سـنجد أنفسـنا أمام روايـة متكاملـة تعبر عن لا معقولية هذه الحياة التـي نحياها بكامل وعينا ومعقوليتنا.

و ليـس هنـاك من شـك في أن تعمـد اختيـار الكاتب لمواقـف معينة ولأحـداث محـددة عبر من خلالهـا عن رؤيته الخاصة للتسـاؤلات التي

سبق الإشارة إليها، يؤكد لنا أن نظرته للحياة يغلب عليها طابع الحيرة والتساؤل، كما يؤكد لنا كراهيته الفائقة لفكرة الموت، بل واعتراضه الصارخ عليها.

ومن المعلوم أن الخوض في المسائل الفلسفية من خلال عمل فني يتطلب من الكاتب أقصى درجات الوعي بفن الرواية بعد افتراض رسوخ قدمه في عالم الفلسفة. ولقد برع الكاتب في الجمع بين العالمين بما يمتلك من أدوات راسخة في مجالات العلم والفن والفلسفة.

وبانتهاء قراءة هذا العمل يحق لنا أن نقول بلا تحفظ إنه يحمل في مضمونه الفلسفي العميق وشكله الشديد الخصوصية كل مقومات الأعمال الروائية الجديرة بصفة العالمية.

ومن يمن الطالع أن عام - 2014 - وهو ذكرى مرور مائة عام على ميلاد يوسف عز الدين عيسى - قد تزامن مع ترجمة رواية «الواجهة» إلى الإنجليزية، ليطلع العالم على رواية من أحدث وأعظم الروايات العالمية المعاصرة.

سعيد سالم

1

لا يذكر من أين أتى، ولا لأي غرض جاء، ولكنه في صباح أحد الأيام وجد نفسه في هذه المدينة التي لا يعرف عنها شيئًا، ظل واقفًا يدير بصره في أنحاء المكان يتأمل واجهات المساكن والمتاجر؛ كل شيء نظيف، الجدران نظيفة، والأفاريز نظيفة، ويكاد يرى صورته منعكسة على أرض الشارع من فرط نظافته.

إنه لا يذكر وسيلة المواصلات التي نقلته إلى هذه المدينة، لا يذكر أنه ركب طائرة أو سفينة أو قطارًا، ولكن لا بد أنه انتقل إليها من مكان آخر، فهو متعب، والمدينة غريبة في نظره لم يرها من قبل.

أخذ يفتش في جيوبه، وكأنه يفتش في جيوب شخص غريب لا يمت له بصلة! إنه يريد أن يعرف ماذا في جيوبه! كل ما وجده مجموعة من الأوراق البيضاء، ليس بها سطر واحد. شعر بوحدة مؤلمة، مرت من أمامه فتاة رائعة الجمال ترتدي ثوبًا أبيض وقبعة بيضاء. كانت تسير مطرقة للأرض لا تنظر يمينًا ولا يسارًا، فأخذ يتابعها ببصره. دون أن يشعر، وجد نفسه يسير خلفها. بعد عدة خطوات رآها تختفي داخل أحد الأبواب على الجانب الأيمن من الشارع، المبنى الذي دخلته يختلف وباقي

مباني المدينة. سمع أصواتًا وتراتيل تنبعث من ذلك المبنى، وقف أمام الباب، وحاول أن يمد بصره داخل هذا المكان. رأى ممرًا سقفه مرتكز على أعمدة من الرخام الملون، وأرضه من البلاط الأزرق المصقول، والممر يخترق حديقة أشجارها باسقة، ذات أزهار بنفسجية تنبعث منها رائحة زكية. عند نهاية الممر، رأى سُلَّمًا ذا سبع درجات يؤدي إلى باب آخر نصفه مفتوح والنصف الآخر مغلق، ذي زجاج أخضر تزينه رسوم عديدة لم يتبينها جيدًا. صعدت الفتاة السلم، واختفت خلف الباب. أخذت الأصوات المنبعثة من ذلك المبنى تعلو مترنمة بأناشيد، ذات لحن جميل وإيقاع سريع. شعر برغبة شديدة في دخول هذا المبنى، إنه وحيد ويُحب أن يرى نفسه بين الناس، ويود الاستفسار عن أشياء كثيرة. يريد أن يعرف المزيد عن هذه المدينة، ربما يستطيع إدراك سبب وجوده فيها، ومن أي مكان جاء.

دخل المبنى، كان مزدحمًا بعدد هائل من البشر؛ نساء ورجال وأطفال مصطفين على مقاعد خشبية أنيقة، مرتدين جميعًا ملابس بيضاء، وعلى جزء مرتفع أمامهم منصة، يقف خلفها رجل في نحو الخمسين، يرتدي روبًا يشبه أرواب أساتذة الجامعات. كان الرجل واقفًا في صمت وقد أطرق برأسه نحو الأرض، ووضع كفيه متقاطعتين فوق بطنه، أما الجالسون أمامه فكانوا يرددون أناشيد، لم يستطع الشاب الغريب أن يفهم منها شيئًا، لكن أصواتهم كانت جميلة.

أسرعت دقات قلبه وهو واقف في مكان لا يعرفه، باحثًا عن الفتاة التي رآها في الطريق وقد شعر كأن بينه وبينها صلة، فهي الوحيدة التي

سبق لـه رؤيتها من بيـن جميع هؤلاء البشـر، وجدها جالسـة على مقعد خلفـي، فجلس بجوارها، حاول أن يسـتفهم منها عن اسـم هذه المدينة، فلم تجب عن سؤاله، بل قامت في صمت، وجلست في مكان بعيد عنه، وبقي هو جالسًـا في مكانه ولا أحد بجـواره! وانطلق بين الصفوف طفل يعدو وفي يده بالون، فقامت تجري خلفه سيِّدةٌ مفرطة البدانة، وأمسكت به وعادا معًا إلى مكانيهما. علا صراخ الطفل، فحملته على كتفها واختفيا عن الأنظار، ولا يعلم الشاب الغريب أين ذهبا، وساد السكون.

رفع الرجل المرتدي الروب رأسـه الذي يشـيع في الشيب، ونظر إلى الجماهير التي أمامه ولزم الصمت نحو دقيقة، ثم قال:

ما أجمل أن يكون الإنسـان نقيًّا كالمـاء العذب، طاهر النفس، نظيف اليـد واللسـان. إننـي أبارككم جميعًـا، وأتمنى لكم من السـعادة وسـعة الـرزق وراحة البال ما أنتم جديـرون به أيها الأصدقاء. ما أجمل أن نحنو على الضعيف ونساعد الملهوف. لقد سرنا منذ سنوات عديدة على هدى هـذه المبـادئ النبيلة الجديـرة بمدينة طاهرة كمدينتنا. منـذ عصور بعيدة موغلة في القدم، لم تقع في مدينتنا جريمة واحدة؛ إذ ليس تحت سمائها رجـل منحرف أو انثى معوجة الأخلاق. ولـم تمتد يد لتسـرق، ولـم ينطق لسان بالفحشاء؛ مما دعا إلى إلغاء المحاكم وهدم السجون التي أقيم في مكانها مدارس ومساكن وحدائق رائعة الجمال. ولا بد أنكم لاحظتم أنني توقفت عن الوعظ والإرشـاد فترة من الزمن؛ حيث لـم يعد لهما ضرورة، إذ مـاذا أقول لأناس أطهـار أبرار أمثال أهل مدينتنا؟ هل أدعو إلى الأمانة

وجميعهم أمناء؟ هل أحض على الرحمة وجميعهم رحماء؟ هل أنادي بالوفاء وكلهم أوفياء؟ لم يعد عندي ما أقوله، ولذا فلقد قدمت التماسًا إلى المسئولين لإعفائي من الوعظ لأعتكف في بيتي، ولكن المسئولين رفضوا الاستجابة لالتماسي، قائلين: إنه من الأفضل أن أواظب على الحضور؛ لأمتع نظري برؤيتكم ولنتحدث في شتى أمور الحياة، ونشكر مالك المدينة الذي هيأ لنا كل أسباب الرفاهية، ولأقص عليكم بعض القصص الطريفة والفكاهات المسلية التي تحمل البهجة إلى القلوب، وتجلو صدأ النفوس؛ لنحيا حياة سعيدة خالية من الألم والأحزان، ولذا فسوف تروني في الموعد الذي اعتدنا الالتقاء فيه نفسه. ولتنصرفوا الآن إلى أعمالكم وإلى اللقاء.

هبط من فوق المنصة، وقام الجميع، وأخذوا ينصرفون من المبنى، ولكنهم لم يخرجوا من الباب الذي دخل منه الشاب، بل كانوا يخرجون من باب خلفي في القاعة، ويختفون ولا يعلم الشاب الغريب أين يذهبون. قام وأخذ يجول في أنحاء المكان باحثًا عن ذلك الباب الخلفي، فلم يجده، ولم يعثر على أحد في أثناء جولاته. لقد انصرف الجميع؛ لأنهم يعلمون إلى أين يذهبون، أما هو فلا يعلم إلى أين يذهب، فعاد وجلس على أحد المقاعد. إنه شاب في نحو الخامسة والعشرين، شاحب الوجه وسيم، نحيل، يرتدي حلة زرقاء وقميصًا أبيض ورباط عنق أخضر. أخذ يلوم نفسه على خجله، الذي منعه من عرض مشكلته على الواعظ. شعر بوحشة شديدة عندما وجد نفسه

وحيدًا، فقام وغادر المبنى، ووجد نفسه من جديد في الطريق الذي كان سائرًا فيه.

شعر بالجوع، فأخذ يبحث في جيوبه مرة أخرى، ولكنه لم يجد أي نقود، لم يجد سوى الأوراق البيضاء الخالية من أية كتابة. فكّر في أن يتسوّل ليمسك رمقه، لا أحد يعرفه في هذه المدينة، ولذا فهو لا يخجل من التسول. ولكن ليس من المعقول أن يسافر ويحضر إلى مدينة كهذه ليتسول! لابد أنه قدم إلى المدينة لمهمةٍ معينة، ولكن ما هذه المهمة؟ إنه لا يعرف من أين جاء؛ إذ لو كان يعلم من أين جاء، لعاد إلى المكان الذي جاء منه، فربما يعرف هناك بعض الناس أو يعرفونه.

استمر سائرًا في ذلك الشارع يفكر في هذه الأمور، إنه شارع يبدو وكأنه ممتد إلى مالا نهاية، على جانبيه أشجار باسقة خضراء ولكنها عديمة الثمر، النسيم منعش عاطر بأريج الياسمين، والمنازل ذات ألوان زاهية متباينة ومتناسقة، تكسب الشارع جوًّا أسطوريًّا ينعش الخيال. أطل من نوافذ وشرفات بعض المساكن فتيات جميلات أنيقات يبتسمن له، ويلوحن له بأيديهن، بعضهن يترنمن بأغنيات عذبة الألحان، وبعضهن يعزفن على آلات موسيقية كالأكسليفون والجيتار والأكورديون. تتخلل المنازل على جانبي الطريق محال تجارية شاهقة البنيان رائعة المنظر، ومسارح ودور للسينما، على واجهاتها عناوين مسرحيات وأفلام لم يسمع عنها من قبل. تاقت نفسه لدخول إحدى دور السينما، ولكنه تذكَّر أنه لا يحمل معه نقودًا، شعر بجوع شديد. ومرَّ على مطعم فاخر

تفوح منه رائحة الشواء، لم يستطع مقاومة تلك الرائحة، فدخل المطعم، وجلس أمام منضدة يكسوها غطاء نظيف متعدد الألوان، وأخذ ينصت إلى الموسيقى الهادئة العذبة، التي تنبعث في أنحاء المطعم. بعد برهة قصيرة، أقبلت نحوه فتاة رائعة الجمال ترتدي ثوبًا قصيرًا أصفر. نظرت إليه مبتسمة ابتسامة عذبة، ووقفت بجواره وقدمت له قائمة الطعام ليختار منها ما يحلو له، فاحمر وجهه خجلًا، ولزم الصمت وأطرق للأرض، ظلت الفتاة واقفة بجواره ناظرة إليه مبتسمة، ثم قالت:

- هل تترك لي مهمة اختيار الطعام الذي أقدمه لك؟ فنظر إلى الفتاة بعينين كعيني طفل بريء في محنة، ثم أطرق للأرض، وقال:

- كما تريدين.

لما همت بالانصراف صفق بيديه، فرجعت وعلى فمها الابتسامة نفسها. قال لها:

- لست أدري ماذا أقول! أنا في منتهى الخجل، أنا جوعان ولكنني لا أملك ثمن الطعام. ليس معي أي نقود. لقد جذبتني إلى هذا المطعم رائحة الشواء، فلم أستطع مقاومتها!

قالت الفتاة، والابتسامة لم تفارق شفتيها:

- ومن قال إننا سنطالبك بأي نقود؟

قال الشاب، وهو يتحاشى أن تلتقي عيناه وعيني الفتاة:

- أليس من المفروض أن أدفع ثمن الطعام؟

- الطعام هنا بالمجان لكل جائع من الضيوف!

قال الشاب مندهشًا:

- لكل جائع من الضيوف؟

- نعم، كل غريب عن هذه المدينة نعتبره ضيفًا لمدة عام، نقدم له الطعام والمأوى بالمجان طوال العام، أنا كنت في انتظار قدومك!

شعر بالفرحة تهز كيانه، وقال:

- وكيف عرفت أنني غريب عن هذه المدينة؟

قالت الفتاة، وقد وضعت يدها في خصرها، فبدت كتمثال جميل من المرمر:

- كل الضيوف يأتون إلى هذا المطعم، وأنا لم أرك هنا قبل الآن، فلا بد أن هذا أول يوم لك في مدينتنا، والآن سأذهب لأحضر لك الطعام، فلا بد أن الجوع قد استبد بك يا مسكين!

وابتعدت عنه وأراد أن يمتّع عينيه بجسمها الجميل، وهي تخطو في رشاقة، ولكنه خجل من نفسه، فغض من بصره، ونظر إلى مفرش المنضدة مكتفيًا بالإنصات إلى الموسيقى العذبة. وبعد برهة قصيرة، أقبلت الفتاة ووضعت أمامه زجاجة متوسطة الحجم ممتلئة باللبن وصينية كبيرة من الفضة ذات غطاء، كشفت الغطاء فإذا بالصينية جمبري مشوي منزوع قشره، وتحته كمية من الأرز.

أقبل على الطعام في نهم، فلم يشاهد الفتاة وهي تبتعد عنه، وفي دقائق قليلة كان قد التهم كل ما في الصينية، وأفرغ زجاجة اللبن في معدته، ورفع بصره فإذا بمجموعة من الفتيات الجميلات قد التفَفْن حوله يعزفن له بالجيتار أنغامًا شجية، وأقبلت الفتاة التي أحضرت له الطعام، وسألته: هل ترغب في المزيد؟ فشكرها وأخبرها أنه نال كفايته، ثم أطرق للأرض، وقال وقد أحمر وجهه خجلًا:

- أنا لا أود مغادرة هذا المكان، فكل ما فيه جميل.

فقالت له الفتاة مبتسمة:

- احضر في أي وقت تشاء، ستجدني هنا في انتظارك، لأقدم لك كل ما تريد من طعام.

شعر بنشوة وخدر يسري في جسده، وود لو يحتضنها ويقبلها، ولكنه تذكر أنه في مكان محترم وفي مدينة تتسم بالطهر والنقاء، وأي تصرف أحمق كهذا ستكون عاقبته وخيمة، فانتزع نفسه وقام، وجد الفتاة لا تزال ناظرة إليه مبتسمة، فقال لها:

- هل قلت لي: إن لكل ضيف من ضيوف هذه المدينة الطعام والمأوى بالمجان لمدة عام؟

- نعم. كما قلت لك تمامًا. وعلاوة على ذلك الكساء!

فوقف الشاب مطرقًا للأرض لحظة، ثم قال في خجل:

- فأين مأواي؟ أين مسكني؟

قالت الفتاة:

- آه! لا تؤاخذني، لقد نسيت، سأخبرك حالًا، لحظة واحدة من فضلك.

وأسرعت تعدو نحو آلة تليفون بجوار الحائط، ورفعت السماعة وأدارت رقمًا، ثم قالت:

- آلو.. أجل... إنه عندي الآن بالمطعم... إنه يسأل عن مسكنه... وهو كذلك... سأخبره.

وضعت سماعة التليفون في مكانها، والتقطت ورقة بيضاء من دفتر بجوار التليفون، وكتبت فيها شيئًا، قائلة:

- اسمك «ميم نون» أليس كذلك؟

فقال، وهو شارد الذهن:

- نعم... أنا اسمي «ميم نون».

فناولته الفتاة الورقة قائلة:

- ها هو ذا عنوان منزلك، إنه في هذا الشارع، وليس بالمدينة شارع سواه، ما عليك إلا الذهاب إلى هذا العنوان وتضغط على زر جرس الباب، وسيفتح لك الباب رجل، سيكون في خدمتك، وسيلبي جميع طلباتك لمدة عام، ما عدا الطعام؛ حيث ينبغي أن تحضر لتناوله هنا في هذا المطعم، كلما شعرت بالجوع.

لم يفرح «ميم نون» بحصوله على مسكن بقدر فرحه بأنه سيتناول طعامه في هذا المطعم؛ لتتاح له فرصة رؤية هذه الفتاة الجميلة، أطرق للأرض، ولزم الصمت فترة، ثم قال:

- ما اسم هذه المدينة؟ أنا لا أعرف اسمها ولا أدري من أين، ولا لأي غرض أتيت هنا!

قالت الفتاة، وعيناها تبتسمان:

- لقد مللت سماع هذا السؤال، أسمعه من جميع الضيوف الذين يأتون إلى هذه المدينة. سوف تعرف كل شيء في حينه، لا بد أن تكتشف ذلك بنفسك.

وتركته وانطلقت تعدو نحو رجل ضخم الجثة، يجلس في ركن خافت الضوء. خرج «ميم» من المطعم، وامتدت يده إلى جيبه، فأخرج الورقة التي أعطتها إياه الفتاة وقرأ العنوان من جديد، ليس في الورقة اسم الشارع، بل رقم هو 1824؛ إذ لابد أن يكون مسكنه في هذا الشارع الوحيد بالمدينة كما أخبرته الفتاة.

سار يلاحظ أرقام البيوت. وجد بجوار المطعم مبنى يحمل رقم 631، وهذا يعني أن منزله لابد أن يكون في الجهة الأخرى حيث أرقام المنازل زوجية، أما في ناحية المطعم فأرقام المباني فردية، فعبر الشارع وانتقل إلى الإفريز المقابل، وسار يتابع أرقام المنازل. وبعد نحو ساعة سيرًا على الأقدام، وصل إلى الرقم المطلوب. وجد منزلًا أنيقًا من

طابقيـن يحمل رقـم 1824، أمامه حديقة ذات أشـجار يبدو أنها غرسـت حديثًـا، فهـي لا تزال صغيرة لم ترتفع كثيرًا عـن الأرض، وللحديقة باب ذو قضبـان عموديـة مـن الخشـب الفاخـر. كان بـاب الحديقـة موصدًا، ضغـط على زر الجرس، فرأى بـاب المنزل، الذي عند الطرف الآخر من الحديقـة، يفتح ويطل منه رجل نحيل طويل القامة يرتدي سـروالًا أزرق وسترة ناصعة البياض وقميصًا أصفر ورباط عنق أزرق. هبط الرجل سلم المنـزل، ولاحـظ «ميم» أنه يعرج قليـلًا، واتجه ببطء نحـو باب الحديقة وأدار مفتاحًـا وفتـح الباب، ثم أخرج من جيبه نظـارة وضعها أمام عينيه، وتفرس في وجه «ميم نون»، ثم ابتسم ابتسامة عريضة وقال:

- كنت في انتظارك منذ ساعتين، تفضل.

سـار «ميم نـون» خلفـه وصعدا سُـلَّمًا من سـت درجـات، كان باب المنـزل مـا زال مفتوحًـا، فدخـل الرجل ودخـل خلفه الشـاب، ثم أغلق الرجل الباب، وأخذ «ميم نون» يدير بصره مكتشفًا المكان، وظل الرجل ذو السترة البيضاء واقفًا، وكأنه في انتظار أي أوامر، ثم قال ل«ميم نون»:

- هل لديك يا سيدي «ميم» أي أوامر أو أي طلبات؟

فقال «ميم»:

- كلا. ولكن يبدو أن المنزل ينقصه الأثاث.

فقال الرجل بدهشة:

- كيف لا يوجد أثاث؟ الأثاث موجود.

ظل «ميـم» يدير بصره في أنحاء البهو، ليكتشـف وجود هذا الأثاث، ولكنـه لم يجد سـوى كرسـي واحـد، ومنضـدة صغيرة بجوار الكرسـي ولا شيء غيرهذا. فقال «ميم» للرجل:

- لا أرى سـوى كرسـي واحـد ومنضـدة صغيرة. هل هـذا كل أثاث المنزل؟

فقال الرجل:

- كلا، في الطابق العلوي أيضًا سرير، هيا معي لتراه.

صعدا معًا سُـلَّمًا من الخشـب الفاخر يؤدي إلى الطابق العلوي. فتح الرجـل بـاب غرفة ودخـلا تلك الحجرة، لم يكن بها سـوى سـرير ضيق يشـبه أسـرّة المستشـفيات، وبجواره منضدة صغيرة. التفـت الرجل إلى «ميم»، وقال:

- ها هو ذا باقي الأثاث.

فقال «ميم»:

- هل هذا كل أثاث المنزل؟ كرسـي واحد في الدور الأرضي وسرير ضيق في الدور العلوي؟

فنظر إليه الرجل في دهشة، وقال:

- فـي الحائط أيضًا صوان بـه منامة ترتديها عندما تنـام، وهل يحتاج الإنسـان لأكثـر من هذا؟ كرسـي تجلس عليه ومنضدة مناسـبة، وسـرير

تنـام فوقه، وبجواره منضدة تضع عليها ما تريد قبل النوم، ومنامة ترتديها عندمـا تنام. هـل من المعقول أن يجلس الإنسـان على كرسـيين، أو ينام على سريرين في وقت واحد، أو يرتدي منامتين في آن واحد؟

فأطرق «ميم» للأرض، ولزم الصمت فترة، ثم رفع رأسه وقال:

- وإذا زارني زائر، فأين يجلس؟

- لن يزورك أحد، لا أحد يعرفك في المدينة، فمن ذا الذي يزورك؟

فقال «ميم»، وقد بدا عليه الحزن:

- وهـل سـأعيش طـوال هـذه المـدة فـي تلـك الوحـدة القاتلـة، لا يعرفني أحد ولا يزورني إنسان؟

- الوحـدة خيـر مـن جليس السـوء! والإنسـان يعتاد الوحـدة بمرور الزمـن، ومن يشـغل ذهنه بشـيء ذي قيمة لا يشـعر مطلقًـا بالوحدة، اقرأ كتابًا أو اكتب كتابًا.

- اقرأ كتابا.. أين هذا الكتاب الذي سأقرؤه؟

- المدينة مليئة بالمكتبات التي تبيع شتى أنواع الكتب.

- لا أملك أي نقود!

- أنت لا تملك نقودًا لأنك لا تعمل.

- وأين أعمل؟

- در في الطاحونة!

فقال «ميم» في دهشة:

- أدور في الطاحونة؟!

- نعم تدور في الطاحونة. يمكنك أن تحصل على النقود بهذه الطريقة، أنت لن تظل ضيفًا إلى الأبد، ولا بد لك من الدوران في الطاحونة؛ للحصول على ما يلزمك من مال بعد انتهاء مدة الضيافة.

- وأين هذه الطاحونة؟

- في الشارع.

- الشارع؟! أي شارع؟

- ليس بالمدينة سوى شارع واحد، ذلك الشارع الذي كنت تسير فيه.

- وفي أي مكان من الشارع هذه الطاحونة؟

- ابحث عنها بنفسك تجدها.

- ولكن الطاحونة آلة بدائية لا تناسب مظاهر الحضارة التي رأيتها في هذه المدينة! كيف توجد طاحونة في مدينة متحضرة كهذه؟ ماذا تطحن هذه الطاحونة؟

- لا تطحن شيئًا إطلاقًا. إنها تدور وتدور فقط!

- إذن ما فائدتها؟

- إنها ذات فائدة لأمثالك.

- وما فائدتها لأمثالي.

- تدور فيها لتحصل على نقود!

- وما دام دوراني فيها لا يطحن شيئًا، فلماذا لا يعطونني النقود ويريحونني من عناء الدوران؟

- لا أجر بلا عمل، هذا هو شعار مدينتنا.

- وهل هذه هي الوسيلة الوحيدة للحصول على نقود في هذه المدينة؟ أليس عمل آخر أقوم به، لأحصل على ما يلزمني من مال؟

- كلا، الطاحونة هي الوسيلة الوحيدة!

فأطرق «ميم» للأرض، ثم نظر إلى الرجل، وقال:

- هل تدور أنت في الطاحونة؟

- كلا.

- إذن من أين تحصل على النقود؟

فقال الرجل غاضبًا:

- ليس هذا من شأنك! منذ أعوام طويلة وأنا أسمع هذا السؤال من أمثالك حتى سئمته! لا ينبغي لأمثالك أن ينتظر من شخص مثلي الإجابة عن مثل هذه الأسئلة. يجب أن تكتشف كل شيء بنفسك.

أطرق «ميم» إلى الأرض في حزن ويأس، ثم سار ببطء وهبط السلم إلى البهو، وهبط معه الخادم، وشعر بأنه غريب حتى عن نفسه! إنه أشبه بقارب صغير تتقاذفه الأمواج في محيط تجتاحه عاصفة عاتية، فهو لا يعرف اسم هذه المدينة، ولا يعلم من أين أتى ولا لأي غرض جاء؛ إنه لا يعلم شيئًا، وسوف يدور في الطاحونة ليحصل على المال. والتفت إلى الخادم فوجده ما زال واقفًا، إنه في خدمته، ولكنه في الوقت نفسه عاجز عن خدمته فهو لا يجيبه عن أي سؤال!. وقال «ميم» لنفسه: «كل شيء ينبغي أن أبحث عنه بنفسي، حتى الفتاة الجميلة التي أحضرت لي الطعام في المطعم، لم تجبني عن أي سؤال من الأسئلة التي يزدحم بها ذهني!».

شعر «ميم» برغبة قوية في رؤية فتاة المطعم، وفي هذه اللحظة رأى الخادم يدير له ظهره ويبتعد عنه، وأدرك أنه يسير بصعوبة بسبب ساقه العرجاء. خرج الخادم من البهو، واختفى داخل المنزل، وبقي «ميم» جالسًا على الكرسي الوحيد الذي في البهو، شارد اللب. شعر بوحدة قاسية، وقام ليلحق بالخادم؛ ليشعر بوجوده مع إنسان يتحدث معه، ويخفف عنه ألم الوحدة. دار يبحث عنه في جميع أنحاء الطابق الأرضي فلم يجده. صعد السلم الخشبي المؤدي إلى الدور العلوي وبحث عنه فلم يجده، وجد في هذا الدور عدة حجرات موصدة الأبواب، حاول أن يفتح الأبواب فوجدها مغلقة بالمفتاح، ووجد غرفة واحدة بابها مفتوح، فدخلها فإذا بها غرفة نومه التي سبق أن رآها، وعندما نظر إلى السرير

شـعر بتعب شـديد وأنه في حاجة للراحة، فتمدد فوقه، تحول السرير إلى أرجوحة ورأى الخادم واقفًا يهز له تلك الأرجوحة، فشـعر بدوار، ثم لم يشعر بشيء بعد ذلك!

عندمـا قام من نومه وفتح نافذة الغرفـة، أدرك أن النهار قد ولّى وأقبل المساء، أراد أن يعرف الوقت، ولكنه لم يستطع إذ لا يحمل ساعة وليس بالمنزل سـاعة، ومن خلال النافذة رأى الشـارع تغمره الأضواء، ويموج بالحركة والنشـاط، ففكر في الخروج من المنـزل والذهاب إلى المطعم لتناول عشائه. خفق قلبه فرحًا عندما تذكر العشاء، فسيرى الفتاة الجميلة التـي قدمت له الطعام، ورأى أن يصلح هندامه قبل الخروج، فدار يبحث عـن الحمـام ووجده عنـد نهاية ممر طويـل، دخل الحمام، فوجـده أنيقًا نظيفًا، ولكن ليس به مرآة، فخلع ملابسه استعدادًا لأخذ دش، ولكنه تذكر أنه نسـى إحضار المنامة من الصوان الذي فـي حائط غرفة النوم، فذهب إلـى تلك الغرفة مرتديًا الملابس الداخلية. فتـح الصوان، فوجد به منامة جديـدة وفانلة واحدة ولباسًـا واحدًا، أخـذ المنامة والملابـس الداخلية وهرول نحو الحمام، خلع ملابسـه الداخلية، وجلس في حوض الحمام وفتـح صنبـور المـاء السـاخن فاندفع من الصنبـور ماء ملأ بـه الحوض، وظل مسـترخيًا في الماء فترة من الزمن. تناول ليفة وصابونة من طاقة في الحائط فوق حوض الحمام، وأكمل استحمامه.

عندمـا ارتـدى ملابسـه وغـادر الحمـام، شـعر بانتعاش ونشـوة، دار يبحـث عـن الخادم فلم يجـده، بعد فترة خلـع المنامـة، وارتدى ملابس

الخروج، وعندما هم بإطفاء نور غرفة النوم استعدادًا لمغادرة المنزل، لاحظ بجوار مفتاح النور أحد الأزرار وقد كتبت تحته كلمة «خادم». ضغط على ذلك الزر، فسمع وقع أقدام الرجل تقترب نحو الغرفة في خطوات بطيئة. طرق الخادم باب الغرفة طرقتين خفيفتين، فأذن له «ميم» بالدخول فدخل، قال له «ميم»:

- سأخرج الآن للعشاء.

فقال الخادم:

- ينبغي أن تسرع لأن موعد العشاء سينتهي بعد أقل من نصف ساعة.

2

انطلق «ميم» يعدو وهبط السلم في بضع قفزات وخرج من المنزل، كان الشارع مضاءً بأضواء بنفسجية، تنعكس عليها أضواء متعددة الألوان من واجهات المحال التجارية، وهذه بدورها تنعكس على المساكن والمباني، فتبدو رائعة تبهر الأبصار وتخلب الألباب. وذلك الشارع الذي كان يبدو وكأنه شبه مهجور عند قدوم «ميم»، أصبح الآن يموج بالبشر، تزدحم أفاريزه بالنساء والرجال والأطفال والفتيات والشبان مرتدين ملابس جميلة مختلفة الألوان، وتنساب في الشارع سيارات فاخرة، تقف عند إشارات المرور، فيعبر الناس الشارع في أمان، ثم تعاود السير في بطء واتزان.

ظل «ميم» سائرًا يبحث عن المطعم، شعر بأن الشارع لا يريد أن ينتهي ولم يستطع العثور على المطعم. أدرك أنه يسير في الاتجاه المضاد، فعاد يسير في الاتجاه الآخر. وعلى الرغم من ازدحام الشارع بمئات البشر، فإن «ميم» ظل شاعرًا بالوحدة، وكأنه يسير في صحراء خالية من كل مظاهر الحياة! إذ ليس من بين جميع هؤلاء الناس من يعرفهم أو يعرفونه. شعر بأنه يريد التحدث مع أي إنسان، فرأى طفلة جميلة في

نحو العاشرة من عمرها، ذات عينين زرقاوين وشعر ذهبي اللون، حول معصمها ساعة، فسألها:

- كم الساعة الآن من فضلك؟

ضحكت الفتاة وظلت تضحك، فسألها مندهشًا:

- علام تضحكين؟

فقالت:

- أضحك لأنك تسأل عن الساعة، وأمامك ساعة كبيرة مضاءة بالأنوار. هي أضبط ساعة في المدينة!

وانطلقت الطفلة تعدو مبتعدة وهي لا تزال تضحك. نظر «ميم» فرأى في الجزيرة، التي في وسط الشارع، عمودًا يحمل عند قمته ساعة كبيرة الحجم أنيقة الشكل، أرقامها وعقاربها مضاءة، ووجد عقاربها تشير نحو الثامنة والنصف وثلاث دقائق، فأخذ يعدو، ليصل إلى المطعم قبل انتهاء موعد العشاء.

في الطريق إلى المطعم، لاحظ «ميم» أن جميع من رآهم ينظرون إليه ويبتسمون، وتعجب لماذا يبتسم له الناس؟ هل يسخرون منه؟ هل في منظره أو مظهره ما يدعو إلى الضحك؟ ازداد شعوره بالوحدة عندما رأى جمعًا من الفتيات والفتيان يسيرون متشابكي الأيدي، يد كل شاب في يد فتاة، يترنمون بأغنية بأصوات عذبة، أعجبه اللحن، ولكنه لم يستطع تمييز كلمات الأغنية، إنهم بلا شك لا يشعرون بالوحدة التي يشعر بها، تمنى

أن يتعرف بهم ويشاركهم في مرحهم وغنائهم، نسي الجوع ونسي العشاء ووقف ينظر إليهم وهم مقبلون نحوه. ثم حدث شيء عجيب: لقد التفوا حوله على هيئة حلقة، وأخذوا يترنمون بأغنية سريعة الإيقاع، ويصفقون بأيديهم في مرح ونشوة، ولكن «ميم» في هذه المرة أيضًا لم يستطع تمييز كلمات الأغنية. في شرفة المنزل المجاور لهم، أبصر عدة فتيات ينظرن إليه ويشتركن في ترديد الأغنية فسرت النشوة في جسده، وشعر بوطأة الوحدة تخف وتتلاشى، كما يتلاشى الضباب. حاول أن يمسك يد فتاة أعجبته، فأرسلت له قبلة في الهواء، وانطلق الجميع يعدون مبتعدين عنه، فشعر بالوحدة من جديد. وقف برهة قصيرة مذهولًا يشيعهم ببصره حتى اختفوا، فبدأ «يشعر» بالجوع من جديد ومضى مسرعًا نحو المطعم.

ظل «ميم نون» سائرًا حتى شعر بالإعياء، دون أن يهتدي إلى المطعم. وقف يدور ببصره باحثًا عن أي مكان يستريح فيه. التفت فوجد سيارة فاخرة خضراء اللون، يقودها شاب أنيق وقفت بجواره بمحاذاة الإفريز، ودعاه الشاب للركوب معه فاتحًا له باب السيارة. فدخل «ميم» السيارة دون أية مقاومة وجلس بجوارالشاب. قال له الشاب:

- لاحظت أنك تسير في إعياء شديد، وتبدو حائرًا كأنك تبحث عن شيء!

فقال «ميم»، وقد أحمر وجه خجلًا:

- أجل، لقد سرت مسافة طويلة باحثًا عن المطعم الذي سأتناول فيه عشائي.

فقال الشاب:

- أنت ضيف؟ أليس كذلك؟

قال «ميم»، وقد أسعده أن يجد إنسانًا يبادله الحديث:

- نعم، أنا غريب عن هذه المدينة، ولا أعلم من أين جئت ولا لأي غرض أتيت.

- هل ذهبت إلى مكتب الاستعلامات لتستفهم عن هذه الأشياء؟

- لا، أين مكتب الاستعلامات هذا؟

- هنا، في هذا الشارع، ولكنني أعتقد أن موعد العمل فيه انتهى، اذهب غدًا، واستفهم عن كل ما تريد، كما أعتقد أن موعد العمل قد انتهى أيضًا في جميع المطاعم الآن.

قال «ميم»، وفي حديثه نبرة حزن، وكأنه يحدث نفسه:

- أين أتناول عشائي؟ أنا جوعان!

فقال له الشاب مبتسمًا:

- هل تتكرم بأن تكون ضيفي هذه الليلة، وتتناول العشاء في منزلي؟

قال «ميم» بلا أي تردد:

- أكون شاكرًا لك فضلك.

وتحركت السيارة ثم دارت حول جزيرة في وسط الشارع، وسارت في اتجاه مضاد لاتجاهها الأول. بعد نحو سبع دقائق توقفت السيارة أمام

فيـلّا فاخرة. هبط الشـاب من السـيارة وهبط معه «ميـم»، واجتازا الباب الخارجـي المؤدي إلـى حديقة تتخلل أشـجارها أنوار متعـددة الألوان، سـارا معًا في طريق طويل يؤدي إلى باب المنزل وصعدا سـلمًا، وأخرج الشاب مفتاحًا وفتح الباب، ودخلا.

أدار «ميـم» بصره فـي أنحاء البهو فشـاهد من جمـال الأثاث وروعة التحف ما جعله يشـعر بأنه إنسان مسكين ضئيل القدر! طلب منه الشاب أن يجلس، فجلس وتركه الشـاب وصعد سـلمًا خشـبيًّا يؤدي إلى الدور العلـوي. في هذه الفترة أخـذ يتأمل محتويات المكان. إنه لم ير أروع من هـذا الديكـور ولا أجمل من ذلـك الأثاث. يتناثر في أنحـاء المكان عدد مـن التحف الثمينة. وبينما هو ينظر بإعجـاب إلى أحد التماثيل الجميلة، شاهد الشاب يهبط السلـم وخلفه فتاتان جميلتان ترتديان ثوبين متشابهين، إحداهما في نحو العشرين والأخرى في نحو السابعة عشرة. قدم الشاب الفتاتين لـ«ميم» قائلًا:

- أختي (تاء) وأختي (سين).

صافحهما «ميم» باحترام، وقال الشاب لـ«ميم»:

- أنا لا أعرف اسمك حتى الآن. قدم نفسك لهما.

فقال «ميم»:

- اسمي «ميم نون».

- قال الشاب:

- وأنا اسمي (دال).

جلس «ميم» على الأريكة الفاخرة وجلست بجواره (تاء) وهي الكبرى، أما (سين) فجلست على كرسي فاخر على يمينه، وجلس (دال) على كرسي على يساره، وسادت فترة صمت، ثم قال الشاب صاحب البيت موجهًا حديثه للفتاتين:

- رأيته يسير في إعياء شديد يبحث عن مطعم يتناول فيه عشاءه، فدعوته لتناول العشاء معنا، وتفضل بقبول دعوتي.

فقالت (تاء):

- فرصة سعيدة.

وقالت (سين):

- أهلا وسهلًا.

وقفت (تاء)، وأشارت بيدها نحو باب عريض عند نهاية البهو، وقالت:

- تفضلوا العشاء.

كان الباب ذو المصراعين مقفلا، ولكن عندما اقترب «ميم» من الباب فتح من تلقاء نفسه، وانزلق المصراعان داخل الجدار على الجانبين. دخل «ميم» غرفة الطعام وخلفه الفتاتان وأخوهما (دال). وبعد دخولهم أقفل الباب من تلقاء نفسه، وتعجب «ميم» من هذا الباب الذي يفتح تلقائيًا عند الاقتراب منه ويقفل تلقائيًا عند الابتعاد عنه، ولكنه لم يفصح عن دهشته؛ حتى لا يتهم بالجهل والتخلف.

كانت غرفة الطعام متوسطة الحجم، جدرانها زرقاء وأثاثها بني قاتم، وتتوسط الحجرة مائدة مستديرة مغطاة بمفرش ناصع البياض تزينه أزهار دقيقة، ويتوسط المائدة طبق كبير الحجم على شكل قارب به أرز، وفوق الأرز ديك رومي، كان هذا الديك الشيء الرئيسي الذي جذب انتباه «ميم» لأول وهلة، طلب الشاب (دال) صاحب المنزل من «ميم» أن يجلس وجلست على يمينه (تاء) وعلى يساره (سين)، وجلس أخوهما في الجهة المقابلة لهم، ثم قامت (تاء)، وبدأت تقطع الديك الرومي ووضعت جزءًا كبيرًا منه في طبق «ميم»، وأجزاءأصغر في طبقي أختها (سين) وأخيها (دال) وأخذت لنفسها قطعة صغيرة، ثم وضعت جزءًا من الأرز في كل طبق، وجلست، وبدءوا في تناول الطعام.

لا يذكر «ميم» أنه ذاق طعامًا في مثل لذة هذا الطعام، وأخذ يفكر ويتعجب من أمر هذه المدينة. إنها مدينة عجيبة، يرحب أهلها بالضيوف، ويستقبلونه بالموسيقى والأغاني الشجية في الشارع وفي الشرفات، ويجد فيها من يستضيفه في منزله لتناول الطعام بلا معرفة سابقة، مدينة لم تقترف فيها أية جريمة، ولم تنحرف فيها الأخلاق، ولم تمتد فيها يد لتسرق. الجميع سعداء مقبلون على الحياة في بهجة وتفاؤل. إنه في شوق شديد لمعرفة اسم هذه المدينة، التي لا يزال يجهل اسمها، كما يجهل سبب قدومه إليها ومن أي مكان أتى. هل هي المدينة الفاضلة التي تحدث عنها الفلاسفة؟ هل هي «اليوتوبيا»؟ إنه لا يزال تائهًا لا يعرف شيئًا.

كان على جدار الغرفة مرآة تحتل جزءًا كبيرًا من الجدار. نظر «ميم» فرأى صورته فيها، كانت هذه أول مرة يرى وجهه في المرآة، منذ أن وجد

نفسه في هذه المدينة. شعر كأنه يرى إنسانًا غريبًا عنه لا يمت له بأية صلة، ولا تربطه به أية ذكريات من أي نوع. إنه غريب عن نفسه غربته نفسها عن باقي الوجوه التي معه في هذه الغرفة. ولاحظ أن شعر رأسه أقصر من شعر رأس (دال) وأنه حليق الوجه، ولا يذكر متى حلق ذقنه. أسود العينين. أما وجه (تاء) فهو أقرب إلى الاستطالة، وهي ذات حاجبين غير مزججين، وعينين زرقاوين، ورأى وجه أختها (سين) أقرب إلى الاستدارة وحاجبيها مزججين، لم تترك منهما سوى قوسين رفيعين، وعينيها خضراوين. أما وجه أخيهما (دال) فنحيل مستطيل ذو أنف كأنه ضغط من الجانبين، وشفتين رقيقتين. يغطي شفته العليا شارب متوسط الحجم. كان الجميع مستغرقين في تناول الطعام في صمت، وعلى الرغم من انهماك «ميم» في الأكل، فإنه كان يسترق النظر إليهم من آن لآخر بنظرات خاطفة. أراد «ميم» أن يقطع الصمت، فقال:

- أنا سعيد لوجودي في مدينتكم الجميلة هذه، لم أر في حياتي أجمل منها.

فلزم (دال) الصمت، وتبادلت (تاء) ابتسامة وأختُها (سين)، ثم قالت (تاء) في خبث:

- وهل رأيت غير هذه المدينة؟

قال «ميم»:

- لا أذكر أنني رأيت غيرها، لقد وجدت نفسي واقفًا في ذلك الشارع ولا أعلم من أين أتيت. وأعتبر نفسي سعيدًا لوجودي في المدينة، كما أعتبر نفسي سعيد الحظ لتعرفي بكم.

ساد الصمت من جديد، ولم يظفر «ميم» بأي تعليق على كلامه. وتعجب عندما رأى الوجوه الثلاثة قد تجهمت بغتة، وبدا عليها الاكتئاب، واستمر «ميم» في حديثه قائلًا:

- يخيل إليّ أن هذه المدينة لا تعرف التعس، كل من رأيتهم فيها سعداء. في أثناء سيرى في الطريق، التف حولي شبان ظرفاء وفتيات جميلات، وأخذوا جميعا، يغنون ويصفقون في سعادة، ولقد دهشت لذلك.

قال (دال)، دون أن يرفع بصره عن الطعام:

- من عادة سكان هذه المدينة أن يرحبوا بالضيوف بشتى الوسائل.

قال «ميم»:

- لا يرحب بالضيوف بهذه الطريقة سوى أناس سعداء. ولكن كيف عرفوا أنني غريب عن المدينة؟

قال (دال) دون أن ينظر إلى «ميم نون»:

كل أهل المدينة يعرف بعضهم بعضًا، فإذا رأوا إنسانًا لا يعرفونه، أدركوا في الحال أنه شخص غريب.

قال «ميم» مندهشًا:

- أليس في المدينة ضيف أو غريب غيري؟

فقال (دال):

- يأتي للمدينة غرباء، ثم يصبحون من أهل المدينة.

قال «ميم»:

- ما اسم هذه المدينة؟

ساد الصمت وكأنهم لم يتوقعوا منه هذا السؤال المفاجئ، وأخذ (دال) ينقر بالشوكة فوق المائدة بحركة عصبية، وتبادلت (تاء) و(سين) النظرات، وبعد فترة قال (دال):

- مثل هذا السؤال غير مسموح لنا بالإجابة عنه. مكتب الاستعلامات هو المصدر الوحيد الذي ينبغي أن تستقي منه أي معلومات، والذي يملك حق الإجابة عن مثل هذه الأسئلة، كما أخبرتك من قبل.

فأطرق «ميم»، في خجل، وقال:

- معذرة إذا كنت قد وجهت إليكم سؤالًا لا حق لي فيه، ولكن عذري في ذلك أنني غريب حائر، وجدت نفسي في مكان لا أعرف عنه شيئًا ولا أعرف من أين أتيت، والأهم من ذلك أنني أشعر في أعماق نفسي بشعور غامض، وهو أنني قدمت إلى هذه المدينة لمهمة معينة ومحدودة، وأن هذه المهمة على جانب عظيم من الأهمية، ولكنني لا أذكر من الذين أرسلوني ولا المهمة التي أرسلت من أجلها.

فقال (دال) بشيء من العصبية:

- لقد ذكرت لي كل ذلك ونحن في طريقنا إلى المنزل، وأخبرتك أن مكتب الاستعلامات هو صاحب الحق الوحيد في الإجابة أو في عدم الإجابة عن هذه الأسئلة!

قال «ميم»، وقد شعر بمزيد من الخجل والارتباك:

- وهل.. من الممكن.. ألّا يجيبني مكتب الاستعلامات عن أسئلتي؟

فقال (دال):

- طبعًا، قد يجيبك عن بعض الأسئلة ويمتنع عن الإجابة عن البعض الآخر، وقد يجيبك عن جميع أسئلتك، هذا شيء لا نعرفه. إنه يتوقف على نوع الأسئلة.

وقالت (تاء):

- هل تعلم لماذا يحتفي بك جميع سكان المدينة ويرثون لحالك؟ لأنك... فقاطعها أخوها (دال) في غضب صائحًا:

- اسكتي. لا تتكلمي في هذا الموضوع.

فأطرقت (تاء) إلى الأرض وقد احمر وجهها خجلًا، ولمعت الدموع في عينيها، ثم انسحبت، وغادرت الغرفة مهرولة، وهي تمسح بعض قطرات من الدموع انسابت على خديها.

قال «ميم»، وهو مطرق للأرض خجلا:

- أنا شديد الأسف، وأرجو المغفرة إذا كان وجودي بينكم الليلة قد سبب لأحد منكم أي ألم، ولكنني في كل لحظة ازداد حيرة من أمري، ويبدو أن هناك أسرارًا تعرفونها وتكتمونها عني.

فقال (دال) في عصبية:

- لا تُعر هذه الحمقاء أيَّ اهتمام، إنها تهذي في بعض الأحيان، ولا بد أن أوقفها عند حدها عندما توشك أن تنطق بأشياء، لا تقدّر مدى خطورتها.

قال «ميم»، وكأنه يحدث نفسه:

- لم أكن أتصور أن في هذه المدينة من يبكي.

فانفجرت (سين) صائحة في ثورة غضب، موجهة حديثها لأخيها:

- ولماذا لا نخبره بالحقيقة ما دمنا نعرفها؟ لماذا نترك هذا المسكين نهبًا للحيرة والقلق؟ هل خلت قلوبنا من الرحمة؟ إذا لم نطلعه على الحقيقة فسوف يعرفها من غيرنا!

فقال (دال) في انفعال شديد:

- وهل تعتقدين أنه سيسعد بالحقيقة، ويطيب نفسًا لو عرفها؟ أليس من دواعي الرحمة في كثير من الأحيان أن يظل الإنسان جاهلًا ببعض الحقائق؟ لماذا تتعجلان تعس هذا الإنسان أنت وأختك الحمقاء؟ لماذا

لا نتركه يسعد بعض الوقت، قبل أن يعرف الحقيقة المرة القاسية التي نرزح نحن جميعًا تحت وطأتها؟ أليس له الحق في السعادة ولو لبضعة أيام؟

فقالت غاضبة:

- ولكننا جميعًا نعلم هذه الحقيقة ولم نعد نشقى بسببها. ها نحن أولاء نضحك ونمرح ونأكل ونلهو على الرغم من معرفتها! لقد اعتدناها وتكيفنا لها، وما دام سيعرفها إن عاجلًا أو آجلًا، فلماذا لا نخبره بها ونريحه من عذاب القلق الذي يستبد به الآن؟

فقال أخوها، وهو يضغط على أعصابه حتى لا يثور:

- وهل تظنين أن عذاب القلق أشد وطأة من الحقيقة المرعبة، الحقيقة البشعة التي تريدان أنت وأختك الحمقاء أن تطلعاه عليها، وهو لا يزال ضيفا حديث العهد بالمدينة. إنني أشد رفقًا به منكما! لماذا لا نتركه يدرك كل شيء من تلقاء نفسه، أو عن طريق مكتب الاستعلامات، كما تنص قوانين المدينة وتقاليدها العريقة؟

ظل «ميم» في أثناء إنصاته لهذا الحديث يحرك بصره بين (دال) وأخته (سين)، وقد شعر بشيء من الدوار. لقد جعله هذا الحديث أشد قلقًا وملأ أعماق نفسه برعب لم يكن يشعر به من قبل. وأخذ يسأل نفسه: «ما هذا الشيء البشع الذي يريد (دال) إخفاءه عني؟». وأراد أن يتكلم، ولكنه آثر الصمت وظل مطرقًا للأرض، ثم رفع رأسه وأخذ يدير بصره

في أنحاء الغرفة، فاسترعى نظره صورة كبيرة معلقة على أحد الجدران. إنها امرأة جميلة في نحو الثلاثين من عمرها. وعندما وجده (دال) يطيل النظر إليها، قال:

- إنها صورة والدتنا، لقد نفذ فيها حكم الإعدام منذ تسعة أعوام، أما والدي فلقد نفذ فيه حكم الإعدام في العام الماضي، تركانا وحدنا في المدينة!

فقال «ميم» في دهشة:

- نُفذ فيهما حكم الإعدام؟ ولماذا؟

فقال (دال):

- لا أحد يدري!

قال «ميم»، وقد سرى الرعب في جسده.

- لا أحد يدري لماذا حكم عليهما بالإعدام؟

فقال (دال):

- إن مالك هذه المدينة له مطلق الحرية في الحكم على أي شخص بالإعدام من أهل المدينة في أي وقت يشاء، ودون إبداء الأسباب!

قال «ميم»، والخوف يكاد يعقد لسانه:

- وكيف حدث هذا؟

نظرت (سين) إلى أخيها وقالت:

- هل أخبره؟

فصاح (دال) غاضبًا:

- لماذا تحاولين إفساد كل شيء؟ لماذا تتعجلين الأمور؟ لماذا تصرين على إشاعة الرعب في قلب هذا الشاب المسكين قبل الأوان؟

قال «ميم»:

- حديثك هو الذي ملأ قلبي بالخوف، وإذا كنت تود حقًّا أن تريحني من العذاب وترحمني من القلق فصارحني بالحقيقة. ما هذا السر الرهيب الذي تريد إخفاءه عني؟

فنظر (دال) في غضب إلى أخته (سين)، وقال:

- هل رأيتما أنت وأختك الحمقاء نتيجة استهتاركما وعدم تقديركما للمسئولية؟ هل رأيتما؟ ماذا أفعل الآن؟

قالت أخته:

- أطلعه على الحقيقة.

هوى (دال) بقبضة يده على المنضدة، فاهتزت الأطباق هزًّا عنيفًا، وصاح قائلًا:

- كلا، لن أطلعه على الحقيقة أيتها الحمقاء، وإياك أن تفتحي فمك بعد الآن.

فلاذت الفتاة بالصمت، وفي هذه اللحظة اندفعت إلى داخل الحجرة أختها (تاء) في رعب شديد، وصاحت:

- لقد رأيت الذُّبابة!

فانتفض أخوها واقفًا وقد شحب وجهه واحتضنها في حنان، وأسرعت إليها أختها وأخذت تقبلها والدموع تسيل على خديها. وقال أخوها بصوت مرتجف:

- أين رأيت الذُّبابة؟

- في غرفة نومي.

- هل أنت متيقنة من ذلك؟

- كل التيقن.

- وهل لمستك الذبابة؟

- كلا، لم تلمسني بعد، لقد هربت منها، وإذا لم تلمسني هذه الذبابة فقد تلمسني ذبابة أخرى!

فصاح الأخ:

- أقفلوا الأبواب والنوافذ واقتلوا الذبابة.

أسرعت (سين) وأغلقت أحد بابي الغرفة، وأسرع أخوها بإغلاق الباب الآخر، وهو يصيح في غضب موجهًا كلامه إلى «ميم»:

- افعلْ شيئًا، أغلق النوافذ، وابحث عن الذبابة واقتلها.

فأسرع «ميم» وأغلق إحدى النوافذ، وهو لا يفهم شيئًا، وقد أخذ قلبه يدق في سرعة وعنف، على حين أغلقت (سين) النافذة الأخرى، وصاحت (سين) في فزع:

- ها هي ذي الذبابة، لقد دخلت الغرفة.

فقالت (تاء)، وهي تبكي وترتجف:

- لا فائدة من إقفال الأبواب والنوافذ! ما دمت رأيتها في المنزل فسوف تلمسني. لن أنجو منها، لن تتركني حتى تلمسني!

وأجهشت بالبكاء، وما لبثت أن صرخت صرخة مدوية، وصاحت:

- لقد لمستني الذبابة!

وسقطت على الأرض، فارتعشت شفتا أخيها، وأخذت يداه تتحركان حركات لا إرادية، وانكفأت عليها أختها تغمرها بقبلاتها وتبللها بدموعها. وحملها أخوها وقد تهدلٍ شعرها وخرج من غرفة الطعام، وخلفه أخته (سين) تبكي، ووجد «ميم» نفسه يسير خلفهما مشدوهًا، وصلوا إلى غرفة نوم (تاء) فوضعها أخوها فوق سريرها وأغمض عينيها، شعر «ميم» أنه في كابوس رهيب، وبدأ جسده يرتجف، وقال في ذهول:

- ماذا حدث؟

فقال (دال)، وهو يحرك رأسه ويديه حركات عصبية:

- كما ترى، لقد نُفّذ فيها حكم الإعدام!

في هذه اللحظة سمعوا صوت جرس الباب يرن رنينًا مستمرًّا، فأسرع (دال) وفتح الباب، فوجد رجلين في ثياب تشبه ثياب السهرة السود، قال له أحدهما:

- لقد حضرت السيارة، سنحمل فيها الجثة لنُلقيها في البالوعة.

قال (دال) وهو مطرق الرأس:

- سمعًا وطاعة. تفضّلا.

فدخل الرجلان واتجها نحو غرفة النوم، وحملا جثة (تاء) وخرجا بها من المنزل، والأخ والأخت و«ميم» خلفهما. وضعا الجثة في السيارة السوداء، ثم جلس أحد الرجلين خلف عجلة القيادة، وجلس الآخر بجواره، وانطلقت السيارة في الشارع و(دال) وأخته (سين) يجريان خلفهما ووجد «ميم» نفسه يجري معهما. الأخت تولول والأخ يبكي بصوت مرتفع، ودموع «ميم» تسيل على خديه!

عندما وصلت السيارة السوداء إلى مكان متسع بالقرب من نهاية الشارع، لاحظوا وجود عدد من السيارات السود من النوع نفسه مرتصة بعضها بجوار بعض. هبط الرجلان من السيارة السوداء، وأخذا منها جثة (تاء)، وحملاها مسافة قصيرة حتى وصلا إلى مكان به غطاء بالوعة مساحته نحو متر مربع، وقف (دال) و(سين) و«ميم» في صمت وخشوع بجوار غطاء البالوعة. وترك أحد الرجلين الجثة بين يدي الرجل الآخر،

وانحنى ورفع غطاء البالوعة، وفي هذه اللحظة سمع «ميم» صفير قطار منبعثًا من الفتحة ثم ألقيا الجثة في البالوعة، وسمع «ميم» صفير القطار مرة أخرى، ثم أعادا الغطاء كما كان!

سار (دال) عائدًا نحو منزله وعلى يمينه أخته (سين) وعلى يساره «ميم»، يجرّون أرجلهم من فرط التعب، وأخذ «ميم» يفكر في هذه الأشياء العجيبة في حزن وذهول، لقد دُعي إلى هذا المنزل لتناول عشاء ولقضاء سهرة ممتعة، فإذا به يجد نفسه يشيّع جنازة فتاة جميلة من أهل المنزل!

عندما وصل الثلاثة إلى المنزل، ظل «ميم» حائرًا يفكر فيما يجب أن يفعله، ثم قال والدموع تترقرق في عينيه والألم يعتصر قلبه:

- أنا في غاية الحزن والأسف لما حدث، أرجو أن تسمحا لي بالعودة إلى منزلي...

وصافحهما وسار في الطريق يبحث عن منزله.

3

كانــت الأضواء تغمر الشــارع فــي تلك الســاعة المتأخرة مــن الليل، وبعـض المحــال التجارية لا تزال فاتحة أبوابها، في أثناء عودة «ميم» إلى منزله. وكان الشارع هادئًا يكاد يكون خاليًا من المارة، وقد ثبتت إشارات المرور على اللون الأصفر، الذي كان يومض ومضات تشبه في إيقاعها دقات القلب. شـاهد «ميم» سـيارة صفراء تنطلق مسـرعة وتمر بجواره، محدثـة صوتًـا بـدا عاليًا في هـذا الهدوء، ثـم اختفت في جـوف الطريق الطويل وتلاشـى صوتهـا تدريجيًّا، ثم عـاد الصوت خافتًـا، وأخذ يعلو، وظهرت السـيارة مرة أخرى قادمة من الاتجـاه المضاد لاتجاهها الأول. شـعر «ميم» بالرعب عندما لاحظ أن تلك السـيارة تطارد رجلًا، والرجل يجري في فزع شديد محاولًا الاختباء.

حار «ميم» ولـم يدر ماذا يفعل. لقد شـاء سـوء طالعه أن يكون شاهدًا على جريمة قتل توشك أن تقترف، كيف يحدث مثل هذا في هذه المدينة التي قال عنها الواعظ، إنها نقية طاهرة لم تقترف فيها جريمة قتل واحدة، ولـم تشهد حادث سرقة أو انحراف من أي نوع طوال تاريخها الطويل؟

كان الرجـل، وهـو فـي نحو الخمسـين لا يـزال يجري وهـو يلهث، والسيارة مستمرة في مطاردته مندفعة نحوه فوق الإفريز، والرجل يحاول

الإفلات منها، شاهد «ميم» رجلًا يرتدي زيًّا رسميًّا، ويضع على رأسه قلنسوة لامعة يسير متبخترًا متئدًا بالقرب منه، فتيقن أنه لا بد أن يكون أحد أفراد الشرطة، فشعر بشيء من الاطمئنان والأمان. هرول «ميم» نحوه وسأله:

- هل أنت من الشرطة؟

فأجاب الرجل، وعلى فمه ابتسامة عريضة:

- نعم، هل تلزمك أية مساعدة؟

قال «ميم» بلهفة وفزع:

- هل شاهدت ما تفعله السيارة الصفراء؟

قال رجل الشرطة بهدوء، والابتسامة ما زالت على شفتيه:

- ماذا تفعل هذه السيارة الصفراء؟

- إنها تطارد رجلًا. جريمة قتل على وشك أن ترتكب في هذا الشارع.

فنظر إليه الشرطي، وظل مثبتا نظره على عيني «ميم» فترة من الزمن وكأنه يفحصه، ثم قال:

- أنت ضيف على هذه المدينة، أليس كذلك؟

- بلى، وجدت نفسي صباح اليوم في هذا الشارع، ولا أعرف من أين أتيت ولا لأي غرض حضرت، حتى اسم المدينة لا أعرفه حتى الآن.

في هذه اللحظة سمع صوت السيارة الصفراء يعلو، وهي تقترب من جديد والرجل يجري محاولًا الابتعاد عنها. ثم عبر الطريق مهرولًا نحو الشرطيّ وكأنه يلجأ إليه ليحميه من الخطر الذي يتهدده، ولكن الشرطيّ ابتعد عنه. وفي مثل لمح البصر قفزت السيارة على الإفريز، وصدمت الرجل صدمة قوية، فسقط على الأرض وقد تكونت حوله بركة من الدم! وفتح باب السيارة، وهبط منها شاب، ذو شعر أحمر وشارب كثيف وعينين خضراوين يميل جسمه للبدانة، فأدى له الشرطيّ التحية العسكرية. وبعد لحظات قصيرة شاهد «ميم» سيارة مسرعة تقترب منهم، ظنها سيارة الإسعاف، ولكنها عندما توقفت بالقرب من الجثة. ذهل «ميم» عندما رآها تشبه السيارة السوداء التي حملت الفتاة الجميلة (تاء)، وقد تكون هي السيارة نفسها. هبط منها رجلان يرتديان ملابس السهرة السود وحملا جثة الرجل، وألقيا بها داخل السيارة، التي تحركت وانطلقت في الاتجاه نفسه، الذي سارت فيه السيارة عندما حملت جثة (تاء)، وظل صاحب السيارة الصفراء واقفًا بجوار الشرطيّ حتى اختفت السيارة السوداء عن الأنظار، ثم أقلّته سيارته، وانطلق بها في الاتجاه المضاد. بقي «ميم» واقفًا مشدوهًا وحاول أن يتكلم، ولكن الخوف عقد لسانه، فنظر إليه الشرطيّ وقال:

- لماذا تسير متسكعًا في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

قال «ميم»، وهو يرتجف:

- كنت عائدًا بعد تشييع جثمان فتاة جميلة، حملته هذه السيارة السوداء التي حملت جثمان هذا الرجل. ما هذه الأشياء العجيبة التي تحدث في هذه المدينة؟ كنت أتوقع؛ وأنت الشرطيّ أن تقبض على القاتل، ولكنني ذهلت عندما رأيتك تؤدي له التحية العسكرية!

قال الشرطيّ:

- أنا أؤدي واجبي.

فصاح «ميم» قائلًا بصوت مرتجف:

- واجبك؟! هل واجبك التستر على القتلة والمجرمين؟

قال الشرطي ناظرًا إلى «ميم» نظرة ازدراء:

- كلا، بل واجبي أن أشرف على تنفيذ أحكام الإعدام.

قال «ميم» مندهشًا:

- وهل هذا الرجل الذي صدمته السيارة محكوم عليه بالإعدام؟

- نعم محكوم عليه بالإعدام ونفذ فيه الحكم!

قال «ميم»، وكأنه في كابوس مرعب:

- ومن الذي حكم عليه بالإعدام؟

- مالك المدينة.

- مالك المدينة حكم عليه بالإعدام؟! ولماذا؟ ما الجريمة التي اقترفها، واستحق عليها الإعدام؟

- لا شيء! لم يقترف أية جريمة أو أيَّ ذنب، بل كان من أفضل الرجال!

- ولماذا أعدم إذن؟

- مالك المدينة لا يُسأل عن أسباب حكمه، إنه يفعل ما يشاء، وما علينا سوى السمع والطاعة!

ثم نظر إلى «ميم» في غضب، وصاح:

- هل تجرؤ على نقد تصرفات مالك المدينة؟ هل تعترض على أوامره؟ فشعر «ميم» بقشعريرة الخوف تسري في جسده، وقال:

- وجثة هذا الرجل، أين تُوارى؟

- سيلقى بها في البالوعة. ولكن ما شأنك أنت بهذا؟ اسمع. يبدو عليك الإرهاق. لماذا لا تذهب إلى منزلك وتنام؟

قال «ميم» وقد اختلطت في ذهنه الأشياء، وأصبح عاجزًا عن التفكير:

- أخشى أن أكون قد ضللت الطريق. لست متيقنا من مكان منزلي؛ إذْ لم أره سوى مرة واحدة، إنه رقم 1824.

- هيا معي، سأعثر لك على منزلك.

سارا معًا في صمت، وبعد نحو عشر دقائق، قال الشرطيّ مشيرًا إلى أحد المساكن:

- أليس هذا بيتك؟

نظر «ميم» إلى المنزل وتعرف عليه، فقال:

- بلى. هو منزلي.

- هيا أسرع لتنال قسطًا من الراحة قبل طلوع النهار.

هَمَّ «ميم» بدخول المنزل، ولكنه توقف ونظر إلى الشرطيّ، وقال:

- سمعت من الواعظ صباح اليوم أن هذه المدينة لم ترتكب فيها أية جريمة من أي نوع ولم يحدث بها أي انحراف. كل من فيها طاهر النفس نقي الضمير، ولكن ما رأيته الليلة أفزعني.

قال الشرطيّ، وعلى فمه ابتسامة:

- هي كذلك، لم يحدث في تاريخ هذه المدينة حادث سرقة واحدة أو جريمة قتل واحدة أو أي انحراف أخلاقي من أي نوع، كل ما سمعته صحيح، وسوف تدرك ذلك بنفسك.

صاح «ميم» في غضب:

- وما قولك إذن في هذه الجريمة البشعة التي رأيتها بعيني هذه الليلة؟ رجل من أفضل الرجال كما قلت أنت، لم يقترف ذنبًا ولم يرتكب إثمًا تطارده سيارة مطاردة وحشية رهيبة وتقتله أمام سمعك وبصرك، وتشحن جثته في السيارة السوداء لإلقائها في البالوعة! ماذا تسمى هذا؟ هل يوجد أبشع من ذلك؟ كيف يطمئن الإنسان على حياته في مدينة كهذه؟

أجاب الشرطيّ، في هدوء مثير للأعصاب:

- لا أحد يطمئن على حياته في هذه المدينة، يجب أن تعلم ذلك، ولكن هذا لا ينفي أن جميع أهلها مسالمون طيبون، لم يقترفوا في حياتهم إثمًا من أي نوع أو أية جريمة، لا يعرفون الشر، بل يحضون على الخير، ولا يفكر أحد منهم في إيذاء مخلوق آخر، حتى لو كان هذا المخلوق نملة ضعيفة مسكينة! إنهم قوم كرماء لضيوفهم. قلوبهم مفعمة بالرحمة والحنان. هل يوجد ما هو أجمل من ذلك؟ كل ما في الأمر أن مالك المدينة يلذ له من آن لآخر أن ينفذ حكم الإعدام في أي إنسان يقع عليه اختياره. تلك هي هوايته المحببة، وإذا كان لكل إنسان عادي الحق في أن تكون له هواية، أفلا يحق لمالك المدينة أن تكون له هو أيضًا هواية، في مقابل ذلك الخير العميم الذي يغمر به جميع أهل المدينة؟

فقال «ميم» في ذهول:

- وما هذا الخير العميم؟

فنظر إليه الشرطيّ نظرة عتاب وقال:

- ألا ترى كل هذه الخيرات التي ينعم بها أهل المدينة؟ كل ما فيها من طعام وكساء ورفاهية ما هو إلا منحة من مالك المدينة! إن كل من في المدينة مدين له بكل شيء، هو الذي منحنا كل هذا.

فقال «ميم» وقد شرد لبه، واختلطت في ذهنه الأفكار:

- وما قيمة كل هذه الخيرات إذا كان الإنسـان في هذه المدينة يعيش خائفًـا، ينتظر الإعـدام في أية لحظـة؟ لماذا لا يبحث مالـك المدينة عن هواية أخرى غير إعدام الأبرياء؟

فقال الشرطيّ، وهو لا يزال مبتسمًا:

- نحـن لا نفكـر في ذلك، كلنا سـعداء، لا نفكر إلا فـي اللحظة التي نحن فيها، هذا هو سر سعادتنا.

سـمع «ميم» فـي هذه اللحظة صوت سـيارة مسـرعة تقتـرب منهما، وتطلق صفيرًا حادًّا، ووقفت السـيارة بجوارهما، وهبط منها رجل ضخم الجثة يرتدي زيًّا رسـميًّا موشّـى بخيـوط من الذهب، ويضع على رأسـه قلنسـوة خضراء، ما إن رآه الشرطيّ حتى شـحب لونه وبدأ يرتجف. قال الرجل موجهًا كلامه للشرطيّ:

- لقـد سـمع مالـك المدينة كل مـا قلته الآن لهذا الشـاب وأرسـلني للقبض عليك.

دهش «ميم» عندما رأى الشرطيّ يركع على ركبتيه أمام هذا العملاق، ويبكي مستعطفًا قائلًا:

- أرجو أن تعفو عني، أنا لم أقل شيئًا يستحق العقاب.

فقال العملاق:

- بل قلت لهذا الشـاب أشـياء تعتبر من الأسـرار، التي ينبغي عليه أن يكتشـفها بنفسـه أو يسـتمد الإجابة عنها مـن مكتب الاسـتعلامات! لقد

تجاوزت حدودك عندما بحت له بهذه الأسرار وحقَّ عليك العقاب! ألم تقل له إن لحاكم المدينة مطلق الحرية في تنفيذ حكم الإعدام في أي فرد، بلا أي ذنب في أي وقت يشاء؟

وجذب الشرطيّ من يده ودفعه في السيارة وأغلق بابها، وجلس خلف عجلة القيادة، وانطلقت السيارة مبتعدة عن «ميم»، الذي ظل واقفًا ينظر إليها مشدوهًا حتى اختفت.

وجد «ميم» باب حديقة منزله مفتوحًا والمصابيح مضاءة في الحديقة، ولكنه عندما صعد السلم الأمامي وضغط على زر جرس الباب، لم يستجب الخادم لصوت الجرس. فظل «ميم» ضاغطًا على زر الجرس، وفكر في ضرورة إعداد نسخة من المفتاح؛ حتى لا يعتمد على الخادم في فتح الباب، وأخذ يفكر: ماذا يصنع لو أن الخادم لم يفتح الباب؟ هل يظل جالسًا على درجات السلم أو في الحديقة حتى الصباح؟ وفي هذه اللحظة فتح الباب وأطل منه الخادم، فأسرع «ميم» بالدخول وكأنه يخشى أن يقفل الباب قبل أن يدخل، وقال الخادم:

- أين كنت طوال هذه المدة؟ لقد يئست من رجوعك.

فقال «ميم»:

- وأنا كدت أيئس من فتح الباب.

صعد «ميم» إلى غرفة نومه، خلع ملابسه ولبس المنامة، وتمدد على السرير، ولكنه لم يشعر برغبة في النوم، ظل مستلقيًا على ظهره،

يستعرض أحداث ذلك اليوم وكأنها شريط سينمائي يعيد عرضه، وأخذ يفكر في سبب وجوده في هذه المدينة ومتى وكيف يغادرها. ويرهق ذهنه ليتذكر من أي مكان أتى. وأضناه التفكير بلا جدوى! تعجل طلوع النهار؛ ليذهب إلى مكتب الاستعلامات ويستفسر عن تلك الأشياء التي تحيّره، وأغمض عينيه. رأى وجوهًا كثيرة تنظر إليه، بعضها يضحك، وبعضها يبكي، وبعضها ذو عيون تبدو وكأنها من زجاج، جفونها لا تتحرك، وتلاشت جميع الوجوه وحل محلها سرب من السيارات السود تطارده، وهو يحاول أن يلوذ بمكان يحتمي فيه، ثم رأى أحد الشرطة يجري خلفه ويلحق به ويمسكه من ذراعه ويهزه هزًّا عنيفًا، رأى شفتي الشرطيّ تتحركان كما تتحرك الشفاه في أثناء الكلام، ولكنه لا يسمع صوتًا، صحا من نومه مذعورًا، فوجد الخادم واقفًا بجوار السرير ويده لا تزال قابضة على ذراعه، قال له الخادم:

- إلى متى تظل نائمًا؟ يجب أن تسرع بالقيام، لتلحق موعد الإفطار في المطعم، ألا تريد أن تأكل؟

قفز «ميم» من السرير شاعرًا بصداع عنيف، وأعد نفسه للخروج، وعندها ذهب إلى الحمام، لاحظ وجود مرآة لم يرها من قبل، فظل يتأمل وجهه في المرآة فترة من الزمن. وجد آلة حلاقة، فحلق ذقنه. وعندما خرج من الحمام، طلب من الخادم أن يعطيه مفتاح المنزل، فسلم له المفتاح، وضع المفتاح في جيبه، وهبط السلم في بضع قفزات سريعة، وهرول خارجًا إلى الشارع.

اتجه نحو المطعم وهو يكاد يعدو، ليلحق الإفطار؛ وعندما وصل تمهل في مشيته وجلس في المكان نفسه، الذي جلس فيه في المرة السابقة. بعد فترة قصيرة، رأى الفتاة نفسها قادمة نحوه مبتسمة متهللة الوجه، وفي يدها صينية عليها طعام، وضعت أمامه طبقًا به بيض مقلي ووعاء به مربى، وكوبًا كبيرًا من اللبن وبعض الخبز، وقالت:

- لماذا لم تحضر للعشاء في الليلة الماضية؟ لقد ظللت أنتظرك وخشيت أن تكون ضللت الطريق، فطلبت من مدير المطعم أن يؤجل موعد إقفاله على أمل أن تحضر، وأجل موعد الإقفال نصف ساعة خصيصًا من أجلك! ماذا كنت تفعل بنفسك طوال هذه المدة؟

فقال «ميم»:

- ظللت أبحث عن المطعم بلا جدوى حتى انتهى موعد العشاء، ورأيت أحداثًا كثيرة في هذه المدينة!

وكان يتوقع أن تسأله الفتاة عن تلك الأحداث التي مرت به، ولكنها لم تفعل، بل ابتسمت، وتركته واختفت عن بصره في مكان داخل المطعم. وأقبل «ميم» على الطعام يلتهمه في نهم وشهية، وعندما أتى على كل ما أمامه من طعام، هرول إلى الشارع باحثًا عن مكتب الاستعلامات.

لم يتعب «ميم» في البحث عن مكتب الاستعلامات كما كان يتوقع، فلقد وجده بالقرب من المطعم لا يبعد عنه سوى بضع خطوات. مكان أنيق به عدد من الكراسي والأرائك الفاخرة المريحة المكسوة بالجلد؛

كان المكتب خاليًا، ليس به سوى فتاة في نحو العشرين من عمرها، جميلة الوجه جالسة خلف منضدة طويلة في صدر المكان، وعندما دخل «ميم» وقفت تستقبله بابتسامة، فاحمر وجهه خجلًا وأطرق للأرض، سألته الفتاة:

- هل تود الاستفسار عن شيء؟

فرفع «ميم» رأسه وقال:

- نعم، أود الاستفسار عن أشياء كثيرة.

ففتحت الفتاة أحد الأدراج، وأخذت ورقة وقلمًا قدمتهما إلى «ميم» قائلة:

- اكتب كل ما يَعِّن لك من أسئلة واستفسارات في هذه الورقة بخط واضح.

فأخذ «ميم» الورقة، وكتب هذه الأسئلة:

أولًا: ما اسم هذه المدينة؟

ثانيًا: ما المهمة التي أرسِلتُ من أجلها إلى هذه المدينة؟

ثالثًا: من أي مكان أتيت؟

رابعًا: ما السر الرهيب الذي يخفونه عني؟

خامسًا: ما المدة التي سأقضيها في هذه المدينة؟

وناول الفتاة الورقة فقرأتها بسرعة، ثم أعطتها إياه قائلة:

- ضعها في فتحة هذا الجهاز.

وأشارت نحو جهاز إلكتروني ضخم، مثبت في الجدار على يمين الداخل، به فتحة تشبه فتحة صندوق البريد. فألقى بالورقة في فتحة الجهاز، ووقف ناظرًا للفتاة وكأنه ينتظر شيئًا، فقالت له:

- اضغط على الزر الأخضر الذي بجوار الفتحة، تهبط من الفتحة السفلى ورقة، بها الإجابة عن جميع أسئلتك!

4

ضغط «ميم» على الزر الأخضر، فسمع ضجة داخل الجهاز، وهبطت من الجهاز ورقة استقرت على حاجز أسفل الفتحة السفلى، التقط «ميم» الورقة ونظر فيها بلهفة؛ ليقرأ الإجابة عن أسئلته فوجد الآتي:

أولًا: اسم المدينة لا يدل على شيء. سمها كما تريد!

ثانيًا: المهمة التي أرسلت من أجلها إلى هذه المدينة هي: البحث عن الحقيقة.

ثالثًا: من أي مكان أتيت: أتيت من مكان مجهول.

رابعًا: السر الرهيب الذي يخفونه عنك هو: جميع سكان هذه المدينة بلا استثناء محكوم عليهم بالإعدام.

خامسًا: المدة التي ستقضيها في هذه المدينة: طوال حياتك حتى يحين موعد تنفيذ حكم الإعدام فيك.

شعر «ميم» بدوار عندما انتهى من قراءة الورقة، ولاحظت الفتاة شحوب لونه وترنحه، فأسرعت إليه وأسندته على صدرها، ثم أجلسته على أريكة مريحة، ودخلت من باب جانبي، ثم عادت مسرعة وفي يدها كوب به سائل. جلست بجواره وأسندت رأسه على كتفها، وقالت:

- اشرب هذا الشراب المنعش.

فتناول منها الكوب بيد مرتعشة وشرب ما فيه، ونظرت إليه الفتاة فرأت الدموع تسيل من عينيه، فسألته:

- ماذا حدث؟ لماذا تبكي؟

فناولها الورقة قائلًا بصوت متهدّج:

- اقرأي الإجابة التي تلقيتها.

قرأت الفتاة الورقة بلهفة، ثم سلمتها إليه قائلة:

- لا أرى ما يستحق الحزن والبكاء!

فنظر إليها «ميم» في دهشة، وقال:

- ألا يفزع الإنسان عندما يعلم أنه محكوم عليه بالإعدام؟

قالت الفتاة مبتسمة:

- ولماذا تحزن؟ لست وحدك المحكوم عليك بالإعدام، كل من في المدينة سيواجه هذا المصير، فلماذا تحزن أنت أكثر من غيرك؟

قال «ميم»، وهو شارد اللب زائغ البصر:

- الإنسان لا يسأل لماذا يحزن. الحزن شيء تلقائي لا إرادي.

ولزم الصمت برهة قصيرة، ثم قال:

- أريد أن أستفسر منك عن شيء آخر نسيت الاستفسار عنه في الورقة التي كتبها.

قالت الفتاة، وقد تلاشت ابتسامتها:

- غير مسموح بالاستفسار عن أي شيء، غير الذي كتبته في الورقة!

ثم قالت بعد فترة صمت:

- ولكن ما هذا السؤال الذي نسيت الاستفسار عنه؟

- أنا لم أنس الاستفسار عنه، فهو ذو صلة بالإجابة التي تلقيتها، ولم أكن أتوقعها.

- ما هذا السؤال؟

قال «ميم» وهو يبسط الورقة التي بيده، ثم يطويها في حركة عصبية:

- متى سينفذ حكم الإعدام في سكان هذه المدينة؟

ضحكت الفتاة ضحكة عذبة، وقالت:

- يمكنني أن أجيبك أنا عن هذا السؤال. إن حكم الإعدام لن ينفذ في جميع السكان في وقت واحد، بل سينفذ في كل شخص على حدة وفي موعد قد يختلف هو وموعد الآخرين. قد يعدم عدة أشخاص في يوم واحد، وقد يعدم شخص واحد في يوم، وقد تعدم مجموعة كبيرة في اللحظة نفسها، لا أحد يعرف موعده. أنا مثلًا قد ينفذ فيّ حكم الإعدام

في هذه اللحظة، وقد يؤجل تنفيذه حتى أبلغ من العمر مائة عام أو أكثر! لا أحد يدري!

وضع «ميم» كفه على خده، وتقلصت عضلات وجهه، وانهمرت الدموع من عينيه، فأسرعت الفتاة والتقطت حقيبة يدها التي كانت على طرف المنضدة، وأخرجت منها منديلًا وأخذت تجفف دموعه قائلة:

- أنا لا أرى ما يدعو للبكاء! لماذا تبكي؟

قال «ميم» بصوت متهدج:

- وما الجريمة التي اقترفها سكان هذه المدينة، واستحقوا من أجلها أن يعدموا جميعًا؟

قالت الفتاة؟

- لا علاقة بين ارتكاب الآثام وتنفيذ حكم الإعدام! في هذه المدينة أطفال أبرياء لم يرتكبوا إثمًا، وعلى الرغم من ذلك، فلقد نفذ فيهم حكم الإعدام قبل أن يتموا العام الثاني أو الثالث من أعمارهم!

فصاح «ميم» في عصبية، وهو يهوي بقبضة يده على المنضدة الصغيرة التي أمام الأريكة، فسقط الكوب الذي كان عليها:

- إذن لماذا يُعْدَمون؟ لماذا يُعْدَم من لم يرتكب جريمة؟

قالت الفتاة في فزع، وكأنها تعجب من سؤاله الذي لم يخطر لها على بال:

- لا أحد يدري! ولا أحد يجرؤ أن يسأل هذا السؤال!

صاح «ميم»، وعضلات وجهه لا تزال متقلصة من الغضب:

- إذن ما الفرق بين المذنب والبرئ ما دام الجميع سيعدمون؟

قالت الفتاة في هدوء:

- لا يوجد مذنبون. الجميع أبرياء.

صاح «ميم» قائلًا:

- ما اسم هذا المالك؟ إنه مالك ظالم.

في هذه اللحظة، دوت الأجراس في جميع أنحاء المدينة، وكأنها هدير الرعد، وانطلقت في الشارع السيارات الصفراء تحصد الأطفال والنساء والرجال، وعلا صراخ الناس وأخذوا يجرون في ذعر شديد، وساد الاضطراب وعمّت الفوضى، ووقفت الفتاة وقد شحب لونها واتسعت عيناها، وقالت لـ«ميم» وهي ترتجف:

- هل ترى ماذا فعلت؟

صاح «ميم»:

- أنا لم أفعل شيئًا.

قالت الفتاة وهي لا تزال ترتعد:

- لقد أغضبت مالك المدينة، أنت المسئول عن هذه الكارثة التي راح ضحيتها جميع هؤلاء الأبرياء المساكين، الذين حصدتهم السيارات الصفراء.

قال «ميم»، وهو شارد الذهن:

- إذا كنت أنا الذي أغضبت مالك المدينة فما ذنب الآخرين؟ لماذا لا تحل الكارثة بي وحدي؟

- الكوارث باهظة التكاليف، ليس من المعقول أن يبذل المالك ذلك المجهود الكبير من أجل فرد واحد، لا بد أن يؤذَى بسببك أفراد عديدون أبرياء! انظر... انظر إلى الجثث الملقاة في كل مكان! لقد نفذ مالك المدينة حكم الإعدام في جميع هؤلاء، وكل هذا بسببك.

في هذه اللحظة توقف دق الأجراس، واختفت السيارات الصفراء، وقام «ميم» وأطل من باب مكتب الاستعلامات، فارتجف رعبًا عندما شاهد الجثث والأشلاء المبعثرة في الشوارع وعلى الإفريز، وكأنها بقايا معركة حربية ضارية، فأخفى عينيه بيديه وهرول نحو الفتاة صائحًا:

- أنا لا أريد البقاء في هذه المدينة، لا أريد البقاء هنا، إنها مدينة بشعة، رهيبة.

جلست الفتاة في مكانها خلف المنضدة، وقد استعادت هدوءها، وقالت:

- وإلى أين تود أن تذهب؟

- أذهب إلى مكان آخر غير هذا المكان المرعب، سأهرب من هذه المدينة.

- لن تستطيع الهرب.

فصاح في يأس:

- ولماذا لا ينفذ فيَّ ذلك المالك حكم الإعدام ويريحني؟

نظرت إليه الفتاة وثبتت عينيها في عينيه فترة من الزمن، ثم قالت في هدوء:

- أنسيت أنك حضرت إلى هذه المدينة لأداء رسالة؟

فصاح «ميم» في غضب:

- أي رسالة تلك؟

- البحث عن الحقيقة.

- كيف أبحث عن الحقيقة وسيف الإعدام مسلط فوق عنقي؟ إنني أتوقع تنفيذ الإعدام في أية لحظة.

نظرت إليه الفتاة مبتسمة، وقالت:

- كلنا سنعدم مثلك، ولا نعرف موعد إعدامنا. قد يحدث ذلك في أية لحظة، ومع ذلك فها نحن أولاء نعمل ونفكر ونمرح ونفرح ونأكل ونشرب، وتدور في رؤسنا الصغيرة آمال كبيرة.

- هذا أعجب شيء! لا أظن أنني سيهدأ لي بال أو يغمض لي جفن، بعد أن عرفت هذه الحقيقية المفزعة!

في هذه اللحظة اقترب سرب من السيارات السود، وتوقفت بالقرب من مكتب الاستعلامات، وهبط منها رجال يرتدون ملابس السهرة السود، وأخذوا يحملون الجثث والأشلاء ويكدسونها داخل السيارات، وبعد أن خلا الطريق من الجثث أقلت الرجال سياراتهم، وانطلقت بهم في الاتجاه المؤدي إلى البالوعة، وانطلق يعدو خلف السيارات عدد كبير من الناس يبكون ويولولون، وأخذ صوت البكاء الذي يرن في أذني «ميم» يخف شيئًا فشيئًا إلى أن تلاشى، واختفت السيارات، فقالت الفتاة وعلى فمها ابتسامة:

- لقد عاد الهدوء وكأن لم يحدث شيء!

قال «ميم»:

- ولكن الهدوء لن يعود إلى نفسي.

قالت الفتاة:

- عليك أن تبدأ منذ هذه اللحظة في أداء مهمتك، التي أتيت إلى المدينة من أجلها. لابد أن تبدأ في البحث عن الحقيقة.

قال «ميم»، وكأنه يحدث نفسه:

- ما الحقيقة التي سأبحث عنها؟

قالت الفتاة، وقد تلاشت ابتسامتها:

- ليس هذا من شأني ولا من شأن أحد سواك، عليك أن تكتشف كل شيء بنفسك.

خرج «ميم» من مكتب الاستعلامات يفكر في هذه «الحقيقة» التي جاء هنا، ليبحث عنها. ما هذه الحقيقة؟ وكيف يبحث عنها؟ وشعر بالجوع فهرول نحو المطعم.

كان المطعم مزدحمًا فلم يجد مكانًا خاليًا، ولمحته الفتاة التي اعتادت تقديم الطعام إليه، فهرولت نحوه وطلبت منه أن يتبعها، سارت وهو خلفها في ممر طويل، يؤدي إلى قاعة متوسطة الاتساع بها نحو عشرين منضدة، أجلسته عند إحدى المناضد. لم يكن على المنضدة سوى سلة بها خبز، وغابت عنه فترة، ثم عادت وفي إحدى يديها وعاءٌ من الفضة ذو غطاء، وفي اليد الأخرى سلة بها فاكهة، وضعت الوعاء والسلة أمامه على المنضدة، وكشفت الغطاء فرأى دجاجة محمرة وكمية من الأرز، ثم وقفت بجواره مبتسمة، وسألته:

- أي طلبات أخرى؟

فأطرق نحو الأرض لحظة، ثم رفع رأسه وقد أحمر وجهه خجلًا:

- لي طلب أرجو أن تحققيه لي.

- هل تريد مزيدًا من الطعام؟

- كلا. أريد شيئًا آخر.

- ما هو يا ترى؟

- أن تتفضلي بزيارتي في منزلي هذه الليلة بعد انتهاء عملك.

- وماذا تريد مني؟

- لا شيء! أشعر بوحدة قاتلة وضيق شديد، وأتمنى أن تؤنسيني في وحدتي، لنتحدث معًا بعض الوقت.

قالت، وقد تجهم وجهها:

- إن مهمتي أن أحضر لك الطعام عندما تحضر إلى هذا المطعم، وليست مهمتي أن أؤنسك في وحدتك أو وحدة غيرك! ألا تعرف أن ذهاب فتاة إلى منزل رجل يعيش بمفرده يعتبر خطيئة؟ خطيئة بالنسبة لك وخطيئة بالنسبة للفتاة التي تقبل دعوتك! هل جئت لتلوث بخطاياك هذه المدينة الطاهرة؟

شعر «ميم» بدوار! وفي انفعال شديد اتجهت الفتاة نحو آلة تليفون مثبتة في أحد جدران المطعم ورفعت السماعة، وأدارت رقمًا، ودار بينها وبين الشخص الذي عند الطرف الآخر للخط حديث مقتضب لم يسمعه «ميم»، ثم وضعت السماعة في مكانها، واتجهت نحو «ميم» ووجهها لا يزال متجهمًا، وقالت:

- آسفة لأن أحمل إليك نبأ غير سار!

توقفت اللقمة في حلق «ميم»، ونظر إليها في دهشة وفزع، وقال:

- أي نبأ هذا؟

- لقد شكوتك للجهات المسئولة بسبب هذا الطلب غير اللائق الذي وجهته إليّ، وأمروا بحرمانك من تناول الطعام بالمجان منذ هذه اللحظة، فإذا حاولت منذ الآن تناول الطعام في هذا المطعم أو في أي مطعم آخر، فسوف يتحتم عليك دفع ثمن ما تأكله!

شعر «ميم» بالعرق البارد يتفصّد من جبينه، وغامت الدنيا أمام عينيه وقال:

- ولكنك ذكرت لي، عندما رأيتك لأول مرة، أنني معفي من جميع النفقات لمدة عام بصفتي ضيفًا..

- هذا تكريم للضيوف الذين يلتزمون بقواعد الأخلاق الكريمة، أما أنت فلقد بدا منك ما يعارض الفضيلة والشرف! ولذا فلقد صدر قرار بحرمانك منذ هذه اللحظة من هذا التكريم.

سحبت الطعام من أمامه، ووضعته على منضدة بجوار الحائط، فقام والدموع تكاد تنهمر من عينيه، وحاول أن يتكلم، ولكنها لم تعطه الفرصة، فلقد أدارت له ظهرها، وخرجت من القاعة دون أن تنظر إليه، فجرى خلفها محاولًا استعطافها والاعتذار عما بدر منه، فنظرت إليه بازدراء، وقالت:

- لا فائدة! لقد صدر قرار لا رجوع فيه، وقضي الأمر!

فقال بصوت متهدج:

- ولكنني لا أمتلك أي نقود.

التفتت إليه وقالت:

- اذهب ودر في الطاحونة! فتحصل على كل ما تحتاج إليه من مال. أنت قوي كالثور!

واستدارت بسرعة وأولته ظهرها من جديد، وأسرعت الخطى مبتعدة عنه، وتركته واقفًا مشدوهًا لا يدري ماذا يفعل.

خرج من المطعم وسار في الشارع مطاطئ الرأس شاعرًا بالخزى والعار، واتجه نحو منزله يجر ساقيه، وكأنهما مربوطتان في سلاسل من حديد!

رأى «ميم» بالقرب منه ثلاث فتيات، عندما نظرن إليه صرخن صرخات رعب، وانطلقن يجرين مبتعدات عنه. ثم مر على خمس فتيات وقفن يتحادثن في مرح على الإفريز، وعندما وقعت أنظارهن عليه أشاحوا وجوههن عنه وبصقن على الأرض! وشعر كأنه قد أصبح وحشًا كريه المنظر موصومًا بالعار تنبو عنه الأبصار، فأخذ يعدو، وعلى طول الطريق يطل عليه الناس من النوافذ والشرفات، موجهين إليه شتى أنواع الشتائم، ويلقون عليه الأحجار، فاستمر يعدو وهو يلهث، ويتصبب العرق من وجهه حتى وجد نفسه أمام منزله، كان باب الحديقة مفتوحًا، فهرول وصعد السلم الأمامي، وأخرج المفتاح وفتح الباب، فأسرع إليه الخادم وسأله بازدراء:

- ماذا تريد؟

قال «ميم»:

- هل نسيتني؟ هذا منزلي، أنا «ميم نون».

قال الخادم:

- لقد ورد لي أمر بعدم السماح لك بدخول المنزل، فأرجو أن تخرج فورًا حتى لا تعرضني للعقاب، أغرب عن وجهي فأنت موصوم بالعار!

فانفجر «ميم» صائحًا:

- ماذا فعلت لأوصم بالعار؟ أنا لم أرتكب ذنبًا!

قال الخادم، وهو مطرق للأرض:

- ألـم تدْعُ فتاة المطعم لتؤنس وحدتك هنـا بعد الانتهاء من عملها؟ ألا تعلم أن دعوة فتاة إلى منزلك لا تربطك بها علاقة شرعية يعتبر إثمًا؟

قال «ميم» بانفعال، والغضب يطل من عينيه:

- لم أقصد سوى صحبة بريئة، لم تَدُر في ذهني أي أفكار مريبة!

- لقد صدر القرار وانتهى الأمر. ناولني مفتاح المنزل حتى لا أضطر لتغيير كالون الباب.

قال «ميم» متحديًا:

- لن أسلم لك المفتاح!

عنـد ذلك انقض عليه الخادم، وانتزع منه المفتاح بالقوة، ودفعه دفعة قوية، فسقط على درجات السلم أمام المنزل، وأغلق الباب في وجهه!

5

مرة أخرى، يجد «ميم» نفسه سائرًا في الشارع الوحيد بالمدينة على غير هدى، لم يعد ينتظر موعد غداء ولا موعد عشاء، ولم يعد له مكان يأوي إليه! إنه الآن مطالب بدفع نفقات طعامه ومأواه وكسائه، ولكنه لا يمتلك مالًا جيوبه خاوية ورأسه مزدحم بأفكار سوداء يائسة. مر أمامه شاب بصحبة فتاة، عندما نظرا إليه بدا عليهما الاشمئزاز، وأشاحا بوجههما عنه، حتى الأطفال أصبحوا ينظرون إليه في فزع ويولون هاربين، وكأنه الطاعون! لم يحمل لأحد منهم أية كراهية، بل أصبح يرثي لحال كل سكان هذه المدينة، أليسوا جميعًا محكومًا عليهم بالإعدام؟ وهو أيضًا محكوم عليه بالإعدام، يربطه بهم مصير واحد.

أصبح «ميم» يعطف عليهم عندما يراهم يبتسمون، وتكاد تطفر الدموع من عينيه عندما يسمع ضحكاتهم. وعندما يراهم يسرعون الخطى ويلهثون يتعجب: لماذا يرهقون أنفسهم وهم محكوم عليهم بالإعدام، وقد ينفذ فيهم ذلك الحكم الرهيب في أية لحظة؟ وفكر في أنه مادام على قيد الحياة، فلا بد له من الحصول على المال اللازم لطعامه وكسائه ومأواه. لا سبيل أمامه الآن سوى الدوران في الطاحونة. وشعر بالحزن يعتصر قلبه لتلك المعاملة القاسية، التي أصبح يلقاها من جميع أهل

المدينة أطفالًا ورجالًا ونسـاء، وهو يعتقد في أعماق نفسه أنه لم يرتكب أي إثــم ولـم يقترف أيـة جريمة! إنه عندما دعا تلك الفتـاة لتؤنس وحدته في مسـكنه، لم يكن يقصد من وراء ذلك سـوى جلسة بريئة يتحدث فيها معهـا بعض الوقت، فهـو لا يكاد يعرف مخلوقًا سـواها في هذه المدينة، لـم تخطـر على باله مطلقًـا في أية لحظة أيـة فكرة خبيثة! إنـه مظلوم! لم يفكـر في الإسـاءة إلى هذه الفتـاة أو إلى أية فتاة غيرها. واسـتمر يحدث نفسـه قائلًا: إنه على أية حال كان من المحتم أن يدور في الطاحونة، بعد انقضاء فترة الضيافة في المدينة وهي عام واحد، كل ما في الأمر أنه سيبدأ الدوران في الطاحونة، مبكرًا عن الموعد الذي كان مقررًا.

سار «ميم» يبحث عن الطاحونة، فشعر بوحدة قاسية واكتئاب شديد، إنه لا يعرف مكانها ولا يجرؤ على سؤال إنسان. ورأى أحد الشرطة واقفًا وكأنه تمثال، فاقترب منه وسأله متلعثمًا من شدة الخجل:

- هل تتكرم بإرشادي عن مكان الطاحونة؟

نظر إليه الشرطيّ بوجه عبوس، وقال له بازدراء:

- عليك أن تبحث عنها بنفسـك، وقبل أن يسـمحوا لك بالدوران في الطاحونة لابد أن تجتاز اختبارًا، فهل أنت مستعد لهذا الاختبار؟

فقال «ميم» مندهشًا:

- اختبار؟ من أي نوع هذا الاختبار الذي لا أعلم عنه شيئًا؟

قال الشرطيّ ناظرًا إلى «ميم» نظرة قاسية:

- لا أحد يدري! كل ما أعرفه أن اختبارًا من نوع معين ينبغي أن تجتازه بنجاح؛ ليسمحوا لك بعد ذلك بالدوران في الطاحونة!

فشعر «ميم» بدوار، وقال:

- وماذا يحدث لو فشلت في هذا الاختبار؟

- لست أدري!

- وكيف أستعد لاختبار لا أعلم عنه شيئًا؟

في هذه اللحظة أقبل عدد من الفتيان والفتيات ومروا أمامهما، وهم ينشدون معًا أغنية مرحة، فنظر إليهم الشرطيّ بإعجاب، ونظر إليهم «ميم» بعينين حزينتين دامعتين، وبغتة فتحت بالوعة تحت أقدامهم، وابتلعت شابين وفتاة، وعلا صراخ باقي الشبان والفتيات، وأسرع نحوهم الشرطيّ وخلفه «ميم» ووقف «ميم» عند حافة البالوعة وأطل ليرى ما بداخلها، فلم ير سوى ظلام. ومن أعماق البالوعة سمع صفير قطار. أعاد الشرطيّ غطاء البالوعة إلى مكانه، وسار باقي الفتيان والفتيات يبكون، ويجففون دموعهم بمناديلهم، وعاد الشرطيّ إلى مكانه، وكأن لم يحدث شيء! عقدت الدهشة لسان «ميم» فلم يستطع الكلام، وظل ناظرًا نحو البالوعة مشدوهًا، كان يعتقد أن الشرطيّ سيسرع باستدعاء الإسعاف؛ لإنقاذ الذين سقطوا في البالوعة بدلًا من إعادة الغطاء مكانه، فقال له الشرطيّ:

- ماذا دهاك؟ ألم تشاهد من قبل تنفيذ حكم الإعدام؟

قال «ميم»، وكأنه في حلم:

- تنفيذ حكم الإعدام؟

- نعم. هذان الشابان وهذه الفتاة الذين سقطوا في البالوعة حان موعد تنفيذ حكم الإعدام فيهم في هذه اللحظة. هل في هذا شيء غريب؟ ألم يخبرك مكتب الاستعلامات أن جميع سكان هذه المدينة محكوم عليهم بالإعدام، وأنت أيضًا محكوم عليك بالإعدام، وقد ينفذ فيك الحكم في أية لحظة.

أطرق «ميم» إلى الأرض حزينًا وقال، وكأنه يحدث نفسه:

- بلى، علمت ذلك.

وسار «ميم» يبحث عن الطاحونة وكأنه يحمل جثته فوق كتفه، شعر برعب فانطلق يجري، وكأنه يهرب من شيء لا يعرفه وقد بدا عليه الإرهاق الشديد، ووصل إلى ميدان متسع في وسطه حديقة بها شتى أنواع الزهور، ويتوسط الحديقة حجر مستدير من الجرانيت ارتفاعه نحو متر، وفوق هذا الحجر تمثال شابٍّ في نحو العشرين من عمره يبكي، ذي وجه وسيم شاحب ناصع البياض وشعر ناعم متهدل على جبهته، يحمل في يديه قلمًا وقرطاسًا. جلس «ميم» على أرض الحديقة، واستند بظهره على الحجر، وأخذ يحدث نفسه قائلًا: «أنا مظلوم! أليس في هذه المدينة من أشكو إليه همي وعذابي، ويرفع عني هذا الظلم الذي أرزح تحت أعبائه؟ وانفجر يبكي بكاء عنيفًا جعل جسده يهتز، وشعر بيد تملس على

رأسه، فنظر إلى التمثال مندهشًا، فوجد أن اليد التي امتدت نحو رأسه ما هي إلا يد ذلك التمثال، فانتفض واقفًا وعيناه مثبتتان نحو التمثال، وصاح في فزع:

- التمثال دبت فيه الحياة!

قال الشاب:

- لست تمثالًا!

قال «ميم» بدهشة:

- لست تمثالًا؟ ظننتك حجرًا! من أنت؟

- لست حجرًا، أنا مثلك من لحم ودم، اعتدت الجلوس على هذا الحجر؛ لكي أنظم الشعر وأبكي.

قال «ميم»، وهو لا يزال في ذهول:

- تنظم الشعر؟

- نعم. أنا شاعر، لماذا تبكي؟

- أشعر بتعب يهز كياني وحزن يملأ قلبي! أنت الإنسان الوحيد الذي لم يشح بوجهه عني في هذه المدينة، ولماذا تبكي أنت؟

- أبكي من أجلك ومن أجل جميع أهل المدينة.

- ولماذا تبكي من أجلي ومن أجل جميع أهل المدينة؟

- أذني تلتقط بكاء كل من يبكي، وكلما سمعت بكاءً وجدت نفسي أبكي، ولذا فأنا دائم البكاء! هل تحب سماع القصيدة التي كنت أنظمها في هذه اللحظة؟

- نعم، أحب أن أسمعها.

فأخذ الشاب الشاعر يتلو القصيدة، وكأنه يغني:

تهيم الجبال بحب السماءْ	فتسعى لتقبيلها في حياءْ
وموجٌ يعانق موجًا ويجري	يداري هواه بكرٍّ وفرِّ
وبدرٌ يُطل بضوء عليلْ	يقبّل صفحة نهر جميلْ
وشمسٌ يمد سناها الذراعَا	يعانق أرضا ويفنى التياعَا
وماذا تساوي مئات القُبَلْ	إذا غاب عني بريق الأملْ؟

في هذه اللحظة سمع «ميم» أزيز طائرة، ونظر إلى السماء، فرأى الطائرة تحوم فوقهما، فانتفض الشاعر، ووقف فوق الحجر ناظرًا إلى الطائرة في فزع.

أخذت الطائرة تقترب منهما وهي تدور فوق الميدان، وفي مثل لمح البصر انطلق منها سهم، اخترق قلب الشاعر الذي صرخ صرخة ضعيفة، ثم سقط من فوق الحجر والدم يتفجر من جسده. ثم أخذت الطائرة تبتعد حتى اختفت في السماء. نظر «ميم» إلى جثة الفتى الشاعر وهي ملقاة أمامه، كانت الدموع لا تزال تلمع في عيني الشاعر، وبدا وجهه وكأنه وجه (ملاك)، فانكفأ «ميم» فوق الجثة واحتضنها، وانخرط في

بكاء عنيف. وسمع صوت رجلين يتحدثان، نظر فوجد رجلين في ثياب السهرة، انحنى أحدهما وأزاح «ميم» بعيدًا عن الجثة، فأخذ «ميم» يلوح بقبضة يده صائحًا:

- لماذا ينفذ حكم الإعدام في شاعر رقيق بريء صغير السن لم يؤذ أحدًا؟ كان يبكي من أجل جميع أهل المدينة! لماذا يحكم عليه بالإعدام؟ لماذا يُقْتَل الأبرياء في هذه المدينة؟

فنظر إليه الرجلان في غضب، ودفعه أحداهما دفعة قوية، فانكفأ على وجهه، وقال له أحد الرجلين:

- إنها إرادة مالك المدينة، ولا أحد يجرؤ على مخالفتها. اقفلْ فمك ولا تنطق بكلمة أخرى.

حمل الرجلان جثة الشاعر، واتجها نحو سيارة سوداء عند حافة الحديقة، وضعا الجثة في السيارة، ثم جلسا في المقدمة، وتحركت السيارة وهرول «ميم» خلفها يبكي بصوت مسموع. يبكي الإنسان الوحيد في المدينة، الذي تحدث إليه في مودة وعطف ولم يشح بوجهه عنه. وسمع صوت بكاء خلفه، فالتفت وإذا بمئات من الناس يجهشون بالبكاء ويجرون خلف السيارة، وارتفع صوت البكاء من جميع النوافذ والشرفات حتى أصبح شبيهًا بهدير الرعد، وأخذوا يلقون الأزهار فوق السيارة السوداء. ولأول مرة منذ وجد «ميم» نفسه في هذه المدينة يرى جميع من فيها يبكون، وسمع أجراسًا تدوي في أنحاء متفرقة مختلطة

بصوت موسيقى حزينة لا يعرف مصدرها. وأخذت جميع الأصوات تخفت تدريجيًّا، ثم لم يعد يسمع شيئًا، ولا يرى شيئًا، ولم يشعر بنفسه، فلقد أغمي عليه.

عندما أفاق «ميم» من إغمائه، وجد نفسه ملقى على إفريز الشارع بجوار جذع شجرة ضخمة. شعر بجوع شديد، وعندما هم بالوقوف أحس بإعياء وبذل مجهودًا حتى تمكن من الوقوف. نظر حوله فلم يجد أحدًا، لقد خلا الشارع من جميع البشر، وبدت المدينة وكأنها مهجورة تمامًا. كانت جميع الأبواب والنوافذ موصدة، فشعر بوحشة شديدة الوطأة. وفي وسط هذا الصمت القاتل، خيل إليه أنه يسمع دقات قلبه وكأنها دقات طبول! فأخذ يعدو وكأنه يهرب من هذه الدقات، وشعر بإعياء شديد، فتوقف عن العدو وأخذ يلهث. وتذكر أنه يبحث عن الطاحونة، ولكن كيف يستدل عليها والشارع قد خلا من جميع المارة ولا يوجد إنسان واحد يسترشد به، حتى لو اهتدى إليها فلن يستطيع دخولها، فجميع الأبواب موصدة.

أخذ «ميم» يسير على غير هدى ويسأل نفسه: أين ذهب الناس؟ هل هاجروا إلى مدينة أخرى؟ وتمنى لو يستطيع مغادرة هذه المدينة الملعونة، التي وجد نفسه فيها رغم إرادته! سار يبحث عن منفذ يهرب منه، ولكن جميع المباني على جانبي الشارع متصلة وليس بينهما أي منفذ! واستمر سائرًا حتى وصل إلى إحدى نهايتي الشارع، فوجد بوابة ضخمة موصدة، تؤدي إلى حديقة منزل ضخم يسد الطريق، أخذ يتأمل

المنزل، فوجد بعض نوافذه مفتوحة والبعض الآخر مغلقًا. وحاول أن ينفذ ببصره خلال النوافذ المفتوحة، فلم يستطع رؤية أي شيء! استبد به رعب شديد، فخطر له أن يحاول فتح البوابة الخارجية، فاقترب منها وإذا بالبوابة تفتح من تلقاء نفسها، فنظر إليها مشدوهًا ودخل، وإذا بالبوابة تغلق من تلقاء نفسها. ووجد نفسه في حديقة القصر. لم ير أحدًا في الحديقة. فصعد سلمًا يؤدي إلى باب المنزل، وعندما اقترب منه وجده يفتح أيضًا من تلقاء نفسه، فدخل ووجد الباب يغلق خلفه تلقائيًا، وجد نفسه في بهو فسيح مزدانٍ بالتماثيل والصور والتحف الرائعة والأثاث الفاخر.

شعر بخوف شديد عندما وجد الباب مغلقًا، وأخذ يلوم نفسه على دخول منزل لا يعرف سكانه، فلقد أصبح كفأر في مصيدة! ولكنه أخذ يطمئن نفسه قائلًا: إن المدينة أصبحت مهجورة، ولا بد أن هذا المنزل قد أصبح مهجورًا كباقي المدينة، رأى سلمًا على يمين البهو يؤدي إلى الأدوار العليا، فتقدم نحو السلم في تردد، وبدأ يصعد درجاته في بطء وحذر. وفجأة اعتراه هلع شديد وتصبب عرقه غزيرًا، فلقد أبصر رجلًا نحيلًا يرتدي حلة بيضاء ورباط عنق أزرق، ويضع أمام عينه نظارة سوداء.

تسمّر «ميم» في مكانه، وأخذ الرجل يهبط درجات السلم قادمًا نحوه، ثم وقف وأخذ يطيل النظر إلى «ميم» في صمت، و«ميم» لا يجرؤ على الكلام، وبعد نحو دقيقتين قال له الرجل:

- أين الشكوى؟

فلم يفهم «ميم» شيئًا، وقال:

- أي شكوى؟

قال الرجل، وهو لا يزال واقفًا في مكانه:

- لا يحضر إلى هذا المنزل إلا من لديه شكوى مكتوبة، يرغب في تقديمها إلى مالك المدينة.

شعر «ميم» برهبة، وانعقد لسانه وحاول أن يتكلم فلم يستطع، فأعاد الرجل سؤاله:

- أين الشكوى؟

وحلت عقدة لسان «ميم» فقال:

- ليس معي شكوى مكتوبة.

- إذن لا بد أن تجلس وتكتب أية شكوى ما دمت سمحت لنفسك بدخول هذا المنزل. مالك المدينة يحب الشكاوي، ويسعد كلما ازداد عددها، فهو حريص على التحقيق في كل شكوى. هيا معي.

هبط الرجل السلم، وسار متجهًا نحو باب مقفل في الجهة اليسرى للبهو، و«ميم» يسير خلفه، وعندما اقترب الرجل من الباب فتح من تلقاء نفسه، فدخلا غرفة صغيرة جميع جدرانها مبطنة بنوع فاخر من الخشب بني اللون، ليس بها سوى منضدة وكرسي واحد، قال له الرجل:

- اجلس على هذا الكرسي.

جلس «ميم» على الكرسي أمام المنضدة، واتجه الرجل نحو صوان في جدار الغرفة، لم يلاحظ «ميم» وجوده عندما دخل؛ إذ إنه في مستوى الجدار وفي مثل لونه، فتح الرجل الصوان وأخرج منه قلمًا وبعض الأوراق، وضع الأوراق على المنضدة أمام «ميم»، وناوله القلم قائلًا:

- اكتب شكواك، وأسرع قبل حدوث الزلزال.

قال «ميم» في دهشة:

- الزلزال؟

- نعم سيحدث زلزال عنيف في المدينة بعد لحظات، ألم تر الشارع خاليًا وجميع الأبواب والنوافذ مغلقة؟

- أجل، رأيت الشارع مقفرًا والنوافذ والأبواب مغلقة، وبدت المدينة وكأنها مهجورة ولكنني لم أفهم سبب ذلك. هل أخليت المدينة من السكان؟

- كلا، جميع السكان في منازلهم، لقد صدرت الأوامر من مالك المدينة لجميع السكان بأن يلزموا منازلهم ولا يغادروها. وسوف يُحدِث زلزالًا عنيفًا في المدينة؛ لأنه قرر تنفيذ حكم الإعدام في خمسمائة وعشرين من السكان، وسيكون الزلزال وسيلة تنفيذ هذا الإعدام!

شعر «ميم» بدوار، ولكنه تمالك نفسه، وقال:

- ولماذا حكم المالك بإعدام هؤلاء الناس؟

- لست أدري، ليس هذا من شأني، أنت الذي جئت تبحث عن الحقيقة، وعليك أنت التوصل إلى الإجابة عن مثل هذه الأسئلة، ولكن يقال: إن المالك غاضب على المدينة، ولو أن هذه مجرد شائعات قد تحتمل الخطأ أو الصواب.

- ولماذا هو غاضب على المدينة؟

- يقال: إنه عندما نفذ حكم الإعدام في الشاعر، سار كل سكان المدينة في مظاهرة يبكون الشاعر، وفي هذا تحد لإرادة المالك!

- ولماذا أمر مالك المدينة الناس بعدم مغادرة مساكنهم؟

- حتى لا تتاح فرصة النجاة لمن حكم عليهم بالإعدام.

فقال «ميم»، وقد أسرعت دقات قلبه:

- وهل أنا ضمن المحكوم عليهم بالإعدام في هذا الزلزال؟

- لست أدري. لا يعرف ذلك سوى مالك المدينة، هيا أسرع بكتابة شكواك؛ لكي أضعك في إحدى الغرف؛ لتنال فرصتك في الإعدام! هيا اكتب قبل أن يحين موعد الزلزال.

أخذ «ميم» يفكر في شكوى يكتبها، خطر له أن يشكو من الظلم الذي وقع عليه، عندما أصبح منبوذًا في المدينة بلا أي ذنب جناه؛ إذ لم يكن يقصد من حديثه مع فتاة المطعم سوى قضاء بضع لحظات معها في صحبة بريئة، ولم تخطر على باله أية فاحشة أو أية فكرة خبيثة، ولكنه عدل عن كتابة هذه الشكوى، وفكر في أن يحل مشكلته من جذورها.

لماذا لا يطلب من المالك أن ينقله من هذه المدينة إلى أي مكان آخر، ويتخلص من كل هذه الهموم والأحزان؟

راقت له هذه الفكرة وبدأ يكتب:

- لقد وجدت نفسي في هذه المدينة بغير إرادتي، ولا أعلم من أين جئت، كل ما علمته من مكتب الاستعلامات أنني حضرت إلى هذا المكان للبحث عن الحقيقة. ولقد عوقبت عقابًا شديدًا، عندما طلبت من فتاة جميلة أن تؤنس وحدتي. كانت هي (الوحيدة) التي عرفتها في مدينة لا يعرفني فيها أحد، ولم يكن في ذهني أي غرض سيئ. وبلا ذنب ولا إثم، أصبح كل من في المدينة يشيح بوجهه عني. وليس لدي من المال ما يسمح لي بتناول الطعام، ولم يعد لي مأوى، وأرجو من مالك المدينة أن يسمح لي بمغادرة هذه المدينة التي ملأت قلبي بالهموم والأحزان، وفقدت فيها الشعور بالراحة والأمان، وقاسيت فيها من الظلم والهوان، وأن يهيئ لي وسيلة للخروج منها إلى مكان آخر.

المظلوم الحزين

ميم نون

في أثناء كتابة الشكوى، كان الرجل واقفًا بجواره يقرؤها، فلما انتهى «ميم» من الكتابة، أخذ الرجل الورقة وطبقها بعناية، واحتفظ بها في يده وقال لـ«ميم»:

- هيا معي.

قام «ميم» وسار خلف الرجل، ولما اقتربا من باب الغرفة، فتح من تلقاء نفسه وخرجا. وسارا معًا في دهليز طويل، وعند نهاية الدهليز، قال الرجل لـ«ميم»:

- هل ترى هذه الفتحة؟

رأى «ميم» في الجدار فتحة تشبه فتحة صندوق البريد، فقال:

- نعم أراها.

مد الرجل يده بالورقة نحو «ميم» قائلًا:

- خذ الورقة، وألق بها في هذه الفتحة.

تناول «ميم» الورقة وألقى بها في الفتحة، وقال:

- أين تذهب هذه الشكوى؟

قال الرجل:

- ستسقط في مكان معين في مكتب التحقيقات التابع لمالك المدينة.

- وهل يحقق لي رغبتي؟

- لا أحد يعلم! مالك المدينة وحده هو الذي يعلم.

شاع اليأس والحزن من جديد في قلب «ميم»، وأطرق للأرض، فقال له الرجل:

- هيا معي، سأضعك في مكان منعزل لتأخذ فرصتك من الإعدام عندما يحدث الزلزال، فمالك المدينة حريص على تكافؤ الفرص.

6

سـار «ميم» خلف الرجل وكأنه يسـير نحو المشـنقة! كان يسير وكأنه منّـوم تنويمًـا مغناطيسيًّا، يقوده الرجل مـن غرفة إلى غرفـة، ثم إلى ممر طويل، ويصعدان سلمًا ثم يهبطان سلمًا، حتى وصلا في النهاية إلى غرفة منعزلـة ذات نافذة واحـدة مغلقة، وبجوار أحد جدرانها كرسـي، هو كل ما في الغرفة من أثاث. قال الرجل لـ«ميم»:

- اجلس على هذا الكرسي وانتظر نصيبك، لم يبق على موعد الزلزال سوى دقائق قليلة، لا بد أن تأخذ فرصتك كاملة في تنفيذ حكم الإعدام.

خـرج الرجل من الغرفـة وأغلق الباب، وترك «ميـم» وحده، وقد بدأ جسـده يرتعـد من الخـوف. وبعد لحظة شـعر «ميم» بهزة عنيفـة، فانكفأ على وجهه فوق أرض الغرفه، وسـقط الكرسي فوقه. واستمرت الهزات تتوالـى، فسـقط جـزء من سـقف الغرفـة بالقرب مـن «ميـم»، وكلَّما هم بالوقـوف دفعتـه الهزات فيرتطم بأحـد الجدران، فانبطـح على الأرض، وظـل في هذا الوضع. سـقط جزء من أحد جـدران الغرفة وجزء آخر من السـقف. وفي هذه الأثناء كان يسـمع أصواتًا تشـبه هدير الرعد مختلطة بصراخ رجال ونسـاء وأطفال، وتوقفت الهزات، ولكنه ظل منبطحًا على

الأرض فـي انتظار مزيد من الزلزال. ولكن الزلزال كان قد توقف، جلس القرفصـاء، وأخذ يدور ببصره في أنحاء الغرفة في ذهول، وهو لا يصدق أنه لا يزال على قيد الحياة. إذ إن كتلة واحدة من الكتل التي تساقطت من السـقف أو الجدار كانت كافية للقضاء عليه، لو أنها سـقطت فوق رأسـه أو صـدره. عنـد ذلـك فُتح بـاب الغرفة ودخـل الرجل، وأمـره بالوقوف فوقف، ثم أمره أن يسـير خلفه. فسـار خلفه حتى وصلا إلى باب المنزل الـذي فتح من تلقاء نفسـه عندما اقتربـا منه، ثم هبط سـلم المنزل، وظل الرجل واقفًا عند أعلى السـلم. أمـره الرجل أن يخرج، فاتجه نحو البوابة الخارجية التي فتحت تلقائيًا عندما اقترب منها، وقال له الرجل:

- لا تفكر في المجيء إلى هذا المنزل مرة أخرى، إلا إذا كانت لديك شكوى مكتوبة، ترغب في تقديمها لمالك المدينة.

لزم «ميم» الصمت وخرج إلى الشارع فهاله ما حدث من دمار، وجد عـددًا كبيرًا من المسـاكن قد تهدم وأصبح حطامًا، وسـمع بكاء وصراخًا يتـردد في أنحاء متعـددة. ورأى عددًا هائلًا من السـيارات السـود تنطلق جيئـة وذهابًا، تحمل جثـث الذين نفذ فيهم مالـك المدينة حكم الإعدام فـي هذا الزلزال المدمر. وبدأ الشـارع يزدحم بالبشـر مهرولين على غير هدى، وهم يصرخون صرخات حزن وفزع.

مضـى «ميـم» يبحـث عـن الطاحونـة، متمنيًـا ألا يكـون الزلـزال قد محاهـا من الوجود، وفي أثناء سـيره شـاهد عددًا من الأطفـال أمام أحد المسـاكن المتهدمـة، يصرخـون صرخـات هسـتيرية ويولولـون في فزع

شـديد، فقال لنفسه: «لا بد أنهم فقدوا الأب أو الأم أو الاثنين معًا بسبب هذا الزلزال». وتعجب قائلًا لنفسـه: «لماذا يشـيع مالـك المدينة كل هذا الأسى والعذاب في نفوس السكان الآمنين؟ لماذا يعذب هؤلاء الأطفال الأبريـاء المسـاكين؟». ورأى شـيئًا أثـار دهشـته، رأى سـيارات ضخمة وآلات عجيبـة، تعيـد بناء ما تهدم من المباني في مثـل لمح البصر. وبعد فتـرة وجيزة، كانـت جميع المباني التـي تهدمت قد تـم بناؤها من جديد وكأن لم يحدث شيء، وظل سائرًا يبحث عن الطاحونة.

بدأ الظلام يخيم على المدينة، وأضيئت مصابيح الشارع كما أضيئت واجهـات المحال التجارية بأضـواء متعددة الألوان تبهر الأبصار، شـعر «ميم» بإعياء شديد، ففكر في الجلوس في أي مكان؛ حيث يلتقط أنفاسه اللاهثة ويريح جسده المتعب. استعد للجلوس على إفريز الشارع، ولكنه عدل عن هذه الفكرة، وظل سـائرًا يجر ساقيه، ونظر فإذا هو عند الميدان الذي شـهد فيه مصرع الشاعر، استولت عليه الدهشة، عندما رأى الشاعر جالسًا فوق الحجر في المكان نفسه، فأسرع نحوه وقال له:

- أنا سعيد برؤيتك. كنت أعتقد أنهم نفذوا فيك حكم الإعدام.

كان الشاعر مبتسمًا وفي يده القلم والقرطاس كما رآه أوّل مرة، ولكنه ظل صامتًا لا يتكلم، فقال له «ميم»:

- هل تذكرني؟ كنت تقرأ لي قصيدتك عندما أصابك السهم.

ولكن الشـاعر ظل صامتًا مبتسـمًا، فمد «ميم» يده ولمس يد الشـاعر فوجدهـا من الحجر الأصـم، وعلـم أن ما يراه ليس الشـاعر ولكنه تمثاله،

لقد أقام له أهل المدينة تمثالًا في المكان نفسه الذي اعتاد الجلوس فيه. جلس «ميم» عند قاعدة التمثال وأغمض عينيه ونام، وعندما استيقظ من نومه، وجد الشمس تضيء المدينة، فعلم أنه قضى الليل بطوله وشطرًا من النهار نائمًا عند قاعدة التمثال. نهض من مكانه في فزع وانطلق يبحث عن الطاحونة.

كانت الطاحونة على بعد خطوات منه، ذات باب صغير أصفر اللون، على الجانب الأيمن منه لافتة صغيرة، تحمل كلمة واحدة هي «الطاحونة». كان الباب مغلقًا، فشعر «ميم» بحزن ويأس وأوشك أن يجلس أمام الباب في انتظار موعد فتحه، ولكنه لاحظ وجود زر في الجدار تحت اللافتة، ضغط على هذا الزر ووقف ينتظر. ولكن لم تحدث استجابة للجرس الذي سمع رنينه في الداخل، فضغط على الزر مرة أخرى. وبعد نحو دقيقة فتح الباب، وأطل منه كهل بدين قصير القامة منتفخ الوجه والعينين، مقوَّس الظهر، إذا انبطح على بطنه فلابد أنه سيبدو وكأنه سلحفاة ضخمة. يدل مظهره على أنه استيقظ من النوم عند سماع الجرس، نظر إلى «ميم» فترة قبل أن يتكلم، ثم قال:

- هل أنت «ميم نون»؟

فقال «ميم» مندهشًا:

- نعم أنا «ميم نون»، ولكن كيف عرفتني؟

تجاهل الرجل سؤاله، وقال:

- لقد انتظرتك طويلًا، لماذا تأخرت حتى الآن؟

ولم ينتظر إجابة «ميم»، بل قال له بخشونة:

- ادخل!

دخل «ميم» الطاحونة وهو يدير بصره في أنحائها، كانت من الداخل على هيئة غرفة مستديرة، في أحد جوانبها منضدة صغيرة وخلف المنضدة كرسي، وفي وسطها أسطوانة من الحديد، يمتد منها ذراع من معدن لامع طوله نحو ثلاثة أمتار، وفي نهايته حلقة معدنية. جلس الرجل على الكرسي ووقف «ميم» أمامه لا يدري ماذا يصنع. وظل الرجل ناظرًا إلى «ميم» نحو دقيقتين، دون أن يتكلم، ثم قال:

- هل أنت مستعد للاختبار؟

فقال «ميم»:

- أنا لا أعلم شيئًا عن هذا الاختبار!

ففتح الرجل أحد أدراج المنضدة وأخرج منه كتابًا، فتح الكتاب وقال:

- سأتلو عليك بعض صفحات من هذا الكتاب، وعليك أن تحتفظ في ذاكرتك بكل كلمة من الكلمات، التي تسمعها ثم تتلو عليَّ ما حفظته!

وأخذ الرجل يقرأ صفحات من هذا الكتاب، و«ميم» لا يفهم كلمة واحدة، وبعد فترة توقف الرجل عن القراءة وقال لـ«ميم»:

- أعد كل ما سمعته مني.

قال «ميم نون»:

- أنا لم أفهم شيئًا مما قرأت، ولم أحفظ منه شيئًا!

فقام الرجل البدين ببطء، وتناول سوطًا كان معلقًا في حلقة صغيرة بالجدار، وقال:

- سألهب ظهرك بهذا السوط، سيؤلمك الضرب ألمًا شديدًا، أنا أعلم ذلك، ولكن سيفيدك بلا شك. سيجعلك تفهم كل ما أقرؤه وتعيه في ذاكرتك. وأخذ يهوي بالسوط على جسد «ميم»، و«ميم» يصرخ من الألم، وتجمع على باب الطاحونة عدد كبير من الأطفال يضحكون ويهللون، وكأنهم يستمتعون بلعبة من ألعاب السيرك، والرجل مستمر في الضرب. لم يستطع «ميم» احتمال الألم، فانطلق من باب الطاحونة يعدو في الشارع. ولكن بعد بضع خطوات قبض عليه أحد الشرطة، وأعاده إلى الطاحونة، ووقف عند الباب ليمنعه من الهروب. وازداد عدد الأطفال المتجمعين عند باب الطاحونة، وظلوا يهللون ويضحكون! وعاد الرجل يلهب «ميم» بالسوط، والشرطيّ يحصي عدد السياط حتى بلغ عددها خمسين، ثم توقف الرجل عن الضرب، وقال لـ«ميم»:

- أنصت إليّ الآن جيدًا. سأقرأ مرة أخرى، وعليك أن تحفظ كل كلمة أتلوها عليك.

وأخذ يقرأ من جديد. لم يفهم «ميم» شيئًا في هذه المرة أيضًا، ولكنه حفظ كل كلمة من الكلمات التي سمعها، وقال الرجل لـ«ميم»:

- هل حفظت كل ما سمعته في هذه المرة؟

فقال «ميم» باذلًا مجهودًا كبيرًا؛ حتى لا يصرخ من الألم:

- نعم. حفظت كل كلمة.

وأخذ يتلو كل ما سمع دون أن يفهم منه حرفًا، والرجل ينصت له. وعندما انتهى من التلاوة، فتح الرجل درجًا آخر من أدراج المنضدة، وأخرج منها ورقة سلمها لـ«ميم» قائلًا:

- الآن يمكنني أن أقرر أنك اجتزت الاختبار بنجاح، احتفظ جيدًا بهذه الورقة، فقد يطلب منك تقديمها في أية لحظة من اللحظات. والآن، هيا لتدور في الطاحونة.

وانقض الرجل على «ميم» فأدخله في الحلقة التي عند نهاية ذراع الطاحونة وأمره بالدوران. وهم «ميم» بالدوران، ولكنه شعر أن ذراع الطاحونة يلزمه مجهود عنيف لكي يتحرك، فأخذ يضغط بصدره على الحلقة باذلًا أقصى مجهود مستطاع، وظل يدور حتى تصبب منه العرق غزيرًا، وكلما توقف ليلتقط أنفاسه، هوى الرجل بالسوط على جسده قائلًا:

- لا تتوقف عن الدوران إلا إذا أمرتك بذلك!

فظل «ميم» يدور ويدور، والرجل يهوي على جسده بالسوط، وقال لـ«ميم»:

- معذرة إذا ألهبت جسدك بالسوط؛ إذ من التقاليد العريقة في هذه المدينة أن أظل أضربك بالسوط حتى تنتهي مدة الدوران، ولا ينبغي أن نحيد عن تقاليدنا.

وبعد فترة من الزمن، مرت على «ميم» وكأنها أجيال طويلة، صاح الرجل قائلًا:

- كفى، قف.

وتقدم منه الرجل وأخرجه من الحلقة، فترنح وهوى على الأرض في إعياء شديد. تركه الرجل راقدًا يلهث، وجلس على الكرسي خلف المنضدة، ناظرًا إليه بعينيه المحمرتين المنتفختين، ثم صاح:

- إلى متى ستظل ملقى على الأرض؟ قف.

فتحامل «ميم» على نفسه ووقف، وفتح الرجل أحد أدراج المنضدة وأخرج منه عشرين قرشًا ناولها «ميم» قائلًا:

- لقد درت في الطاحونة ثماني ساعات، وها هو ذا أجرك على ذلك، وعليك أن تواظب على الدوران كل يوم، لتناول هذا الأجر. يمكنك الآن أن تتصرف في هذا المبلغ من المال كما تريد، ولكن لا تنس المهمة الأساسية، التي أتيت إلى هذه المدينة من أجلها.

فقال «ميم» في ذهول وإعياء:

- وما هذه المهمة؟

- البحث عن الحقيقة، هل نسيت المهمة التي أتيت من أجلها؟

خرج «ميم» من الطاحونة يجر ساقيه، وكأنه مذنب أطلق سراحه بعد أعوام من السجن والعذاب! لم يصدّق عينيه عندما رأى مصابيح الشارع قد بدأت تضيء، وقد بدت بعض النجوم في السماء الصافية، لقد قضى في الطاحونة طوال النهار، وأخذ يفكر في هذه «الحقيقة» التي يتحتم عليه البحث عنها. أي حقيقة هذه؟ وإذا كان سيقضي كل يوم ثماني ساعات يدور في الطاحونة، ويُلهب جسده بالسياط في مقابل عشرين قرشًا، فهل يبقى من الوقت ما يسمح له بالبحث عن تلك الحقيقة، التي لا يعرف عنها شيئًا؟ فكر في الذهاب إلى منزل الشكاوي، حاملًا في يده شكوى مكتوبة، يشرح فيها العذاب الذي يلقاه في مقابل الحصول على عشرين قرشًا، وأن هذا لن يترك له وقتًا للبحث عن الحقيقة. ولكنه قدّم بالأمس شكوى يرجو فيها مالك المدينة أن ينقله من هذه المدينة الرهيبة المحكوم على كل من فيها بالإعدام إلى أية مدينة أخرى، ففضل أن ينتظر نتيجة شكواه. وخارت قواه، فلم يستطع مواصلة السير، ولكنه تحامل على نفسه حتى وصل إلى الميدان الذي يتوسطه تمثال الشاعر، جلس على دكة خشبية، لم يكن قد لاحظ وجودها من قبل، واستند بظهره على قاعدة التمثال، ولاحظ أن كل من يمر عليه يشيح بوجهه عنه، فأحس بالوحدة والوحشة والهوان، وأغمض عينيه حتى لا يرى أحدًا!

شعر «ميم» بماء دافئ يتدفق فوق رأسه، ولكن الإعياء الشديد جعله عاجزًا عن تحريك رأسه لمعرفة مصدر هذا الماء، وظل الماء يتدفق

فشعر براحة وكأنه حمام دافئ، وارتفع الماء حوله حتى غمره، ولم يبق فوق سطح الماء سوى رأسه وجزء من رقبته، فقام بصعوبة وأخذ يخوض في هذا الماء باحثًا عن مصدره. لقد ظنه يتدفق من إحدى البالوعات، ولكنه عندما التفت إلى الخلف عرف مصدر هذا الماء، إنه يتدفق من عيني الشاعر! ولكن الشاعر لم يعد سوى تمثال، فكيف يبكي التمثال؟ ورأى الماء يزحف إلى الشارع ويعلو، حتى أصبح وكأنه طوفان من الدموع.

فكر «ميم» في أن يسبح في هذا الماء، ولكنه لا يعرف السباحة، وظل يخوض في الماء الذي ارتفع إلى رقبته، ولكن ماذا يصنع لو ظل الماء يرتفع إلى ما فوق مستوى الرأس؟ في هذه اللحظة مر بجواره قارب، به ثلاث فتيات وثلاثة شبان، وفي يد كل منهم مجداف يجدف به وهم يغنون أغاني مرحة، وسار القارب مبتعدًا عنه، ثم أبصر قاربًا ثانيًا متجهًا نحوه به فتاة وفتى: الفتى يعزف على قيثارة والفتاة واقفة تتمايل مع القارب، وتغني أغنية بطيئة الإيقاع أعجبه لحنها، وازداد عدد القوارب، ولاحظ أن الماء قد وصل إلى مستوى ذقنه، فأخذ يصيح طالبًا النجدة، ولكن كل من في هذه القوارب كانوا يمرون به، دون أن يعيروه أي اهتمام! فصار يخوض في الماء متجهًا نحو التمثال، الذي اختفت معظم أجزائه في الماء، والدموع لا تزال تنهمر من عيني الشاعر وكأنها شلال.

حاول «ميم» أن يصعد فوق الدكة الخشبية، لينجو من الغرق، ولكن في كل مرة كانت قدمه تنزلق، واختل توازنه، وكاد يسقط على ظهره في

الماء، وفجأة أغمض تمثال الشاعر عينيه وكأنه ينام، وانقطع سيل الدموع المتدفق، وأخذت القوارب تدور حول التمثال، وفيها فتيات جميلات ينشدن أناشيد شجية الألحان، ولاحظ «ميم» أن الماء قد انخفض مستواه فأصبح عند كتفيه، واستمر في الانخفاض، فجلس على الدكة الخشبية وأسند رأسه على قاعدة التمثال. وشاهد القوارب تبتعد مسرعة وتختفي عن عينيه، وفي لحظات قصيرة غاض الماء وكأن الأرض قد ابتلعته، وجفت الشوارع، وبدأت تمتلئ بالمارة والسيارات. أخذ «ميم» يتحسس حلته؛ فوجدها جافة وأسرع بوضع يده في جيبه، ليطمئن على وجود العشرين قرشًا؛ فوجدها في الجيب الأيمن كما كانت.

شعر «ميم» ببعض الراحة، فترك الميدان، وسار في الشارع على غير هدى، مر على المطعم الذي اعتاد تناول الطعام فيه، فتذكر الفتاة التي قدمت له الطعام في أول يوم، والتي بسببها حلت عليه اللعنة، وأصبح منبوذًا من الجميع، فشعر باكتئاب. تذكر أن في جيبه عشرين قرشًا. وقف أمام باب المطعم مترددًا، هل يدخل ويتناول عشاءه أو يبحث عن مطعم آخر؟ وفكر في أن البحث عن مطعم آخر قد يستغرق وقتًا طويلًا، وهو يوشك أن يغمى عليه من فرط الجوع. وجد نفسه يدخل المطعم، ويجلس أمام المائدة نفسها التي جلس أمامها أول مرة.

كان المطعم في هذه المرة مزدحمًا بالرواد، وكانت الفتاة التي قدمت له الطعام في المرات السابقة منهمكة في الحديث مع فتاة أخرى من فتيات المطعم، لم يسبق له رؤيتها ترتدي الزي نفسه. كانت الفتاة التي يعرفها

مستندة على حافة البوفيه، الذي وقف خلفه شاب يقوم بتحضير الأطعمة المطلوبة مرتديًا سترة بيضاء ورباط عنق أسود على هيئة فراشة، وعلى رأسه قلنسوة بيضاء. عندما لمحت الفتاة «ميم» جالسًا أمام المنضدة أشاحت وجهها عنه، وحاول «ميم» أن يتجنب النظر إليها، فظل ناظرًا إلى مفرش المنضدة، ودار حوار بين الفتاتين، لم تستطع أذناه التقاط حرفٍ واحدٍ منه، وبعد فترة تردد قصيرة أقبلت نحوه الفتاة الأخرى، وقفت بجواره، وسألته:

- هل درت في الطاحونة؟

قال «ميم»، دون أن ينظر إليها:

- أجل، درت في الطاحونة وفي جيبي عشرون قرشًا، فلا تظني أنني سآكل بالمجان، وأريد طعامًا لا يزيد ثمنه على خمسة قروش.

كانت هذه الفتاة التي لم ينظر إليها «ميم» ذات عينين زرقاوين وشعر ذهبي وبشرة صافية مشربة باحمرار خفيف، وفي خدها الأيمن شامة سوداء، اتجهت نحو البوفيه وعادت وفي يدها صينية عليها طبق به ربع دجاجة وطبقان آخران، أحدهما به بعض قطع من الخبز، والآخر به قطع من الطماطم، وعلبة مستطيلة من الورق المقوى تبرز من حافتها ماصّة ليمتص ما بداخلها من لبن، وضعت الفتاة هذه الأشياء أمام «ميم» على المنضدة، وهمت بالانصراف، ولكنها عادت وسألته:

- هل عثرت على مسكن جديد؟

فأجاب «ميم»، دون أن ينظر إليها:

- كلا.

وبدأ في تناول الطعام، وظلت الفتاة واقفة بجواره، وعادت وسألته:

- يمكنك أن تذهب إلى المسكن الذي كنت فيه ما دمت ستدفع إيجاره. إنه لا يزال خاليًا.

كان «ميم» قد التهم ربع الدجاجة، وبدأ يلتهم الطماطم، فقال وقطعة الطماطم لا تزال في فمه، وفي صوته رنة حزن:

- أشكرك على هذا الاهتمام، ولو أنني سئمت الحياة في هذه المدينة، ولا أظن أنني سابقى بها طويلًا، لقد قدمت شكوى لمالك المدينة، ألتمس منه السماح لي بمغادرتها.

فقالت الفتاة بدهشة:

- تغادر هذه المدينة!

- نعم أغادر هذه المدينة، ليس في هذا ما يدعو إلى الدهشة.

- وإلى أين تذهب؟

- إلى المكان الذي أتيت منه، لا بد أنني أتيت من مكان ما، أو أذهب إلى أية مدينة أخرى غير هذه المدينة البشعة.

- ولماذا كرهت هذه المدينة؟

قال «ميم» بغضب، وقد تهدج صوته ودمعت عيناه:

- كل ما فيها يدعو للكراهية ويثير الاشـمئزاز! المدينة التي يُعدم فيها شاعر رقيق لا يزال صبيًّا، ويظلم فيها إنسان بريء، دون أن يجد من يرفع الظلم عنه، لا تستحق أن يعيش فيها أحد!

- وهل رأيت مظلومًا في هذه المدينة؟ إنها مدينة طاهرة نقية.

كان «ميـم» قد انتهى مـن تناول الطعام، ولو أن الحـوار الذي دار بينه وبين الفتاة لم يجعله يسـتمتع به، لم ينظر إلى الفتاة طوال هذه المدة ولـم يـر وجههـا، قال بصوت مرتعش مختنق، وهو لا يـزال مصوبًا بصره نحو مفرش المنضدة:

- لقد وقع عليّ ظلم شـديد، ولـم أجد من يرفع الظلم عني! وما زلت حتـى هـذه اللحظة أعاقب علـى ذنب لـم أقترفـه، وألقى بسـببه كل أنواع المذلة والهوان! لماذا لا أحاكم محاكمة عادلة؛ لتظهر براءتي؟

- ليـس فـي المدينـة محاكم لعدم وجـود مذنبين، فهل مـن المعقول أن تقـام محكمـة من أجل فرد واحد؟ من أجلك أنت؟ إن إنشـاء محكمة يحتاج إلى مبالغ طائلة.

- رفع الظلم عن إنسانٍ واحد بريء، يستحق أن تنفق من أجله جميع أموال هذه المدينة. لـم أعد أطيق البقاء هنا.

قالت الفتاة محاولة تغيير مجرى الحديث:

- وهل تعرف مدينة أخرى غير هذه؟

- كلا، ولكن من المؤكد أن هذه المدينة ليست (الوحيدة) في الكون.

- أنا لا أعرف طريقًا لأية مدينة أخرى، وكلنا نعلم أن من يدخل هذه المدينة لا يغادرها إلا عندما ينفذ فيه حكم الإعدام، كلنا محكوم علينا بالإعدام. هل تعلم ذلك؟

- أعلم ذلك، أليس هذا وحده سببًا كافيًا لكراهية هذه المدينة؟ يخيل إليّ أنني محكوم عليّ بالأشغال الشاقة أيضًا علاوة على حكم الإعدام، ولذا فسأحاول الابتعاد عن هذه المدينة الملعونة في أقرب فرصة.

قالت الفتاة وقد ابتسمت لأول مرة، ولو أن «ميم» لم ير ابتسامتها لأنه لم ينظر إليها:

- لو كان الأمر بهذه السهولة لما بقي أحد في المدينة، لا أحد يستطيع مغادرتها قبل تنفيذ حكم الإعدام فيه!

- ولكني قدمت شكوى لمالك المدينة، وعلمت أنه يفحص بعناية كل شكوى تقدم إليه، وسوف يحقق لي أمنيتي.

- لقد قدمت له أنا أيضًا مئات الشكاوي والالتماسات والأمنيات، ولم يحقق لي أية أمنية أو أي التماس، ولم ينظر في أية شكوى من شكاواي. إنه يبدو وكأنه لا يهتم ولا يكترث بأي فرد من أفراد المدينة، ولا بما يحدث فيها، إنه يصنع الدمى ويتركها تتصارع فيما بينها.

- ولماذا يتقبل الشكاوي والأمنيات، إذا كان لا يعبأ بها ولا يهتم بتحقيقها؟

- يقال: إنه يهوى تقبل الشكاوي، ويشجع على ذلك؛ لأنه يجد لذة في شكوى الناس وتوسلاتهم، ولكني لم أسمع عن أمنية واحدة حققها لأي أحد!

ظل «ميم» جالسًا في صمت واكتئاب، واستمرت الفتاة في حديثها قائلة:

- ومع ذلك فالشكاوي والتوسلات والأمنيات لا تنقطع ليلًا ونهارًا، مئات الناس يذهبون إلى ذلك المنزل الذي عند نهاية الشارع كل ساعة وكل لحظة، حاملين شكاواهم، متوسلين إلى ملك المدينة لتحقيق بعض الأمنيات.

فقال «ميم» في عصبية:

- مالك هذه المدينة أمره عجيب. يهوى تنفيذ أحكام الإعدام في الأبرياء، ويتلذذ بشكاوي المعذبين، دون أن يحقق لهم أية أمنية! أنا لم أر أعجب من هذا.

وساد الصمت بينهما، ثم التفت إليها فرأى وجهها لأول مرة، وقال:

- هل رأيتِ هذا المالك؟

لم تكن تتوقع أن تفاجأ بهذا السؤال، فقالت بدهشة:

- كلا، لم أره! ولم يره أحد، ولكن بعض الناس يدعون أنهم رأوه.

فقال «ميم»، وهو لا يزال ناظرًا في ذهول إلى وجه الفتاة:

- ما شكله؟

- كيف أعرف شكله وأنا لم أره؟!

- ما اسمه؟

فقالت الفتاة بعد لحظة تفكير:

- ليس له اسم معين، له أسماء كثيرة.

هوى «ميم» بقبضة يده على المنضدة، فاهتزت الأطباق هزًّا عنيفًا وقال:

- أريد أن أراه!

في هذه اللحظة سمع «ميم» همهمة وضوضاء في جميع أنحاء المطعم، ونظر فوجد جميع الرواد ينظرون إليه نظرات غريبة، ويتحدثون فيما بينهم أحاديث غير واضحة الكلمات، ويشيرون بأصابعهم وأيديهم إلى الفتاة لتسرع إليهم، فأسرعت الفتاة، وأخذت تتحدث إليهم فرادى وجماعات وعلامات الغضب بادية على وجوههم! كانت تتحدث في عصبية، وقد تقلصت عضلات وجهها، ونفرت عروق رقبتها ويداها تتحركان كما تتحرك شفتاها. لم يستطع «ميم» أن يفهم شيئًا مما يقال، ثم بدأ الرواد يتركون المطعم قبل أن ينتهوا من تناول طعامهم، ووجد «ميم»

نفسـه بعد فترة قصيرة وحيدًا في المطعم، أشار للفتاة فأسرعت إليه وهي تلهث، وقد شـحب وجهها، ولم يشـأ أن يسـألها عن سبب ذلك الغضب الـذي اجتـاح المطعم، واكتفى بأن سـألها عن الحسـاب، فوضعت يدها اليمنى على خصرها، ونظرت إليه نظرة قاسية، وقالت:

- خمسة قروش!

فأخرج «ميم» خمسـة قروش من جيبه وضعها على المائدة، وأسـرع بمغادرة المطعم، وهو لا يدري إلى أين يذهب.

7

كانت الأنوار تتلألأ على جانبي الشارع، وتكاد تحيل الليل إلى نهار. ولكن «ميم» كان يسير، وكأنه في ظلام يخفي عن عينيه جميع الأشياء، شعر بألم شديد في ظهره من أثر السياط التي ألهبته في الطاحونة، وتمنى لو يتمكن من مقابلة مالك المدينة شخصيًّا، ويلتمس منه الاستجابة لشكواه ومساعدته على مغادرة هذه المدينة إلى أي مكان آخر، فهو لا يعرف وسيلة للهرب منها، ولكن رنت في أذنه كلمات فتاة المطعم عندما قالت «.. لم أسمع عن أمنية واحدة حققها لأي فرد». فوقف مترددًا لا يدري ماذا يفعل، شاعرًا باليأس والضياع. تذكر أن الفتاة أخبرته أنه يستطيع العودة إلى المنزل، الذي كان فيه ما دام سيدفع إيجاره، ففكر في الذهاب إلى المنزل؛ ليريح جسده المرهق ويأخذ قسطا كافيًا من الراحة، قبل الذهاب غدًا للدوران في الطاحونة. في هذه اللحظة شعر بيد تمسك كتفه، فانتفض فزعًا، ونظر إلى الخلف، فرأى صاحب هذه اليد. إنه رجل طويل نحيل شاحب الوجه، أنيق الملبس، ذو شعر أسود لامع. قال لـ«ميم» مبتسمًا:

- لماذا فزعت هكذا؟

فقال «ميم»، ووجهه ما زال مصفرًا:

- أنا لا أعرف أحدًا في هذه المدينة، ولم أكن أتوقع أن يتحدث معي أي إنسان! كل من يراني يشيح بوجهه عني.

- أنا لم أشح بوجهي عنك؛ فأنا منبوذ مثلك، الجميع يشيحون وجوههم عني مثلك تمامًا.

قال «ميم»:

- ولماذا؟

- للسبب الذي جعلهم ينفرون منك، ويتجنبون الحديث معك، كنت سائرًا في هذا الشارع بالقرب من هذا المكان الذي نحن فيه الآن، كنت حزينًا ووحيدًا مثلك، وشاهدت فتاة آية في الجمال لم أر في حياتي أجمل منها، فدارت في رأسي أفكار خبيثة، أردت أن أستمتع بهذه الفتاة، فطلبت منها أن تؤنس وحدتي في منزلي، فبصقت في وجهي وحلت عليّ اللعنة منذ تلك اللحظة! كان كل من يراني يبصق في وجهي، فكنت ألزم منزلي ولا أغادره لعدة أيام أو عدة أسابيع؛ حتى لا يرى أحد وجهي فيبصق عليه! وكنت في بعض الأحيان أغطي وجهي لأخفي شخصيتي، لأمنع عن وجهي تلك القذائف التي كانت تنطلق من أفواههم، زاد الأمر سوءًا؛ إذْ كان مدعاة لاسترعاء مزيد من الأنظار نحوي!

فقال «ميم» وقد تجهم وجهه، وازداد شعوره بالظلم الذي يرزح تحت نيره:

- ولكنني عندما طلبت من الفتاة أن تؤنس وحدتي، لم تدر في ذهني أي أفكار خبيثة كتلك التي دارت في رأسك! كنت أرغب في التحدث معها بعض الوقت حديثًا بريئًا ولا أكثر من ذلك! تقفز في ذهني في بعض الأحيان فكرة غريبة.

- ما هي؟

- أن أسير في الشارع صارخًا بأعلى صوتي قائلًا.. «أنا بريء... أنا بريء».

فضحك الرجل، وربت على كتف «ميم» قائلًا:

- على كل حال لن يدوم هذا طويلًا؛ إذ بعد نحو عام حدث استفتاء بشأني اشترك فيه كل أهل المدينة. كان الاستفتاء يقول: «هل يظل منبوذًا أو تعفون عنه؟» فعطف أهل المدينة عليّ وعفوا عني. ولكن العفو لم يكن بإجماع الآراء، فظللت بعد ذلك أتعرض لبعض المنغصات!

ثم ضحك، وواصل حديثه قائلًا:

- وبعد أن تم العفو عني، ارتكبت حماقة أخرى لا داعي لذكرها، فحلت عليّ اللعنة من جديد.

وعاد يضحك ثم توقف على الضحك فجأة، ونظر إلى «ميم» نظرة حادة وقال:

- كنت جالسًا بالقرب منك في المطعم الآن، وسمعت حوارك مع الفتاة، سمعتك تقول: إنك ترغب في رؤية مالك المدينة.

قال «ميم»:

- نعم، أنا مصرّ على رؤية مالك المدينة، وسأفعل المستحيل في سبيل ذلك.

فقال الرجل:

- لقد وقفنا طويلًا على قارعة الطريق، ألديك مانع من الجلوس معًا في أي مكان؟

قال «ميم» الذي أرهقه الوقوف:

- لا مانع، ولكن أين نجلس؟

قال الرجل:

- في منزلي إذا أردت.

سارا نحو منزل ذلك الرجل، وكان يسير على الإفريز نفسه في الاتجاه المضاد لهما خمس فتيات جميلات، يرتدين سراويل مختلفة الألوان، أصفر وبرتقالي وأحمر وأزرق وبنّي. وعندما اقتربت الفتيات منهما بدا عليهن الفزع وكأنهن أبصرن وحشين مفترسين، وندت من الفتاة ذات السروال الأزرق صرخة، ثم انطلقت الفتيات يعدون بأقصى سرعة مبتعدات عنهما!

قال الرجل لـ«ميم»:

- هل رأيت؟ الفتيات الجميلات يفزعن منا ويولين هاربات. هل يوجد ما هو أقسى من ذلك؟

قال «ميم»، وكأنه يحدث نفسه:

- يوجد ما هو أقسى من ذلك.

- ما هو؟

- الدوران في الطاحونة!

- الطاحونة؟! آه!.. آه!.. أنا لا أتفق معك في هذا الرأي؛ فالعذاب الجسماني مهما كانت قسوته، أخف وطأة من عذاب النفس، عندما يشعر الإنسان أنه غير مرغوب فيه.

ثم التفت إلى «ميم» وقال:

- ما اسمك؟

- «ميم نون».. وأنت؟

- (واو واو).

ساد الصمت بينهما فترة من الزمن، ثم قال (واو):

- العذاب يتوقف على نظرة الإنسان للأمور: من يحب الطعام الجيد اللذيذ يتعذب عندما يُحْرَمَه! ومَن يحب المنزل الأنيق الجميل فإنه قد يصاب بالجنون، لو أجبر على الحياة في كوخ حقير. ومن يحب المال

لا يشعر بالتعس لو عاش في كوخ قذر رخيص، ما دام هذا يتيح له فرصة توفير المال وتكديسه! وأنا من سوء طالعي أحب الجمال، وكلما أعجبني وجه فتاة جميلة وجدتها تصرخ في وجهي، وتولى هاربة! إنني أتعذب في صمت.

ووصلا إلى منزل (واو)، نظر «ميم» إلى المنزل فوجده جميلًا كجميع منازل الشارع، أمامه حديقة أنيقة معتنى بها، يفصلها عن الشارع سور منخفض من الحديد، تحف به من الداخل أشجار البوانسيانا، وتنبعث من الحديقة رائحة أزهار الياسمين مختلطة برائحة الورد، ويتوسط الحديقة نافورة. كانت الحديقة مضاءة بضوء بنفسجي، على حين كانت الأنوار داخل المنزل مطفأة وجميع النوافذ مغلقة، دخلا الحديقة، وعند نهايتها صعدا سلما، ثم أخرج (واو) من جيبه مفتاحًا وفتح الباب، وضغط على أحد الأزرار، فغمر الضوء بهو المنزل.

انبهر «ميم» عندما شاهد الأثاث الرائع المتناثر في أنحاء البهو، والديكور الجميل الذي يتسم بالذوق الرفيع. كان «ميم» متعبًا، فجلس على أقرب كرسي صادفه في البهو، وجلس (واو) بالقرب منه. قال «ميم»:

- هل تعيش بمفردك في هذا المنزل الأنيق؟

فقال (واو):

- نعم ، بكل أسف. أعيش وحيدًا في هذا المنزل.

فأخذ «ميم» يدير بصره في أنحاء البهو، ثم قال:

- ولماذا لا تتزوج؟

قال (واو):

- أتزوج؟ كيف أتزوج وكل فتاة تراني تصرخ في وجهي، وتسرع بالهرب؟ وعلى أية حال لم يعد لدي متسع من الوقت للزواج.

وأطرق للأرض في حزن، ثم واصل حديثه قائلًا:

- سينفذ فيَّ حكم الإعدام بعد أشهر قلائل.

فقال «ميم» مندهشًا:

- وكيف علمت؟ من المفروض أن هذا سر لا يعلمه سوى مالك المدينة.

- عرفت رجلًا لديه القدرة على معرفة موعد تنفيذ الإعدام في أي إنسان من أهل المدينة، إنه يذكر الموعد باليوم والساعة.

- وأين هو هذا الرجل؟

- هنا، في الشارع.

- مدهش، وهل يمكنه أن يخبرني عن موعد إعدامي؟

- أعتقد أنه لن يرفض، ولكن أنصحك ألا تحاول معرفة موعد إعدامك، لقد تحولت حياتي إلى جحيم منذ عرفت موعدي.

- ولكني أتوقع تنفيذ الحكم بإعدامي في أية لحظة، وهذا من شأنه أن يجعلني في خوف وقلق مستمر.

- لست أدري! ولكنني ندمت على ذهابي إليه، ليتني لم أعرف موعد إعدامي.

- ومن أين لهذا الرجل معرفة هذا السر؟

- يقال: إنه على اتصال وثيق بمالك المدينة، والمالك يطلعه على بعض الأسرار.

- وهل يعلم المالك أن ذلك الرجل يذيع هذه الأسرار؟

- المالك يعلم كل شيء، إن لدى مالك المدينة أجهزة تكنولوجية إلكترونية غاية في الغرابة، تذهل العقول!

قال «ميم»، وقد فغر فاه من الدهشة:

- كيف؟

- على سبيل المثال: لديه غرفة فسيحة مزوّدة بأجهزة تليفزيونية يمكنه عن طريقها أن يرى ويسمع ما يدور في أي ركن من أركان المدينة، حتى في غرف النوم!

فصاح «ميم» مندهشًا:

- حتى في غرف النوم؟

- نعم.

- وفي الحمام؟

- وفي الحمام وفي أي مكان؛ لديه غرفة فسيحة أخرى، مزودة بأجهزة إلكترونية يمكنه بها أن يحدث زلزالًا يهز المدينة، ويدمر عديدًا من مبانيها في أية لحظة من اللحظات، ويحدث ذلك بمجرد الضغط على بعض الأزرار!

- شيء عجيب.

- والأعجب من هذا كله...

- وهل يوجد ما هو أعجب من هذا؟

- نعم، يوجد ما هو أعجب من هذا. الأعجب من هذا كله ما يقال من أننا جميعًا، أي جميع سكان هذه المدينة، ما نحن سوى دُمًى صنعها مالك المدينة بنفسه! وهو الذي يحركنا كيف يريد، يحركنا بجهاز للحركة بعيد المدى، كالجهاز الذي يفتح التليفزيون ويقفله من بعيد.

فبلغت دهشة «ميم» ذروتها، وصاح قائلًا:

- كله إلا هذا، أنا لا أصدق ذلك، هل أنا وأنت وجميع من رأيتهم هنا دمى تتحرك كما يريد أن يحركنا؟ لا، هذا غير معقول. وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا صنعنا؟

- ليلهو بنا، وليجعل لوجوده معنى.

فقال «ميم» في ذهول:

- ليجعل لوجوده معنى! ما معنى هذا؟

اعتدل (واو) في جلسته وأطرق مفكرًا بضع لحظات، ثم قال:

- إذا وجدت نفسك في مكان منعزل، ليس به سواك ولا يعرف أحد عنك شيئًا، فهل يكون لوجودك معنى؟ إننا هنا نتحدث عن مالك المدينة ليلًا ونهارًا، وهو يستطيع أن ينفذ حكم الإعدام فينا في أية لحظة، أليس في هذا ما يضفي على وجوده معنى؟

أخذ «ميم» يفكر تفكيرًا عميقًا، ثم قال:

- إذا كان هو الذي يحركنا كما يريد، فهل معنى هذا أنه هو الذي جعلني أطلب من فتاة المطعم أن تؤنس وحدتي؟

- طبعًا.

- فلماذا إذن أعاقب هذا العقاب الشديد؟ لماذا يجعل الناس يشيحون وجوههم عني؟ وفضلًا عن ذلك فلا بد أنه يعلم أنني بريء لم أقصد بكلامي أي معنى سيئ! هل يعلم ذلك أيضًا؟

- يعلم كل شيء! وفي اعتقادي أنه يتلذذ بعذابنا، فلا بد أن يهيئ سببًا لهذا العذاب.

- حتى لو كان هذا السبب من صنعه هو؟

- أجل، لست أنت وحدك البريء، لأنك لم تقصد أي سوء عندما طلبت من فتاة المطعم أن تؤنس وحدتك، أنا أيضًا بريء؛ إذْ لا يَدَ لي فيما دار في ذهني. هو الذي جعلني أفكر هذا التفكير السيئ الخبيث!

- إذن فنحن جميعًا أبرياء.

- أجل، كلنا أبرياء مساكين!

شعر «ميم» بدوار، وضع رأسه بين كفيه، وظل مطرقًا للأرض صامتًا نحو دقيقتين، ثم رفع رأسه وقال:

- أنا لا أصدق أننا دمى صنعها مالك المدينة! هذا كلام لا يقبله العقل! فنظر إليه (واو) وقد قطّب حاجبيه وقال:

- اسمع، سأسألك سؤالًا

- اسأل.

- هل تذكر كيف أتيت إلى هذه المدينة؟

- كلا. لقد وجدت نفسي في هذه المدينة في يوم من الأيام، ولا أذكر شيئًا قبل ذلك!

فنظر إليه (واو) مبتسمًا وقال:

- هذا دليل على أنك لم تكن في الوجود قبل هذا اليوم.

قال «ميم» بعد لحظة تفكير:

- ربما كنت موجودًا في مكان آخر، ولكنني لا أذكره!

وفجأة وقف «ميم» في فزع، وقد بدأ يرتعد، وصاح قائلًا:

- كفى كلامًا في هذا الموضوع، لابد أنه يسمع الآن كل حديثنا.

فاضطجع (واو) في كرسيه مبتسمًا، ووضع إحدى ساقيه فوق الأخرى، وقال:

- لا داعي للفزع. إنه لن يعاقبنا على مثل هذه الأحاديث، بل على العكس، إنه يحب سماعها.

فقال «ميم» مضطربًا:

- ولماذا يحب سماع هذه الأحاديث؟

- إنه يحب كل من يحاول الوصول إلى الحقيقة، إنه يفخر بأن الدمى التي صنعها تفكر وتتأمل! لا بد أنه الآن معجب بنا كل الإعجاب.

فأطرق «ميم» نحو الأرض فترة قصيرة، ثم التفت إلى (واو) وقال:

- إذن فهو الذي صنع هذه المدينة بكل ما فيها من جماد وحيوان وإنسان.

قال (واو)، وهو لا يزال مضطجعًا، وقد بدأ يهز قدمه:

- هذا ما سمعته من كثير من الناس.

- وكيف عرفوا ذلك؟

- بعض المقربين إليه من المطلعين على أسراره أفشوا بعض هذه الأسرار، ويقال: إنه كان يشجعهم على إفشائها.

فضغط «ميم» على جبهته وبدا عليه التفكير العميق، ثم قال:

- ولكن الشيء الذي يحيرني: لماذا يصنعنا ثم يعذبنا؟

- يقول بعض المقربين إليه: إنه يعذبنا، ليشعرنا بوجوده، ويشعرنا أيضا بوجودنا! الإنسان لا يشعر بوجوده إلّا إذا تعذب، إننا لا نشعر بلحظات السعادة، ولكننا نحس بأيام العذاب!

- أفلا نشعر بوجوده إلا إذا عذبنا؟

- الإنسان قد لا يذكر الذي أسعده، ولكنه لا ينسى الذي أشقاه!

في هذه اللحظة دق جرس الباب رنينًا متصلًا، فقام (واو) وأسرع بفتح الباب. أطل من الباب رجل، تعجب «ميم» من حضوره إلى هذا المكان. إنه خادم المنزل الذي كان يقيم فيه «ميم»، سأله (واو):

- من أنت؟ وماذا تريد في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

- أريد «ميم نون». لماذا لم يرجع إلى منزله؟ لقد سمحوا له بالعودة؛ لأنه سيدفع الإيجار، وظللت أنتظر قدومه حتى هذه الساعة، لماذا لم يحضر؟ لقد سئمت الانتظار.

فقام «ميم» وصافح (واو) مودعًا، شاكرًا له استضافته في منزله، وعندما هم بهبوط السلم، قال له (واو):

- أحب أن أراك غدًا. متى؟ وأين أراك؟

قال «ميم»:

- غدًا مساء، في المطعم.

وسار «ميم» نحو منزله في صحبة الخادم، الذي كان يجر ساقه المريضة ويغالب النعاس.

8

عندما دخل «ميم» منزله وجده كما هو، لم يتغير فيه شيء، لم يكن باقيًا على الفجر سوى ساعات قلائل، فخلع الحلة ولبس المنامة، وذهب إلى الحمام، ثم عاد وألقى بجسده على السرير صحا من نومه في نحو العاشرة صباحًا. نادى الخادم، فلم يجد استجابة لندائه، ولكنه وجد مفتاح المنزل فوق المنضدة التي بجوار سريره، ذهب إلى الحمام ثم عاد وارتدى ملابسه على عجل، وأسرع بالذهاب إلى المطعم لتناول إفطاره.

لم يكن في المطعم سواه، وأقبلت نحوه الفتاة التي قدمت له الطعام بالأمس، طلب منها فطورًا لا يزيد ثمنه على ثلاثة قروش، فأحضرت له كوبًا كبيرًا من اللبن، وثلاث بيضات مقلية وقطعتين من الخبز، فأقبل على الطعام يلتهمه، وظلت الفتاة واقفة بجواره، سألته:

- هل عدت إلى منزلك؟

فقال، وهو يلتهم البيض:

- نعم.

فقالت وفي لهجتها شيء من السخرية:

- وهل قابلت مالك المدينة؟

فقال متحديًا:

- كلا، ولكنني مصمم على مقابلته.

فقالت، وهي تبتعد عنه مسرعة:

- لن تستطيع رؤيته. ليست مقابلته بالأمر الهين.

انتهى من تناول الطعام فترك ثلاثة قروش على المنضدة، وأسرع بمغادرة المطعم. كان موعد دورانه في الطاحونة قد حان، فأسرع نحوها. كان بابها مغلقا، ضغط على زر الجرس، ففتح الباب الرجل نفسه الذي رآه بالأمس، ذلك الرجل البدين البطيء الحركة الشبيه بالسلحفاة، نظر الرجل إلى «ميم» بعينين منتفختين نصف نائمتين، وقال وهو يفرك عينيه:

- ماذا تريد؟

فقال «ميم» مندهشًا لهذا السؤال:

- أتيت لأدور في الطاحونة.

فقال الرجل، وقد فتح الباب فتحة صغيرة أطل منها برأسه:

- لقد تأخرت عن موعدك، إذا تأخرت مرة أخرى فلن أفتح لك الباب، يجب أن تكون هنا في التاسعة صباحًا.

- لـن أتأخر بعد اليوم، سـأحاول المحافظة علـى المواعيد على قدر طاقتي.

فنظر إليه الرجل باشمئزاز، وقال بلهجة جافة وبإشارة من يده:

- ادخل.

فدخـل «ميـم» ووضعـه الرجـل داخـل الحلقـة، وهوى علـى ظهره بالسوط، فانطلق يدور في الطاحونة بكل ما أوتي من قوة، ظل يدور حتى تصبب عرقه، وأخذ يلهث، وكلما تباطأ من أثر الإجهاد، هوى الرجل على ظهره بالسـوط! وخيـل لـ«ميم» أن وحدات الزمن قـد امتدت وأصبحت بـلا نهايـة. فتوقف عن الـدوران ونظر إلى الرجل، فوجـده واضعًا ذراعه الأيمن على المنضدة، مستندًا برأسه على هذا الذراع يغط في نومه فاغرًا فـاه. انتهز «ميم» هذه الفرصة ليسـتريح من الدوران بعض الوقت. ولكن الرجل رفع رأسه، وفتح عينيه الشبيهتين بعيني الحرباء، وصاح قائلًا:

- هـل تنتهـز فرصة نومي لتتوقـف عن الدوران؟ هـل تخدعني؟ هل تريـد أن تحصـل على أجر بلا عمـل؟ ألا تعلم أن هـذه الجريمة في هذه المدينة عقوبتها الإلقاء بك في البالوعة؟

وقف الرجل وأمسـك السـوط، وصار يهوي به على جسد «ميم». لم يحتمل «ميم» الألم فأخذ يصرخ، فتجمع عدد كبير من الأطفال على باب الطاحونـة، وصـاروا يضحكون كلما صـرخ «ميم»، وشـعر «ميم» بدوار فتهاوى، ولكن الحلقة التي حول جسمه منعته من السقوط. هوى الرجل

على جسده بالسوط فلم يتحرك، فتركه معلقًا في الحلقة فاقد الوعي وجلس عند المنضدة، وأسند رأسه على ذراعه كما كان ونام.

بعد نحو ساعة بدأ «ميم» يفيق من إغمائه. شعر بماء دافئ يسيل على ظهره، أدخل يده تحت الفانلة وتحسس ظهره، فوجده مبتلًا، وعندما أخرج يده ونظر إليها وجدها ملطخة بالدماء! صرخ «ميم» عندما رأى الدم، فصحا الرجل البدين ورفع رأسه، فرأى يد «ميم» الملوثة بالدم، فقام ببطء شديد وأخرجه من الحلقة المعدنية، وأعطاه عشرة قروش قائلًا:

- أنت لا تستحق اليوم سوى نصف الأجر، وحذار أن تخدعني مرة أخرى، واشكر مالك المدينة لأنه غفر لك هذا الذنب، ولم يلق بك في البالوعة!

تناول القروش العشرة مطرقًا للأرض في صمت، واتجه نحو ميدان الشاعر، جلس على الدكة الخشبية بجوار التمثال، كان كل من يراه يسرع بالابتعاد عنه، لم يستطع السيطرة على مشاعره، فخبأ وجهه بيديه وانفجر يبكي بكاءً صامتًا عنيفًا.

عندما انتهت نوبة البكاء، شعر «ميم» بشيء من الراحة، فكر في الذهاب إلى المنزل، ولكنه شعر بالوحدة تعتصر قلبه، وفضل البقاء في الشارع؛ حيث يستطيع أن يرى الناس حتى لو كانوا ينفرون منه ويشيحون وجوههم عنه، فهذا مهما كان أهون من الوحدة المطلقة في منزله الكئيب! مر بالقرب منه رجلان يتحدثان بصوت مرتفع، فشعر برغبة

قويـة فـي التحدث مع أي إنســان، فكر في زيـارة (واو)، ولكنـه تذكر أن بينهما موعدًا للالتقاء في المطعم في مســاء ذلك اليوم. فخطرت له فكرة أخـرى. لماذا لا يذهب لزيارة أول إنســان عطف عليه فـي هذه المدينة؟ ذلـك الشـاب (دال) الذي كان يعيش مع أختيـه، ونفذ في إحداهما حكم الإعـدام عـن طريق الذبابة القاتلـة، في أثناء وجوده فـي ضيافتهم؟ لماذا لا يذهب لزيارته للسؤال عنه والاطمئنان عليه هو وأخته التي بقيت على قيد الحياة؟ وظل يفكر قائلًا لنفسه: «ولكن هل يحسنان استقبالي بعد أن حلـت عليَّ اللعنة؟ ولكنني بريء، سأشـرح لهما الأمر، لم تدر في ذهني أيـة فكـرة خبيثة عندما طلبت من الفتاة أن تؤنس وحدتي! لا أحد يريد أن يرفع عني الظلم، لا أحد يريد أن يصدقني، ربما يقتنعان ببراءتي»...

ظل «ميم» سائرًا حتى وجد نفسه أمام منزل (دال)؛ شعر بالحزن عندما تذكر تلك الفتاة الجميلة (تاء)، التي نفذ فيها حكم الإعدام بلا ذنب، وفي الوقت نفسـه تاقت نفسه لرؤية أختها (سين). كان باب الحديقة مفتوحًا فوقـف «ميم» أمام الباب مترددًا، قائلًا لنفســه: «هـل أدخل؟ وإذا دخلت فهـل يذكرانـي؟ ومـاذا يكون موقفـي لو لـم يتذكرني أحد منهمـا؟ وإذا تذكراني ماذا يكون موقفي لو أعرضا عني وطرداني من منزلهما؟»

كان الظـلام قـد بدأ يهبط، وبدأت تنبعث من مصابيح الشـارع أضواء زاهيـة متعـددة الألوان، تضفـي على الأشـجار وعلى كل ما في الشـارع مظهـرًا رائعًـا، ولكـن الحديقة لم تكن مضـاءة، ولا يبدو مـن النوافذ أي

ضوء، اجتاز الحديقة، وصعد السلم الأمامي ووقف برهة قصيرة أمام الباب مترددًا، هل يضغط على زر الجرس؟ ضغط على زر الجرس وسمع رنينه داخل المنزل، وظل منتظرًا، ولكن الباب لم يفتح.

شعر بشيء من الراحة النفسية عندما لم يفتح الباب، وهم بالانصراف، ولكن بعد أن هبط السلم سمع صوت فتح الباب، فالتفت فإذا بالباب امرأة عجوز، تضع أمام عينيها نظارة.

قالت له:

- ماذا تريد؟

فتلعثم «ميم» ولم يدر ماذا يقول؟ وأخيرًا قال:

- أليس هذا منزل (دال). إنه يعيش هنا مع أخته (سين)، أليس كذلك؟

فقالت المرأة وفي صوتها رنة حزن:

- (دال)؟

- أجل (دال)، لقد سبق أن دعاني لمنزله هنا.

فقالت العجوز في حزن:

- (دال) نفذ فيه حكم الإعدام، وأخته (سين) تزوجت وتركت المنزل.

شعر «ميم» باكتئاب شديد، وقال وكأنه يحدث نفسه:

- ماذا فعل هذا الشاب الطيب لينفذ فيه حكم الإعدام؟

- ليس من المفروض أن يرتكب الإنسان إثما ليعاقب بالإعدام في هذه المدينة، ألا تعلم ذلك؟ كلنا معرضون لتنفيذ حكم الإعدام في أية لحظة، وبلا أي ذنب جنيناه.

ثم أقفلت الباب، وأضاءت الحديقة، فهبط «ميم» السلم مطاطئ الرأس، وسمع الباب يفتح من جديد، وأطلت منه العجوز مرة أخرى وقالت:

- هل ترغب في رؤية (سين)؟ أنا أعرف عنوانها، إنها تسكن مع زوجها في المنزل رقم 1999

- فقال «ميم»:

- شكرًا.

واستدار خارجًا من الحديقة، وبعد أن خطا خطوات قليلة، سمع السيدة العجوز تصيح في فزع:

- حلتك ملوثة بالدماء، ماذا حدث لك؟

فقال «ميم»، دون أن يتوقف:

- كنت أدور في الطاحونة.

فصاحت العجوز:

- تعال، كيف تسير في الشارع بثياب ملوثة بالدماء؟ تعال أضمد لك جراحك، وأغسل ثيابك.

توقف «ميم» مترددًا مطرقًا للأرض، ثم قال بصوت متهدج:

- أفضّل أن أذهب إلى منزلي.

وسار في طريقه نحو باب الحديقة خارجًا إلى الشارع، فهبطت العجوز السلم بأقصى ما تستطيع من سرعة، ولحقت به وأمسكته من ذراعه قائلة:

- لا تكن عنيدًا. تعال أضمد لك جراحك.

واغرورقت عيناها بالدموع، فسار «ميم» معها ودخلا المنزل، طلبت منه. الجلوس في البهو، فجلس وهرولت مختفية داخل المنزل. كان البهو الذي جلس فيه مظلما، ولما بدأت عيناه تعتادان الظلام، اكتشف في أحد أركان البهو فتاة جالسة تنظر إليه، قامت الفتاة وضغطت على أحد الأزرار فغمر الضوء البهو، ولما رأت «ميم» يطيل النظر إليها، ابتسمت له وجلست في المكان الذي كانت جالسة فيه. كانت الفتاة في نحو السادسة عشرة، رائعة الجمال، ذات وجه ناصع البياض، وشعر أصفر متهدل على كتفيها وعينين زرقاوين وقوام رشيق.

عادت العجوز وفي يديها إناء مليء بالماء وشاش وقطن وزجاجة بها مادة مطهرة، وضعت هذه الأشياء على منضدة بالقرب من «ميم»، وطلبت منه أن يخلع سترته، فخلعها وتناولتها منه ووضعتها على أحد

الكراسي القريبة منها، ثم طلبت منه أن يخلع قمصيه فخلعه ووضعته فوق السترة، ثم صبت جزءًا من المحلول المطهر في وعاء الماء وغمست قطنة في هذا الوعاء، وبدأت تطهر جراحه، وبعد أن انتهت من هذه العملية وضعت السترة والقميص على كتفها، وحملت الأشياء التي كانت على المنضدة، وغابت داخل المنزل.

كانت الفتاة في هذه الأثناء قابعة في ركن البهو، تنظر إلى «ميم» وكأنها قطة سيامية، وعادت العجوز ومعها قميص نظيف أعطته «ميم» قائلة:

- ارتد هذا القميص إلى أن يجف قميصك، إنه قميص ابني الذي نفذ فيه حكم الإعدام منذ خمسة أعوام، ستجده فضفاضًا، فلقد كان صدر ابني أعرض من صدرك.

ثم لاحظت أنه يسترق النظر إلى الفتاة، وكأنه يريد أن يعرف من هي، فقالت العجوز مشيرة نحوها بيدها إشارة سريعة:

- إنه والد هذه البنت، فهي حفيدتي، ومعذرة إذا كانت لم تبادلك الحديث، ليس هذا تعاليًا منها فهي بكماء صماء.

فقال «ميم» في دهشة، وكأنه يحدث نفسه:

- بكماء صماء؟!

قالت العجوز:

- أجل، صماء بكماء، هكذا أراد لها مالك المدينة، لا تسمع ولا تتكلم، فلقد حكم عليها بذلك ونفذ حكمه، إنها لا تسمع الآن شيئًا

من الحديث الذي يدور بيننا، ولا تستطيع أن ترحب بك. رسالتي في الحياة الآن هي أن أعتني بها، وأقوم بخدمتها، فهي محتاجة لمن يعنى بها. لست أدري ماذا سيكون مصيرها، وكيف تحتمل الحياة لو شاء مالك المدينة أن ينفذ فيَّ حكم الإعدام. هل يكفي الإنسان لكي يعيش أن يكون ذا عينين زرقاوين جميلتين؟ نحن جميعًا دمًى صنعها مالك المدينة، فهل أخطأ عندما صنع هذه الفتاة المسكينة خطأً عن غير قصد، أو تراه قصد أن يجعلها صماء بكماء؟

ثم أطرقت للأرض، وقالت بصوت مرتعش متهدج:

- يقولون: إنه لا يخطئ، لقد جعلها كالحيوان الأعجم. لا،.. حتى الحيوان يمكنه أن يسمع.

وانهمرت الدموع من عينيها فمسحتها بيدها، واختفت داخل المنزل.

جلس «ميم» يختلس النظر إلى تلك الفتاة الجالسة، وكأنها تمثال من نور، وأخذ يفكر ويقول لنفسه: «لماذا يحكم مالك المدينة على تلك الفتاة الجميلة بالحياة بلا سمع ولا نطق؟ لماذا؟ وهل وراء ذلك حكمة أو هو حكم تعسفي ظالم؟ لماذا تحدث مثل هذه الأشياء في هذه المدينة؟» وفكّر في الذهاب إلى مكتب الاستعلامات؛ ليستوضح هذا الأمر الذي شغل باله.

عادت العجوز، ومعها السترة والقميص، وأعطتهما «ميم» قائلة:

- لقد بذلت كل جهدي لتنظيفهما، ولكن بقيت بعض آثار خفيفة لا يكاد يلاحظها أحد. وساعدت «ميم» على ارتدائهما، ثم جلست على أريكة، وجلس «ميم» أمامها على أحد الكراسي، وانتقلت الفتاة وجلست بجوار جدتها، وفجأة احتضنت جدتها وقبلتها، فاحتضنتها جدتها وغمرتها بالقبلات. ونظر «ميم» إلى وجه الجدة، فرأى ملامحها تنطق بالطيبة ويشع من عينيها حنان عجيب، وتعجب، كيف يعاقب مالك المدينة مثل هذه السيدة الطيبة، فينفذ حكم الإعدام في ابنها ويبقي حفيدتها التعسة هذه على قيد الحياة صماء بكماء لتقاسي وتتعذب. تمنى أن يرى مالك المدينة، ويسأله عن الحكمة في ذلك، إذا كانت هناك حكمة.

قالت العجوز، وكأنها تقرأ أفكار «ميم»:

- لقد ذهبت إلى رجل وثيق الصلة بمالك المدينة، وانحنيت وقبلت قدميه، وبكيت كثيرًا، ورجوته أن يلتمس من مالك المدينة أن ينفذ فينا نحن الاثنتين حكم الإعدام، ولكن مالك المدينة لم يستجب لهذا الرجاء وتركنا نعيش ونتعذب. ثم نظرت إلى «ميم» نظرة حزينة وقالت:

- في هذه المدينة يا ولدي قد تكون الحياة نوعًا من العقاب.

فقال «ميم»، وكأنه يحدث نفسه:

- ولماذا تعاقب سيدة طيبة مثلك وفتاة بريئة كهذه الفتاة؟

- العقاب يا ولدي في هذه المدينة لا يكون لاقتراف أية جريمة، المجرم قد لا يعاقب، وقد يعاقب الأبرياء.

وانفجرت العجوز تبكي وحفيدتها تربت على ظهرها وتقبلها باكية، فقام «ميم» وقبل يد العجوز وشكرها على كل ما فعلته من أجله، ومد يده للفتاة فمدت إليه يدها، وصافحته بحرارة ضاغطة على يده وعلى فمها ابتسامة عذبة، واتجه نحو باب المنزل، وهبط السلم. التفت خلفه، فرأى العجوز وحفيدتها تشيعانه بنظراتهما حتى توارى عن الأنظار.

عندما دخل «ميم» منزله، ملأ حوض الحمام بالماء الدافئ، شعر بألم شديد في ظهره عندما لمس الماء الأماكن المجروحة في جسده، وكأن نارًا اشتعلت فيها، لم يحتمل الألم فقفز من الماء وجفف جسمه بحذر، فتلطخت الفوطة بالدماء، ارتدى ملابسه وهبط إلى الدور الأرضي للمنزل، وجلس على الكرسي الوحيد بالبهو، شعر برغبة في التحدث مع أي إنسان، فدق الجرس وأتى الخادم يجر ساقه، وقال «ميم»:

- ماذا تريد؟

فقال «ميم»:

- أريد أن أتحدث معك.

فقال الخادم:

- تحدث، ولكن لا تطل الحديث، لأنني مرتبط بموعد مهم.

فأطرق «ميم» إلى الأرض لحظة، ثم قال:

- لست أدري هل أحتمل عذاب الدوران في الطاحونة كل يوم؟ إنني أتألم ألمًا شديدًا، من الصعب احتماله.

- لا حلاوة بلا نار!

- وأين هي تلك الحلاوة؟

- ألا تحصل على رزقك؟ ألا تأخذ نقودًا لدورانك في الطاحونة؟

- أعطاني حارس الطاحونة عشرين قرشًا أمس، واليوم أعطاني عشرة قروش فقط.

- لا بد من وجود سبب لذلك، الأجر في هذه المدينة على قدر العمل.

- لقد قدمت شكوى لمالك المدينة.

فقال الخادم بدهشة:

- شكوى؟ مم تشكو؟

- التمست من مالك المدينة أن يسمح لي بالذهاب إلى أية مدينة أخرى.

فاتسعت عينا الخادم، وفغر فاه مندهشًا، وقال:

- مدينة أخرى؟ كيف خطرت ببالك هذه الفكرة الغريبة؟

فقال «ميم» بصوت متهدج على وشك البكاء:

- منذ وجدت نفسي في هذه المدينة، وأنا في عذاب مستديم، لم أعد قادرًا على احتماله.

- وهل تعرف مكانًا آخر تذهب إليه؟

- كلا، لا أعلم، ولكنني على يقين من أن الحياة في أي مكان آخر، لن تكون في بشاعة وقسوة الحياة في هذه المدينة!

- ومن أين جاءك هذا اليقين؟ من أين علمت أن هناك مدنًا أخرى غير هذه المدينة؟ أنا شخصيًّا لم أر سواها ولا علم لي بوجود غيرها، إننا نعيش فيها إلى أن يحين موعد تنفيذ حكم الإعدام فينا.

فصاح «ميم»، وقد احتقن وجهه من الغضب:

- ولماذا يحكم على جميع أهل المدينة بالإعدام وهم أبرياء؟ لماذا؟

فقال الخادم بكل هدوء:

- لكي يحل محلهم سكان جدد، كل شخص يحكم عليه بالإعدام يحل محله شخص آخر أو عدة أشخاص في بعض الأحيان، ومالك المدينة يحب التغيير، نحن دُمًى، وهو الذي يصنع هذه الدمى، يحب أن يرى في المدينة دمى جديدة. فهو يصنع دمى، ثم يعدمها ويصنع غيرها. إنه لا يحب الركود، يحب رؤية الوجوه الجديدة. هذه هي رغبته ونحن جميعًا لا نملك سوى السمع والطاعة؛ فهو يملك المدينة وكل من فيها وما فيها، وفي استطاعته أن يخسف بنا الأرض، ويدمر كل ما في المدينة

بمجرد أن يضغط على أحد الأزرار، ولذا فنحن نشكره على كل لحظة تمر بنا، ونحن على قيد الحياة.

فأطرق «ميم» للأرض لحظة مفكرًا، ثم نظر إلى الخادم، وقال:

- قل لي: هل رأيت مالك المدينة؟

فابتسم الخادم، وحرك يديه قائلًا:

- ومن أنا حتى أرى مالك المدينة؟ ما أنا إلّا خادم بسيط.

فقال «ميم» في إصرار وتحد:

- أنا أريد أن أراه.

فقال الخادم، وقد ارتعشت شفتاه وقطّب حاجبيه:

- أنت تريد أن ترى مالك المدينة؟ ولماذا؟

وتردد «ميم» بعض الوقت، قبل أن يقول:

- هل لهذه المدينة مالك حقيقة؟

فازدادت دهشة الخادم، ولزم الصمت، ثم جلس القرفصاء، وظل ناظرًا إلى «ميم» فترة غير قصيرة، وكأنه ينظر إلى إنسان فقد عقله، و«ميم» في انتظار إجابته، ثم قال:

- لم يخطر على بالي مطلقًا مثل هذا السؤال؛ إذ لا يمكنني أن أتصور المدينة بلا مالك.

- من الذي يمتلك هذا المنزل؟

- هو طبعًا، إنه يمتلك كل ما في المدينة، وهو الذي بنى هذا المنزل، وكل ما في المدينة من أبنية، لولاه ما وجدت منزلًا يؤويك، وهو كريم إلى أقصى حدود الكرم.

فقال «ميم» ساخرًا:

- كريم إلى أقصى حدود الكرم!

فقال الخادم في إصرار:

- هذا لا شك فيه، هل نسيت أنه قدم لك الطعام والمسكن بلا مقابل، عندما وجدت نفسك وحيدًا غريبًا في المدينة، لا تحتكم على قرش واحد في جيبك؟

- لم أكن أرغب في الحضور إلى هذه المدينة، وكنت في غنى عن كرمه هذا. ولا تنس أنني وجميع من في المدينة محكوم علينا بالإعدام. ومنذ وجدت نفسي هنا، وأنا في عذاب متصل. هل أحضرني إلى هذه المدينة ليعذبني ويتلذذ بعذابي؟ أنا في عذاب أليم سوف ينتهي بالإعدام! هل يوجد ما هو أقسى من ذلك؟

فصاح الخادم غاضبًا:

- عار عليك أن تنطق بهذه الكلمات! نحن جميعًا دمى صنعنا بنفسه، وبنى لنا هذه المدينة.

فصاح «ميم» بدوره قائلًا:

- ولماذا يعذبنا؟ أنا أتعذب؛ انظر إلى ظهري.

وكشف عن ظهره فبدت الجروح الدامية من أثر السياط، وواصل حديثه قائلًا:

- هل في طاقتي احتمال كل هذا العذاب كل يوم. كل يوم، من أجل قروش قليلة أمسك بها رمقي؟

فوضع الخادم فخذيه على الأرض متربعًا، ونظر إلى وجه «ميم» طويلًا وقال:

- يكفيه كرمًا وتسامحًا أنه لم يعاقبك على هذه الكلمات البلهاء التي نطقت بها الآن!

قال «ميم»:

- وهل يوجد عذاب أقسى من ضرب السياط والدوران في الطاحونة كل يوم؟

فقال الخادم بهدوء:

- يكفي أنه منحك نعمة البصر والسمع والقدرة على السير والكلام!

- ولماذا يعاقب الأبرياء؟ لماذا يحرم فتاة بريئة مسكينة القدرة على السمع والكلام؟ لماذا يفجع عجوزًا في ابنها الذي نفذ فيه حكم

الإعدام؟ لماذا يحكم بإعدام شاعر صغير السن يحب جميع البشر؟ لماذا يزلزل أرض المدينة لتنفيذ حكم الإعدام في الأطفال والنساء والرجال الأبرياء؟ لماذا يقتلنا جميعًا؟

- ولماذا توجه إليّ كل هذه الأسئلة؟ أتظنني مكتب استعلامات؟ اذهب إلى مكتب الاستعلامات، واستفهم عن كل ما تريد.

وقام الخادم، وأصلح هندامه، وقال:

- كدت تنسيني موعدي بسبب ثرثرتك، سأتركك الآن، ووداعًا.

واختفى الخادم داخل المنزل ولا يدري «ميم» أين ذهب. قام يبحث عنه في جميع أنحاء المنزل فلم يجد له أثرًا، وتعجب أين ذهب ما دام لم يخرج من باب المنزل. إن باب المنزل مغلق، ولم يفتح، فأين اختفى ذلك الخادم؟ وما ذلك الموعد الذي يحرص عليه كل هذا الحرص؟ أعاد «ميم» تفتيش كل ركن من أركان المنزل فلم يجده! لم يشغل «ميم» نفسه كثيرًا بهذا الأمر، إن موعد العشاء قد حان و(واو) في انتظاره، فأسرع بالخروج، وانطلق يمد الخطى بأقصى سرعته نحو المطعم.

9

عندما دخل «ميم» المطعم، وجد (واو) جالسًا أمام منضدة في أقصى اليمين، فأسرع نحوه وحياه، وجلس على الكرسي المقابل له. قال له (واو):

- تأخرت كثيرا، لقد تناولت عشائي منذ فترة طويلة؛ وكنت على وشك الانصراف يائسًا من حضورتك، لماذا تأخرت؟ ألم تشعر بالجوع؟

فقال «ميم» مكتئبًا:

- أشعر بالخوف.

- مم تخاف؟

- هذه المدينة.

في هذه اللحظة أقبلت فتاة لم يرها «ميم» من قبل، ترتدي زي فتيات المطعم، ذات وجه صبوح وعينين سوداوين وقوام رائع، قالت لـ«ميم»، دون أن تنظر إليه:

- ماذا تريد للعشاء؟

بهره جمالها وود لو يظل ناظرًا إليها إلى الأبد، ولكنه قاوم هذه الرغبة، وغض من بصره، وقال:

- أي شيء في حدود خمسة قروش.

فانصرفت الفتاة وعادت سريعًا وفي يدها طبق به قطعة خبز صغيرة وضعته أمام «ميم» وانصرفت، ظل «ميم» ينتظر باقي الطعام، ونظرت الفتاة بطرف عينيها، فوجدته لم يمد يده إلى الخبز، فأقبلت نحوه وقالت:

- هذا هو كل ما يمكنني تقديمه لك الليلة في حدود خمسة قروش.

فقال «ميم» مندهشًا:

- هذه القطعة الصغيرة من الخبز بخمسة قروش؟ ماذا حدث؟

قالت الفتاة:

- ارتفعت الأسعار، الطعام التي تناولته هنا بالأمس أصبح ثمنه الآن عشرين قرشًا!

انصرفت الفتاة وظل «ميم» ناظرًا إلى قطعة الخبز، وقال له (واو):

- لماذا لا تأكل؟

فقال «ميم»، وكأنه يحدث نفسه:

- قطعة خبز جاف بخمسة قروش؟

فقال (واو):

- ومـاذا نصنـع؟ لا حيلة لنا فـي ذلك! لقد ارتفعت الأسـعار، عليك الآن أن تدور في الطاحونة مدة أطول لتحصل على أجر أعلى.

شعر «ميم» بحزن عميق ويأس قاتل، ومد يده ببطء، فتناول قطعة الخبز وأكلها، وظل مطرقًا للأرض، ثم أدار بصره في أنحاء المطعم، فوجد جميع الزبائن منهمكين في تناول أشهى الأطعمة التي سال لها لعابه، أمامهم الدجاج والجمبري المشوي وكميات هائلة من اللحم، وشتى أنواع الخضر والفاكهة، ثم عاد بصره ليستقر في طبقه الخالي، فقال له (واو):

- كان يسـعدني أن أدفع لك ثمن ما تشـتهي من طعـام، ولكن قوانين المدينة تحتم ألَّا يأكل الإنسـان إلا من ثمرة عمله، هيا بنا نغادر المطعم؛ فلا داعي للجلوس هنا ما دمنا انتهينا من تناول الطعام.

خرجـا من المطعم، وسـارا بضع خطوات، قال «ميـم» وكأنه يحدث نفسه:

- سأشـكو هذا إلى مالك المدينة، لا شـك أنـه لا يرضيه أن أدور في الطاحونة بعشـرة أو عشرين قرشًـا في الوقت، الذي يصبح فيه ثمن قطعة صغيـرة من الخبز خمسـة قروش. هـل ينبغي أن أظل دائـرًا في الطاحونة طـوال الليل والنهار لأحصل على ثمن وجبة غـذاء واحدة؟ وكيف أدفع إيجار المنزل؟ وإذا احتجت لقميص أو بدلة، فماذا أصنع؟ كنت أفكر في شراء قميص، بدلًا من ذلك القميص الملطخ بالدماء.

قال (واو) مبتسمًا:

- لا تفكر في ذلك الآن، لا بد أنهم سيرفعون أجر الدوران في الطاحونة. قد يصبح أجرك ثلاثة أو أربعة جنيهات بدلًا من العشرين قرشًا، من يدري؟ فغمغم «ميم» قائلًا:

- لا بد أن أشكو هذا لمالك المدينة.

قال (واو) مبتسمًا:

- لو أن مالك المدينة غير راض عن ارتفاع الأسعار لما ارتفعت.

- أنا لا أصدق ذلك. لقد أخبرني الخادم في منزلي أن مالك المدينة عطوف، ودليله على ذلك أن المالك سمح لي بالطعام والمأوى بلا مقابل، في بدء حضوري لهذه المدينة.

فضحك (واو) ضحكة عالية، وقال ساخرًا:

- الخادم قال لك ذلك، بعد كل هذا العذاب الذي لمسته بنفسك في المدينة؟ يكفي أن كل من فيها محكوم عليهم بالإعدام، ولا أحد يدري موعد تنفيذ هذا الحكم، كل شخص هنا يتوقع الإعدام في أية لحظة.

وأردف قائلًا بحزن:

- ليتني ما عرفت موعدي، لقد ازددت شقاء، هيا معي إلى منزلي.

سار معًا نحو منزل (واو)، وفي أثناء سيرهما، استرعى انتباه «ميم» واجهة إحدى دور السينما، تتلألأ بالأضواء المتحركة تعلن عن عرض

فيلـم بعنـوان «الجانـب الآخـر مـن المدينـة»، وتمنـى في أعماق نفسـه لو يسـتطيع مشـاهدة هذا الفيلم ليرفه عن نفسه. ولكنه تذكر أن كل قرش فـي جيبه ينبغي الحرص عليـه لتناول الطعام ودفع إيجار المنزل. ثم رأى إحدى واجهات المتاجر، وقد عرض فيها بتنسـيق بديع شتى أنواع السلع والتحف الثمينة، وعند كل سلعة بطاقة تحمل ثمنها، استرعى نظره جهاز تليفزيـون أنيق أصفـر اللون، تمنى أن يشـتريه ليأتنس به فـي وحدته، قرأ سـعره على البطاقة فوجد أنـه لكي يدبر ثمنه لابد أن يـدور في الطاحونة يوميًّا لمدة خمسـين عامًا، دون أن يصرف قرشًـا واحدًا من أجر الدوران في أي غرض آخر! وأقبلت نحوهما ثلاث فتيات جميلات سـائرات في الاتجـاه المضـاد على الإفريز نفسـه. نظر «ميـم» إليهن ليمتـع نظره بهذا الجمال، ولكنهن أشحن وجوههن عنه، ولم يعد يؤلمه مثل هذا التصرف فلقد أصبح معتادًا عليه.

كان النسـيم في هذا المسـاء كعادته عاطرًا برائحة الورود والياسمين، التي تعتبر شـيئًا مميزًا لهذا الشـارع الأنيق الجميـل، ولمحت عينا «ميم» فتاة جميلة ذات شعر كستنائي مرسل، تعزف على جيتار في شرفة منزلها، ولما رأته هو ورفيقه (واو) أجفلت وأسرعت بالاختفاء داخل منزلها.

وعندمـا اقترب «ميم» ورفيقه من ميدان الشـاعر، أبـدى «ميم» رغبته في الجلوس بعض الوقت بجوار التمثال. كانت جميع المقاعد مشـغولة ما عدا دكة خشـبية، يجلس عليها رجل بمفرده، وبجواره مسـاحة تتسـع لجلوس اثنين. جلس «ميم» ورفيقه بجوار ذلك الرجل، وتوقع «ميم» أن

ينفر منهما ويترك لهما الدكة ويسرع بالهرب، ولكنه ظل جالسًا في مكانه بجوارهما وكأنه لا يشعر بوجودهما، كان كهلًا غير حليق الذقن، ذا أنف كبير وشارب كث وعينين نصف مغمضتين، يرتدي بدلة حمراء وقميصًا أبيض وبلا رباط عنق. قال «ميم» لرفيقه (واو):

- تحيرني أشياء كثيرة.

- مثل ماذا؟

- لست أدري كيف جئت إلى هذه المدينة؟ وما ذلك القطار الذي أسمع صفيره من خلال البالوعة، عندما يلقون فيها الذين نفذ فيهم حكم الإعدام، وما مصير تلك الجثث التي يلقونها في البالوعة. ومالك المدينة هل هو خيّر كما قال لي الخادم أم هو قاس؟ وإذا كان خيّرًا فلماذا يعذب الناس كل هذا العذاب؟ وهل هو الذي يحركنا كما قلت لي أو نحن الذين نحرك أنفسنا؟ وإذا كان هو الذي يحركنا كما تقول، فلماذا يحاسبنا على أعمالنا؟ هذه أشياء تحيّرني.

- هل سمعت صوت قطار ينبعث من البالوعة؟

- نعم، سمعته بوضوح.

- شيء عجيب! يبدو أن هذا الصوت لم يسمعه غيرك.

- ليس هذا هو المهم، المهم في نظري لماذا يعذبنا؟

قال (واو):

- يبـدو أن هـذه الأفـكار تلح عليـك إلحاحًا شـديدًا. قلـت لك: إنه يعذبنا؛ ليشعرنا بوجوده، ويشعرنا نحن أيضًا بوجودنا.

- أنا غير مقتنع بهذا الرأي.

- وماذا ترى أنت؟

- لست أدري.

وهنا تدخل الرجل الجالس على يسار «ميم» قائلًا:

- مالك المدينة لا هو بالخيّر ولا بالشرير.

فالتفت إليه «ميم»، وقال:

- ماذا تعني بذلك؟ هل يوجد غير الخير والشر؟

فقال الرجل، وهو يبعث بشاربه الكثيف:

- نعم، يوجد العدم.

قال «ميم»:

- ماذا تعني بذلك؟

- لا مالك لهذه المدينة.

فقال «ميم» في فزع:

- لا مالك لهذه المدينة؟

والتفت «ميم» إلى رفيقه (واو) الجالس على يمينه، وكأنه يستنجد به ويحثه على إبداء رأيه، ولكن (واو) ظل صامتًا مطرقًا للأرض. قال «ميم» للرجل الكهل.

- سمعت أن لهذه المدينة مالكًا هو الذي بناها وهو الذي ينفق عليها، وأننا جميعا دمى من صنعه هو. هو الذي يحركنا، وهو الذي يجعلنا نحزن أو نفرح، وهو الذي حكم على جميع سكان هذه المدينة بالإعدام.

قال الكهل، وهو لا يزال مطرقًا للأرض يعبث بشاربه:

- لا تصدق شيئًا من تلك الأكاذيب، لقد بحثت عنه في كل ركن من أركان المدينة فلم أعثر له على أثر! لو كان للمدينة مالك كما يزعمون لرأيناه، أو رآه ولو فرد واحد من أهل المدينة على الأقل، كل ما سمعناه عن مالك المدينة مجرد أساطير، لا يستطيع أحد أن يبرهن على صحتها. كيف نقتنع بوجود من لا نراه؟

في هذه اللحظة، هب نسيم عليل صافح وجه «ميم»، فقال للكهل:

- هل شعرت بهذا النسيم الذي هب الآن؟

- نعم شعرت. أتظنني عديم الإحساس؟

- لا أقصد أنك عديم الإحساس. كل ما يهمني أنك شعرت بوجود النسيم.

- نعم. شعرت به طبعًا.

- ولكنك لم تره، هل رأيت النسيم؟

فقال الكهل بعد لحظة تفكير:

- لم أره، ولكنني أحسست به. أحسّت به حاسة من حواسي، وهي حاسة اللمس، ولكن مالك المدينة لم يشعرني بوجوده، ولو عن طريق أية حاسة من الحواس.

وهنا تدخل (واو) قائلًا:

- أما عن وجود مالك للمدينة فهذا لا شك فيه، لا يمكن أن تكون المدينة بلا مالك. ولكن الذي يحير رفيقي هذا: هل مالكُ المدينة عطوفٌ محب للخير أم قاسٍ يهوى العذاب؟

قال الكهل:

- لو كان لهذه المدينة مالك يسيطر عليها كما يزعمون، لما سمح بكل هذا العذاب والاضطراب! الأمور تسير عشوائيًّا بلا تفكير أو تخطيط، هل تعرف ذلك المبنى الكبير الذي عند نهاية الشارع المسمى «بيت الشكاوي»؟ مئات من أهل المدينة المساكين يهرعون إليه يوميًّا؛ لتقديم شكاواهم التي تفتت الأكباد، ولم أسمع طوال حياتي أنه استجاب لشكوى واحدة! وهذا لسبب بسيط: ليس للمدينة مالك يطلع على تلك الشكاوى. إنه وهم كبير.

قال (واو)، وهو يهم بالقيام:

- أنا لا أوافقك على ذلك، أنا متيقن من وجود مالك للمدينة.

والتفت إلى «ميم» قائلًا:

- هيا بنا.

قام «ميم» ورفيقه، وتركا الكهل، جالسًا بمفرده على الدكة، يعبث بشاربه. وبعد أن سارا معًا بضع خطوات، قال «ميم»:

- أشعر بتعب وإرهاق شديد، وسأقوم غدًا من نومي مبكرًا؛ لأدور في الطاحونة، وأفضّل أن أذهب إلى منزلي؛ لأنال قسطا من الراحة.

تصافحا وافترقا وسار كل في طريقه. وعندما وصل «ميم» إلى منزله، لم يجد الخادم، فدخل غرفة النوم، وتعجب عندما وجد آلة تليفون على المنضدة بجوار السرير وبجوارها ورقة. اختطف «ميم» الورقة؛ ليقرأها؛ فوجد فيها سطرًا واحدًا يقول: «تم تركيب آلة تليفون بمنزلك بناء على أمر من مالك المدينة.». فرح «ميم» لوجود تليفون بمنزله، على الرغم من عدم معرفته لأي إنسان في المدينة يمكنه الاتصال به تليفونيًا، ولكنه شعر بأنه لم يعد وحيدًا. رفع السماعة ووضعها على أذنه، وفرح عندما سمع أزيزًا، كما يفرح الطفل بلعبة جديدة. ثم وضع السماعة في موضعها، وخلع حلته، ولبس المنامة، وألقى بنفسه فوق السرير، ونظر إلى آلة التليفون، ثم أغمض عينيه ونام.

صحا «ميم» من نومه مرعوبًا في نحو السابعة صباحًا على صوت رنين جرس التليفون، وتعجب، إنه لا يعرف أحدًا ولا أحد يعرف رقم تليفونه، فمن الذي يتصل به في هذه الساعة؟ التقط السماعة، وقال:

- هالو.

فسمع صوت رجل يقول:

- أنت «ميم نون»، أليس كذلك؟

- بلى، أنا «ميم نون». من أنت؟

- أنا إنسان يحب أن يراك، فمتى أراك؟

- عندما أنتهي من الدوران في الطاحونة بعد ظهر اليوم.

- منزلي رقم 136 بالشارع، سأنتظرك بعد أن تنتهي مباشرة من الدوران في الطاحونة.

- هل يمكنني أن أعرف من الذي يكلمني؟

لم يتلق «ميم» ردًّا على سؤاله؛ فلقد وضع المتكلم السماعة، وأخذ «ميم» يفكر، ترى من يكون هذا الشخص؟ وماذا يريد منه؟ وكيف عرفه وعرف رقم تليفونه؟! أسرع بارتداء ملابسه، وبينما هو يهم بالخروج من الغرفة، وجد الخادم واقفًا بجوار الباب. قال الخادم:

- أرجو أن تكون مسرورًا بتركيب التليفون. هل لاحظت وجوده؟

فقال «ميم»:

- واتصل بي الآن شخص لا أعرفه، دعاني لزيارته في منزله.

- ومتى تراه؟

- بعد الانتهاء من الدوران في الطاحونة. لست أدري ماذا يريد مني؟

قال الخادم، وهو يبتعد عنه:

- ستعرف كل شيء عندما تراه.

هم «ميم» بالخروج من المنزل، ولكنه تذكر شيئًا، فعاد ونادى الخادم، وقال له:

- لقد ارتفعت الأسعار في المطعم، ولم تعد نقودي كافية، لست أدري ماذا أفعل؟ سأموت جوعًا!

فقال الخادم:

- ولماذا لا تغير هذا المطعم؟ توجد مطاعم أخرى أقل منه درجة وأرخص منه.

- وهل في المدينة مطاعم غيره؟

فقال الخادم مبتسمًا:

- توجد مئات المطاعم. اذهب إلى المطعم في المبنى رقم 4612 في الشارع، لقد ارتفعت أسعاره هو أيضًا بالأمس، ولكنها لا تزال رخيصة نسبيًّا.

انطلق «ميم» بأقصى سرعته نحو هذا المطعم الذي ذكره الخادم. كان مطعمًا صغيرًا ولكنه جميل وأنيق، نوافذه ذات زجاج أخضر، ومغطاة

بستائر زرقاء تجعل الضوء فيه خافتًا مريحًا للأعصاب، تتناثر في أنحائه أباجورات خضراء.

كان المطعم خاليًا من الرواد عندما دخله «ميم»، جلس عند منضدة بجوار النافذة العريضة المطلة على الشارع، ولم تكن الستائر تسمح برؤية واضحة لما يحدث في الطريق، كان سير الناس على الإفريز الملاصق للمطعم لا ينقطع، ولكن «ميم» لم يكن يرى المارة إلا كظلال غير واضحة المعالم.

أقبلت نحو «ميم» فتاة طويلة نحيلة رائعة الجمال، ترتدي ثوبًا أزرق ذا ياقة ناصعة البياض، وعلى رأسها قلنسوة بيضاء تشبه تلك التي ترتديها الممرضات بالمستشفيات. كان في يد الفتاة نوتة صغيرة الحجم وقلم رصاص، سألت «ميم»: ماذا يريد لفطوره، فقال إنه يرغب في أي طعام لا يكلفه أكثر من خمسة قروش. تركته الفتاة وعادت بعد قليل وفي يدها صينية عليها طبق، به ثلاث بيضات مقلية وقطعة خبز وفنجان من الشاي، لم يصدق أن هذا الطعام له، حتى وضعته الفتاة أمامه على المنضدة وابتعدت عنه، لم يكن يتوقع أن يقدم له هذا الطعام الشهي بخمسة قروش، فشعر بفرحة كفرحة الطفل عندما تقدم له هدية كان يحلم بها، وأقبل على الطعام يفرغه في معدته، وكانت تنساب إلى أذنيه في أثناء تناول الطعام موسيقى شجية هادئة، تمنى لو يظل منصتًا لها إلى الأبد، ولكنه انتهى من إفطاره، وقد حان موعد دورانه في الطاحونة. فوضع على المنضدة خمسة قروش، وأسرع نحو الطاحونة والموسيقى العذبة لا تزال ترن في أذنيه.

كان الدوران في الطاحونة في هذا اليوم شديد الوطأة على «ميم»، فالأسواط كانت تنهال على جروح في جسده لم تلتئم بعد، فكر في عدم إتمام الدوران، فالموت جوعًا أصبح في نظره أقل قسوة من هذا العذاب. ثم فكر في أن يقدم التماسًا إلى مالك المدينة، يطلب منه تنفيذ حكم الإعدام فيه؛ ليستريح من هذه الآلام التي لم يعد قادرًا على تحملها! ولكن عدم الاستجابة لشكواه السابقة جعلته يشك في إمكان الاستجابة لهذا الالتماس.. لم يستطع السيطرة على مشاعره، فأخذ يبكي في صمت. في هذه اللحظة هوى عامل الطاحونة بالسوط على ظهره، فانفجر «ميم» يبكي بصوت مسموع. وتجمع الأطفال عند باب الطاحونة يضحكون من هذا الرجل الذي يدور في الطاحونة، وهو يبكي بصوت متشنج، ثم تجمع عدد آخر من النساء والرجال والأطفال. أزاحوا الأطفال إلى الخلف، واحتلوا أماكنهم، واشرأبوا بأعناقهم ناظرين إلى «ميم».

حانت من «ميم» في أثناء دورانه التفاتة نحو هؤلاء المتفرجين، فوجدهم يضحكون كالأطفال. تعجب «ميم» من ضحكهم وقال لنفسه: «لماذا يضحك الناس في هذه المدينة ويسخرون من إنسان يتألم؟ هذه الضحكات أشد إيلامًا من السياط التي تنهال على جسدي!». لمح بين المتفرجين فتاة جميلة يعرفها، إنها فتاة المطعم الأول، التي كان قد طلب منها أن تؤنس وحدته وتعجب لوقوفها بين جموع المتفرجين، ولكنها لم تكن تضحك مثلهم، بل كانت تبكي، وبرز رجل عملاق عريض الفكين والمنكبين استغل الموقف، وأخذ يجمع من المتفرجين نقودًا ثمنًا لفرجتهم على «ميم»، والجميع يدفعون له النقود عن طيب خاطر.

لما انتهت فترة الدوران، أعطاه عامل الطاحونة عشرين قرشًا، وخرج «ميم» يترنح كالسكران. لم يستطع السيطرة على دموعه التي ظلت تنساب على خديه وقد فقد حاسة الاتجاه! لم يعد يدري أي الاتجاهين يؤدي إلى منزله، فسار على غير هدى. ولاحظ شيئًا عجيبًا. لم يعد الناس يشيحون وجوههم عنه، بل كان الجميع يبتسمون له، وتعجب: لماذا حدث ذلك؟

وجد نفسه أمام ميدان الشاعر، في هذه اللحظة أدرك الاتجاه الصحيح، فأسرع نحو منزله. وما كاد يسير بضع خطوات في هذا الاتجاه حتى تذكر موعده مع الرجل المجهول الذي تحدث معه بالتليفون، فسار في الاتجاه المضاد نحو منزل ذلك الرجل. ظل طوال الطريق يفكر في هذه المحادثة التليفونية الغريبة، ماذا يريد منه هذا الرجل؟ وهل تم تركيب التليفون في منزله خصيصًا لهذه المحادثة؟

ظل «ميم» يسير في الشارع متتبعًا أرقام المساكن، وأخيرًا وجد نفسه أمام الرقم المطلوب. كان منزلًا من طابقين، أزرق اللون، ذا نوافذ بيضاء، وحديقة ذات أشجار عالية، تكاد تحجبه عن الناظر إليه من الشارع. ووقف «ميم» أمام باب الحديقة يبحث عن زر جرس الباب ليضغط عليه. وقبل أن يهتدي إلى الزر، وجد باب الحديقة يفتح، وفي انتظاره خلف الباب فتاة في نحو التاسعة عشرة ممشوقة القوام، ذات بشرة بيضاء وشعر أسود وعينين سوداوين وأنف دقيق وشفتين رقيقتين. نظر إليها مبهورًا بجمالها، انحنت له قليلًا، وقالت:

- تفضل، إنه في انتظارك.

قادته الفتاة عبر ممر طويل في الحديقة، تحف به الأشجار على الجانبين وتتلاقى أغصانها، وتتشابك من أعلى مما جعل الممر أشبه بالنفق، ثم صعدا معًا سلمًا به سبع درجات. كان باب المنزل مفتوحًا فأشارت إليه ليدخل، فدخل ودخلت بعده. وجد «ميم» نفسه في بهو متسع يكاد يكون خاليًا من الأثاث، في ركنه الأيمن سلم خشبي. طلبت منه الفتاة أن يتبعها فسارت أمامه، وبدأت تصعد السلم، وهو خلفها يجر ساقيه بمشقة، ظلا يصعدان السلم مدة طويلة، وبدا السلم وكأنه لا نهاية له، وتعجب «ميم»، كيف يكون السلم بهذا الارتفاع على حين أن المنزل كما رآه من الخارج لا يرتفع لأكثر من طابقين عاديين؟

وبعد مدة طويلة وصلا معا إلى غرفة تبدو وكأنها معلقة في الفضاء، طلبت منه الفتاة أن يدخل الغرفة، فدخل، ثم أغلقت الباب من الخارج. وسمع «ميم» وقع أقدامها يبتعد. وهي تهبط السلم مسرعة، حتى تلاشى. لم يكن بالغرفة سوى كرسيين يجلس على أحدهما رجل في نحو الخمسين، أقرب إلى البدانة، مستدير الوجه كثيف الحاجبين ذو عينين خضراوين. أشار لـ«ميم» بيده ليجلس على الكرسي الآخر فجلس، وساد الصمت فترة من الزمن وذلك الرجل المجهول مطرق للأرض حتى خيل لـ«ميم» أنه أمام تمثال لن ينطق، وبدأ يشعر بالخوف. وأخيرًا نظر الرجل إلى «ميم» بعينين ثاقبتين، وقال:

- سمعتك تتكلم عن أشياء لا تفهمها في هذه المدينة.

فقال «ميم» متلعثمًا، وقد شعر بقلبه يدق دقات سريعة:

- أنا لا أفهم شيئًا منذ وجدت نفسي هنا.

قال الرجل:

- سمعتك يوم تنفيذ حكم الإعدام في الشاعر تبكي وتقول: «ملعونة تلك المدينة التي ينفذ فيها حكم الإعدام في شاعر رقيق صغير السن».

فقال «ميم» في إصرار، وقد تجهم وجهه:

- نعم، ملعونة تلك المدينة ألف لعنة! لقد قلت ومازلت مصرًّا على رأيي. إنها مدينة بشعة.

فأطرق الرجل للأرض فترة، ثم رفع رأسه، وقال:

- أنا من المقربين إلى مالك المدينة، وأقضي معه أمسيات وأعلم عنه أشياء كثيرة.

فصاح «ميم» بانفعال:

- أين مالك المدينة هذا؟ أريد أن أراه؛ لأقول له رأيي فيه بصراحة: هل أقام تلك المدينة ليلتذ بعذاب أهلها؟ لماذا يعذبنا كل هذا العذاب؟ سأذهب إليه وألتمس منه أن يسرع بتنفيذ حكم الإعدام فيّ؛ فلقد أصبحت الحياة هنا فوق احتمالي!

فابتسم الرجل وقال:

- لا تغضب، كن هادئًا؛ إن مالك المدينة لا يحب الذين يغضبون.

فصاح «ميم» في ثورة:

- فليغضب كما يشاء، إنه لا يعرف الرحمة.

قال الرجل بهدوء:

- أنت لا تعرف شيئًا عن مالك المدينة، إنه عطوف حنون.

قال «ميم» وقد نفرت شرايين رقبته من الغضب:

- أنا أعرف السبب الذي دفعه لتنفيذ حكم الإعدام في الشاعر.

قال الرجل مبتسمًا:

- ما الذي تعرفه؟

- كان يحقد على الشاعر، ويغار منه.

- ولماذا يحقد عليه ويغار منه؟

- لأن كل من في المدينة كان يحب الشاعر ويعجب به.

- كل من في المدينة دمى صنعها مالك المدينة، والشاعر لم يكن سوى دمية من هذه الدمى، فهل يحقد الصانع على دمية من صنع يديه ويغار منها؟ إذا رأيت تمثالًا جميلًا أو منزلًا رائع البناء أو رسمًا آية في الإبداع، فهل التمثال أو المنزل أو الرسم هي الجديرة بالمدح والثناء، أم الذي صنع التمثال وصمم المنزل وأقامه أو رسم الصورة؟

- الذي صنع التمثال أو صمم البناء أو رسم الصورة هو الجدير بالمدح بطبيعة الحال.

- إن مالك المدينة يسعده أن تكون دميته موضع إعجاب الجميع؛ إذ في هذا إعجاب به وتقدير له، لقد كان الشاعر دمية جيدة الصنع يعتز ويفخر بها مالك المدينة، كان مالك المدينة يحب الشاعر حبًّا جمًّا.

- إذا كان الأمر كذلك، فلماذا نفذ فيه حكم الإعدام، وهو لا يزال صبيًّا؟

- من العسير على عقل الدمية أن يرقى إلى مستوى عقل صانعها ليفهم دوافعه وأسراره. إن عقل الدمية يعجز عن تفسير الأشياء التي فوق طاقته، وإذا حطَّم مالك المدينة دمية جميلة من صنع يديه فلا لوم عليه، هو الذي صنعها وهو الذي حطّمها.

فاغرورقت عينا «ميم» بالدموع، وقال:

- عندما تدب الحياة في الدمية وتشعر بوجودها. ويكون وجودها سببًا في إسعاد أهل المدينة، لا يصبح من حق صانعها أن يحطمها. أيُّ ذنب جناه الشاعر الصغير، لينفذ فيه حكم الإعدام؟

- ليس من الضروري أن يرتكب ذنبًا؛ ليحكم عليه بالإعدام، كل أهل المدينة محكوم عليهم بالإعدام بلا ذنب جنوه.

- ومن الذي حكم بالإعدام على كل سكان المدينة بلا ذنب جنوه؟

- مالك المدينة.

- ولماذا صنعنا؟ لماذا صنع كل هؤلاء المساكين؟ هل صنعهم ليحطمهم؟ هل صنعنا ليؤنس وحدته؟ ومادمنا مجرد دمى صنعها ليلهو بها ويؤنس وحدته، فلماذا جعلنا نحس ونتألم ونخاف ونحزن؟ لماذا لم يجعلنا آلات صماء لا تشعر بالألم والعذاب؟ لماذا يعذبنا ثم يحطمنا؟ لا يفعل ذلك سوى شرير!

فأطرق الرجل المجهول نحو الأرض لحظة، ثم رفع رأسه، وقال بهدوء:

- لا تكن متسرعًا في أحكامك، فمالك المدينة لا يحب المتسرعين، وهو ليس في حاجة لمن يؤنس وحدته.

صاح «ميم» قائلًا:

- وماذا يهمني إذا أحبني أو كرهني؟ فليكرهني ولينفذ فيّ حكم الإعدام في هذه اللحظة، فهذا أقصى ما أتمناه! لقد كرهت الحياة في هذه المدينة الرهيبة البشعة، إنني أتعذب عذابًا لم تعد لي طاقة على احتماله.

وانفجر باكيًا، وضم أصابعه في قبضة قوية لوح بها صائحًا:

- هل صنعني ليعذبني؟ أنا لم أرتكب ذنبًا لأعذب كل هذا العذاب!

وفي حركة عصبية، خلع سترته فبدا القميص غارقًا في الدماء وصاح قائلًا:

- أي ذنب جنيته أستحق من أجله أن أدور في الطاحونة، ويُلهب جسدي بالسوط كل يوم وتسيل منه كل هذه الدماء؟

فقال الرجل المجهول في هدوء:

- ألا تأخذ أجرًا على ذلك؟

- وهل من الضروري أن أعذب كل هذا العذاب لقاء أجر، لا يكاد يمسك رمقي؟

- أتيت إلى هذه المدينة لتبحث عن الحقيقة، أليس كذلك؟

قال «ميم» ساخرًا:

- بلى، علمت من مكتب الاستعلامات أن مهمتي البحث عن الحقيقة، لست أدري ما تلك الحقيقة التي أتيت لأبحث عنها؟

أطرق الرجل المجهول إلى الأرض، وغمغم وكأنه يحدث نفسه:

- هذا هو سر عذابك.

لم يسمع «ميم» من تلك الجملة سوى كلمة «عذابك»، فواصل حديثه قائلًا:

- وعلاوة على هذا العذاب الجسماني، فإنني أرزح تحت وطأة عذاب نفسي قاتل. منذ أيام وأنا أشعر بالمذلة والمهانة بلا ذنب جنيته، لماذا يشيح وجهه عني كل من يراني؟ أي ذنب جنيته أعذب من أجله كل هذا العذاب؟

قال الرجل مبتسمًا:

- ولكنني أعلم أن أهل المدينة استقبلوك بالمودة والترحاب، فما الذي جعلهم يشيحون وجوههم عنك؟

فأطرق «ميم» للأرض، وقال بصوت حزين:

- في لحظة من لحظات الوحدة والضيق، طلبت من الفتاة التي قدمت لي الطعام في المطعم أن تؤنس وحدتي، لم أكن أضمر لها أي سوء، ولم تخطر ببالي أية نيّة سيئة، فهل بسبب كلمة قلتها بحسن نية، في لحظة ضيق، يشيح كل من في المدينة وجوههم عني حتى الأطفال؟

لم يستطع «ميم» أن يسيطر على مشاعره فأجهش بالبكاء وأخذ جسده يرتجف: وضع الرجل المجهول يده على رأس «ميم»، وقال:

- ولكن ألم تلاحظ عند قدومك عندي اليوم، بعد خروجك من الطاحونة، أن الناس لم يشيحوا وجوههم عنك؟

قال «ميم»، وهو يمسح دموعه بيده:

- لاحظت ذلك. ولست أدري لماذا حدث.

قال الرجل مبتسمًا:

- في أثناء دورانك في الطاحونة، ألم تلاحظ فتاة المطعم ضمن المتفرجين عليك؟

قال «ميم»:

- لاحظت ذلك. كان الجميع يضحكون عندما أبكي، لست أدري لماذا يضحك الناس في هذه المدينة لرؤية إنسان يتألم أشد الألم ويتحمل أقسى العذاب!

- ولكن فتاة المطعم لم تكن تضحك. أليس كذلك؟

- بلى. لاحظت ذلك.

- كانت تبكي، ومن تقاليد هذه المدينة أن يُغفر ذنب أي مذنب إذا بكى من أجله المجني عليه.

- أمن أجل ذلك لم يعد الناس ينفرون مني؛ لأنها بكت من أجلي؟

- أجل لن ينفر منك أحد بعد اليوم إلا إذا اقترفت ذنبًا آخر لا يتسم بالأمانة والشرف. لا مكان في هذه المدينة لمن يخرج عن قواعد الخلق الكريم.

فأطرق «ميم» للأرض فترة من الزمن مفكرًا، وأمسك رأسه بيديه، ثم رفع رأسه ونظر إلى الرجل المجهول، وقال:

- لماذا طلبت مني أن أحضر للقائك؟

فابتسم الرجل، وقال:

- ليدور بيننا هذا الحوار، أردت أن أخفف عنك وطأة الوحدة.

- أشكرك على ذلك، ويسرني أن أعرف اسمك.

- يكفي أن تعرف أنني من المقربين لمالك المدينة كما أخبرتك.

أطرق «ميم» إلى الأرض، وتردد قليلًا قبل أن يقول:

- هل أطمع أن ترتب لي لقاء مع مالك المدينة؟ أريد أن أراه.

- لا يمكنني أن أعدك بهذا، ليس الأمر بالسهولة التي تتصورها.

وهمَّ «ميم» بالوقوف، فسأله الرجل:

- إلى أين أنت ذاهب الآن؟

- إلى منزلي.

- لقد حان موعد العشاء، ستتناول عشاءك عندي الليلة.

فاحمر وجه «ميم» خجلًا، وقال:

- شكرًا لك، لا أشعر برغبة في الطعام.

قال الرجل مبتسمًا:

- ستشعر بهذه الرغبة عندما ترى الطعام.

نهض الرجل، فقام «ميم» وصافحه، وأراد الخروج من الغرفة، ولكنه وجد للغرفة عدة أبواب جميعها موصدة، فوقف حائرًا لا يدري من أي باب يخرج. أشار له الرجل المجهول نحو أحد الأبواب قائلًا:

- افتح هذا الباب تجد السلم، وعندما تهبط إلى الطابق الأرضي ستجد المائدة معدة لك.

فتـح «ميـم» البـاب الـذي أشـار نحـوه الرجـل، ودهش عندمـا رأى سـلمًا خشبيًّا لامعًا مفروشًا بسـجادة خضراء، لم يكن هو السلم المرتفع اللانهائـي الذي صعده عند حضوره بل سـلمًا عاديًّـا، لا يرتفع لأكثر من طابق واحد، ولا يستغرق هبوطه أكثر من دقيقة. هبط السلم، فوجد الفتاة واقفـة عند أسـفله، كأنها تمثال، عندما هبط آخر درجة ابتسـمت له الفتاة وقادته إلى غرفة المائدة. انبعثت من الغرفة رائحة طعام، سـال لها لعاب «ميـم»، لم تكـن الغرفة فاخرة، بـل ضيقة قليلة الأثاث تتوسـطها منضدة متوسـطة الحجم، حولها أربعة كراسي من النوع الرخيص. جلس «ميم» على أحد الكراسـي ونظر إلى المائدة، فوجـد أمامه طبقين أحدهما فوق الآخر، وعليهما فوطة نظيفة وحولهما ملاعق وشـوك وسـكاكين وكوب ملـيء بالمـاء، ولكن الأهـم من ذلك كله مـا رآه في وسـط المائدة، رأى لأول مرة في حياته خروفًا متوسط الحجم، محاطًا بكمية كبيرة من الأرز المخلـوط بالزبيب والبنـدق وأجزاء من الكبد، وقد وضـع في طبق كبير يناسـب حجمه، وحول هذا الطبق عدد آخر من أطباق مغطاة، لم يستطع «ميم» معرفة ما بداخلها.

انحنـت الفتـاة وفصلت من الخروف كتلة كبيرة مـن اللحم، وضعتها فـي الطبـق العلوي الـذي أمام «ميـم»، ووضعت بجوار اللحـم كمية من الأرز، ثم وقفت بجواره.

أقبـل «ميم» على الطعام فالتهمه في دقائق قليلة، فأخذت الفتاة الطبق العلـوي الذي فرغ منه الطعام، ورفعت غطاء أحد الأطباق المغطاة فظهر

تحت الغطاء لون من الطعام لم يعرفه «ميم». وضعت الفتاة جزءًا من ذلك الطعام أمامه، فامتلأ أنفه برائحة فاتحة للشهية، التهم هذا الطعام أيضًا. ومدت الفتاة يدها لتكشف غطاء طبق آخر، ولكن «ميم» اعتذر عن عدم تمكنه من مواصلة الطعام لامتلاء معدته. وضعت الفتاة أمامه طبقًا نظيفًا وخرجت من الغرفة، وعادت وفي يدها سلّة كبيرة مليئة بشتى أنواع الفاكهة، فأكل «ميم» بعضها وأبدى رغبته في الانصراف، فابتسمت الفتاة وانحنت له قليلًا، وقالت:

- هل ترغب في أية خدمة قبل انصرافك؟

فأجاب «ميم» قائلًا، وقد احمر وجهه خجلًا:

- كلا، وشكرًا.

ولكن «ميم» كان يتمنى في أعماق نفسه أن تؤدي له هذه الفتاة خدمة واحدة، وهي أن تظل معه طوال الليل والنهار، ناظرًا إلى وجهها الجميل المبتسم، ولكنه تحاشى النظر إليها وغض من بصره حتى لا تبدو منه أية بادرة يساء فهمها. قام واتجه نحو باب الغرفة وهو مطرق للأرض، فأسرعت الفتاة، وفتحت له باب المنزل، ووقفت منحنية له حتى خرج، ثم أسرعت إلى الحديقة، وسارت معه حتى الباب الخارجي، وفجأة التفت إلى الفتاة، وقال:

- لماذا نفذ مالك المدينة حكم الإعدام في شاعر صغير السن؟

فابتسمت الفتاة وقالت:

- لقد سألت صاحب المنزل هذا السؤال نفسه.

- وماذا كانت إجابته؟

- قال لي إن مالك المدينة لم يضع في رأسي من العقل ما يسمح لي بفهم مثل هذه الأسرار وقال: إنني لكي أستطيع فهم مثل هذه الأشياء، ينبغي أن يكون حجم رأسي عشرة أمثال حجم المدينة بأسرها.

ضحكت الفتاة وقالت:

- وهذا غير ممكن بطبيعة الحال، أنا أفضل أن يبقى رأسي بهذا الحجم الذي تراه.

ثم فتحت الباب الخارجي، فخرج منه «ميم»، وابتسمت له، وأغلقت الباب خلفه.

10

عندما خرج «ميم» من منزل ذلك الرجل، كان النهار قد انقضى، وأقبل المساء، والشارع يسبح في الأضواء المتعددة الألوان، وصورة الفتاة الجميلة التي استقبلته وودعته، لا تفارق خياله بوجهها الجميل وعينيها المبتسمتين. تمنى لو تبادل الحديث وأي إنسان يصادفه، وتذكر شيئًا عجيبًا، كان ضوء النهار يضيء المنزل الذي خرج لتوه منه فتعجب، كيف يسود الظلام جميع أنحاء المدينة، على حين يبقى ضوء النهار في منزل ذلك الرجل المجهول؟ كل يوم يتكشف له في المدينة شيء عجيب، ويرى شيئًا لم يكن قد رآه من قبل! ترى هل يتغير الشارع ويتبدل؟ إنه لم يسبق له مثلًا أن رأى ذلك المبنى الأزرق، الذي تغمره الأضواء الساطعة، ولم ير من قبل هذه اللافتة المضاءة باللون الأحمر عند مدخل هذا المبنى، والمكتوب عليها هذه الجملة «كل من يشكو الوحدة يدخل هذا المكان». ووجد طابورًا طويلًا من الرجال والشباب يقف في انتظار دوره أمام شباك التذاكر، بالقرب من مدخل هذا المبنى، خفق قلبه فرحًا عندما رأى هذه اللافتة، وأسرع بالوقوف في الطابور. كان كل من يأتي دوره ليقف أمام شباك التذاكر يدفع بعض النقود، ويتناول تذكرة ويدخل من الباب ويتوارى داخل المبنى. ظل «ميم» يتقدم في

الطابور حتى وجد نفسه أمام شباك التذاكر، الجالس خلفه رجل يرتدي روبًا يشبه ذلك الروب، الذي كان يرتديه الواعظ، فسأله «ميم»:

- كم ثمن التذكرة؟

فأجاب الرجل:

- لا ثمن محدد للتذكرة، الكل يدفع على قدر استطاعته.

فوضع «ميم» أمام الرجل ثلاثة قروش وتناول تذكرة ودخل المبنى، وما كاد يخطو بضع خطوات حتى وجد أمامه دهليزًا ضيقًا طويلًا حسن الإضاءة، محلاة جدرانه بصور فتيات جميلات، يفوح منه عبير زكي الرائحة فشعر بالسعادة لأول مرة منذ قدومه إلى هذه المدينة، ووجد نفسه يكاد يعدو نشوة. وعند نهاية الدهليز وجد بابًا تعلوه لافتة مضاءة تحمل هذه الجملة «من سئم السعادة وراحة البال، ويرغب في تجربة الحزن والقلق فليدخل من هذا الباب!».

وقف «ميم» أمام هذا الباب متعجبًا. من ذا الذي يسأم السعادة وراحة البال ويرغب في الحزن والقلق؟ وكيف توضع عند الباب الخارجي لافتة، تدعو إلى دخول من يشكو الوحدة، ثم يفاجأ الآن بلافتة تنذر من يدخل بالحزن والقلق؟ والأعجب من ذلك أن الناس يتزاحمون للدخول من هذا الباب الأخير! التصق «ميم» بالجدار مفسحًا الطريق للداخلين من هذا الباب، وأخذ يبحث عله يجد بابًا آخر يحمل لافتة أخرى، ولكنه لم يجد سوى هذا الباب. فأسرع بالرجوع ليهرب من هذا المبنى إلى

عرض الطريق، فهو لم يسأم السعادة؛ لأنه لم يعرفها ولا يرغب في تجربة الحزن والقلق، فهو غارق في الحزن ويستبد به القلق، ولا يرغب في المزيد. ولكن في أثناء رجوعه، اعترضت طريقه امرأة مفرطة البدانة عابسة الوجه قاسية الملامح، تحمل في يدها عصا غليظة، وسألته: لماذا عدل عن الدخول، فقال لها:

- دخلت من الباب الخارجي؛ لأنني أشكو من الوحدة، ولكنني لا أرغب في مزيد من الحزن والقلق.

فقالت له، وقد رفعت العصا في وجهه:

- من يدخل هذا المكان لا يخرج منه بهذه السهولة! لا بد أن تستمر حتى نهاية الطريق، وأنت ممنوع من الخروج مادمت قطعت التذكرة ودخلت بمحض إرادتك، لم يضربك أحد على يدك لكي تدخل.

فصاح «ميم» غاضبًا:

- لقد خُدعت. دعتني اللافتة الخارجية للدخول تخلصًا من الوحدة، وفوجئت بهذه اللافتة التي تدعوني للحزن والألم! لن أدخل من هذا الباب بإرادتي.

قالت له المرأة، وقد كشرت عن أنيابها كنمرة مفترسة:

- إذا لم تدخل بإرادتك فستدخل بإرادتي أنا! لماذا تريد أن تشذ عن جميع الناس؟ ألا ترى الجميع يتزاحمون للدخول من هذا الباب؟ لماذا لا تدخل مثلهم؟

وقالت آمرة في غضب:

- هيا ادخل وإلا حطمت رأسك وأذقتك من العذاب مالا يخطر لك على بال!

ودفعته دفعة قوية، فإذا به يجد نفسه في قاعة فسيحة مزينة بالأضواء والورق الملون، مؤثثة بأفخر الأثاث، تتصدرها فرقة موسيقية تعزف ألحانًا صاخبة، وتموج بالشبان والرجال والفتيات رائعات الجمال بعضهن جالسات، والبعض واقفات يتبادلن الحديث مع الشبانُ والرجال والبعض يرقصن بمفردهن أو بصحبة أحد الشبان أو الرجال، والجميع في مرح وسعادة.

فتعجب «ميم» وقال لنفسه:

- إذا كان هذا هو الحزن والقلق، فلْيحيا إذن الحزن والقلق! إنني ما شعرت بالسعادة كما أشعر بها الآن!

وبينما يدير بصره في أنحاء المكان في شبه ذهول، رأى مفاجأة جعلته يزداد ذهولًا: رأى الفتاة الجميلة التي استقبلته عند دخوله وشيعته، عند خروجه من منزل الرجل المجهول، جالسة مرتدية ثوبًا طويلًا ناصع البياض، وعلى رأسها تاج من الأزهار، وقد وضعت ساقًا فوق ساق تنظر إليه مبتسمة بوجهها الجميل الذي تمنى منذ دقائق أن يظل ناظرًا إليه إلى الأبد، حياها مبتسمًا والفرحة تملأ قلبه، فأسرعت بالقيام واندفعت نحوه وتأبطت ذراعه، وبدأت الفرقة الموسيقية تعزف لهما لحنًا جميلًا،

واصطف على الجانبين عدد من الشبان والفتيات، وسار «ميم» بصحبة الفتاة بين المصطفين، والموسيقى تواصل عزفها.

تعجب «ميم»، وقال محدثًا نفسه: «ماذا يحدث في هذا المكان؟ أنا لا أرى أي أثر للحزن أو القلق! لا شيء سوى المرح والسعادة». ومالت الفتاة عليه وقالت:

- أشكرك من كل قلبي، لأنك اخترتني زوجة لك من بين جميع الفتيات.

فنظر إليها «ميم» مشدوهًا، وقال:

- اخترتك زوجة؟

فقالت:

- نعم، من تقاليد هذا المكان أن الرجل إذا ابتسم لفتاة، فمعنى هذا أنه اختارها زوجة له. أشكرك من كل قلبي يا زوجي العزيز.

فارتبك «ميم» ولم يدر ماذا يفعل؟ وأدار بصره في أنحاء المكان، وكأنه يبحث عن مخرج من هذا المأزق، فرأى شبانًا ورجالًا وقد تأبط كل منهم ذراع فتاة جميلة، والموسيقى تعزف لهم كما عزفت له، ويسيرون بين صفين من الفتيات والشبان، والتفت إلى الفتاة التي أصبحت عروسة، وقال:

- ولكني لم أهيئ نفسي للزواج.

فقالت الفتاة:

- كل ما يلزم الزواج توفر الرغبة الجنسية، وأنا تجتاحني هذه الرغبة، فهل تشعر بها مثلي؟

قال «ميم» في حماس:

- أشعر بها شعورًا قويًّا.

- هـذا كل مـا يلـزم الـزواج، ولـو كنـت تركت نفسـك نهبًـا للتفكير والتدبيـر، لظللت تفكـر إلى آخر رمق فـي حياتـك، دون أن تتخذ قرارًا، هيا نرقص.

فقال «ميم»، وقد أحمر وجهه خجلًا:

- أنا لا أعرف الرقص.

فضحكت الفتاة، وقالت:

- عندما تبدأ الرقص، ستجد نفسك تعرف كل شيء!

كانت الموسـيقى تعزف فالسًـا، وتحول المكان إلى حلبة رقص، كل (عريس) يرقص مع عروسـه، ولـم يعد في القاعة شـخص بمفرده، وساد المـرح، واختلطت الضحكات بأنغام الموسـيقى. تعجب «ميم» وسـأل نفسه، لماذا كل هذا المرح وكل هذه السعادة، وهم يعلمون أن كل من في المدينة محكوم عليه بالإعدام؟ هل نسـوا أو تناسوا تلك الحقيقة الرهيبة البشـعة التي تقشـعر منهـا الأبدان؟ إننـا جميعًا سـيُلقى بنا فـي البالوعة، لا يـدري أحـد متى ينفـذ فيه حكـم الإعدام. قـد يكون في هـذه اللحظة

وقد يكون بعد لحظات أو أيام أو شهور أو أعوام، ولكننا محكوم علينا بالإعدام، فلماذا كل هذا المرح؟

لاحظ «ميم» أنه يرقص في رشاقة مع عروسه فتعجب لذلك أيضًا؛ إذ لم تكن لديه أية فكرة عن حركات الرقص. وعلى الرغم من تلك الأفكار السوداء التي كانت تدور في رأسه، أحس بنشوة وابتهاج، وهو واضع يده حول خصر فتاته ناظرًا إلى عينيها المبتسمتين. عندما توقفت الموسيقى، تأبط كل (عريس) ذراع عروسه، واتجه الجميع نحو الباب الخارجي، وقال «ميم» لعروسه:

- هل انتهت الآن جميع إجراءات الزواج؟

قالت الفتاة:

- عندما عزفت لنا الموسيقى واصطف لنا الناس على الجانبين، كانت إجراءات الزواج قد تمت. لم يبق سوى شيء واحد، قسيمة الزواج، سنأخذها من شباك التذاكر، عندما نخرج من هنا.

أطرق «ميم» مفكرًا، ثم قال:

- ولكن كيف نصبح زوجين، وأنا حتى هذه اللحظة لا أعرف اسمك ولا تعرفين اسمي؟

فضحكت الفتاة ضحكة رنَّت في أذني «ميم»، وكأنها موسيقى عذبة، وقالت:

- وعلام يدل الاسم؟ ألم تبتسم لي وأبتسم لك، دون أن تسأل عن اسمي أو أسألك عن اسمك؟ ومع ذلك فأنا أعرف اسمك، أليس اسمك (ميم نون)؟

فقال «ميم» مندهشًا:

- بلى، ولكن كيف عرفت اسمي؟

- ألم استقبلك عند باب المنزل منذ لحظات؟ أنا أعرف اسم كل من يأتي لزيارة هذا المنزل.

- وما اسمك أنت؟

- اسمي «جيم».

كانا قد وصلا إلى شباك التذاكر، فتسلم «ميم» قسيمة الزواج من الرجل الجالس خلف الشباك. طبقها بعناية ووضعها في الجيب الداخلي لسترته، وسارا معًا في الطريق، وبعد بضع خطوات، قال «ميم» لعروسه:

- لست أدري أين نذهب الآن؟

فنظرت إليه (جيم) في دهشة، وقالت:

- أليس لك بيت تعيش فيه؟

فقال «ميم»، وقد احمر وجهه خجلًا:

- لي بيت، ولكن ليس به سوى كرسي واحد، وسرير ضيق لا يتسع لاثنين.

فضحكت (جيم)، وقالت:

- هيا إلى المنزل لا تضيع الوقت في مثل هذه الهواجس. المهم أن يضمنا عش واحد كعش العصافير!

فضحك «ميم»، وقال:

- كنت على وشك الجنون من الوحدة، هل تتصورين أنني بعد دخولي من الباب الخارجي للمبنى، حاولت الرجوع والهرب من ذلك المكان؟ لم أكن أدري أن كل هذه السعادة في انتظاري.

فنظرت إليه عروسه، وقد اتسعت عيناها الجميلتان دهشة، وقالت:

- تهرب من المكان؟! لماذا؟!

- قرأت لافتة على باب القاعة تحمل جملة غريبة، لست أدري لماذا وضعت في هذا المكان.

- وما هذه الجملة الغريبة؟

- قرأت هذه الجملة: «من سئم السعادة ويرغب في تجربة الحزن والقلق، فليدخل من هذا الباب»!. وأنا بطبيعة الحال لا أرغب في مزيد من الحزن والقلق، فلقد كنت غارقًا فيه حتى أذنيّ!

فقالت الفتاة مندهشة:

- ولماذا أنت غارق في الحزن والقلق؟

فقال «ميم»، وقد لمعت الدموع في عينيه:

- يكفي دوراني في الطاحونة، والسياط تهوي على جسدي.

ضحكت الفتاة حتى أغرورقت عيناها بالدموع، فقال لها «ميم» متعجبًا:

- علام تضحكين؟ هل العذاب الذي أصطلى بناره في الطاحونة يدعو للضحك؟ هل تسخرين من عذابي؟ حتى الأطفال كانوا يضحكون ويسخرون مني، وأنا أدور في الطاحونة، والدم يتفجّر من ظهري بسبب السياط التي تلهبه. لماذا يسخر الناس في هذه المدينة من عذاب المساكين؟

فأطرقت (جيم) إلى الأرض ولاذت بالصمت، ولو أن الابتسامة كانت لا تزال على شفتيها.

أدار «ميم» مفتاح منزله، وهو لا يكاد يصدق أنه سيجتمع تحت سقف واحد وهذه الفتاة الرائعة الجمال، ودخلا معًا البهو، ولكن ما هذا؟ كان البهو يغمره ضوء بنفسجي ومزيّن بأوراق زاهية الألوان تمتد بين الجدران، ووجد كرسيًّا جديدًا، فأصبح في البهو كرسيان بدلًا من الكرسي اليتيم. جلس على أحد الكرسيين، وجلست عروسه على الكرسي الآخر مطرقة للأرض، ثم رفعت رأسها ونظرت إلى «ميم» وقالت وعلى شفتيها ابتسامة ماكرة:

- أخبرتني أن بالمنزل كرسيًّا واحدًا، ولكنني أرى كرسيين.

فقال «ميم» مرتبكًا:

- لم يكن بالمنزل سوى كرسي واحد طوال هذه المدة، لم أر الكرسي الآخر إلا في هذه اللحظة.

فأطرقت العروس إلى الأرض من جديد، على حين بدأت الأفكار تدور في رأس «ميم»:

أشعر الآن بسعادة لم أشعر بها من قبل. ما أجمل أن يعيش الإنسان مع فتاة جميلة تؤنس وحدته! ولكنني لا أدري كيف تسير الأمور. كنت أجد مشقة في الحصول على ضروريات الحياة وأنا بمفردي، وعليّ الآن أن أجد ما يضمن الحياة لاثنين. هل تكفي العشرون قرشًا التي أحصل عليها من الدوران في الطاحونة؛ لتغطية نفقاتي ونفقات هذه الفتاة، التي أصبحت زوجتي؟ كيف أوفر لها السعادة التي هي جديرة بها؟

وانتزعه من تلك الأفكار غير المريحة صوت عروسه قائلة، وهي لا تزال مطرقة للأرض:

- أليس بهذا المنزل غرفة نوم؟

فقال «ميم» مبتسمًا ابتسامة عريضة:

- توجد غرفة نوم، ولكن كما ذكرت لك ليس بها سوى سرير ضيق.

فمالت عليه وقبلته، وقالت:

- لا يهم اتساع السرير، هيا معي نراها.

صعدا معًا السـلم ودخلا غرفة النوم، فوجد «ميم» شـيئًا عجيبًا. وجد السـرير الضيق، قد اسـتبدل به سريرٌ عريض يتسـع لاثنين، ويغمر الغرفة ضوء وردي اللون، فقالت جيم:

- إنه سرير عريض.

فقال «ميم»:

- لست أدري ماذا حدث؟ كان ضيقًا عندما تركته هذا الصباح.

فضحكت العروس، وقالت:

- أعلمت إذن أن كل ما كنت تخشـاه لم يكن سـوى أوهام لا أسـاس لها؟

- ولكن كيف حدث ذلك؟

- المسألة في غاية البساطة، أنت تعلم أن الرجل الذي كنت أعمل في منزله وثيق الصلة بمالك المدينة، لقد طلب من مالك المدينة الإذن بهذا التغيير، فأمر خادمك بعمل اللازم.

- وأين ذهب هذا الخادم؟

- ذهـب إلى منزله، هل كنت تريد منه البقاء معنا في هذه الليلة، ليقيّد حريتنا ويشوه جمال وحدتنا؟

ثم ألقت بنفسـها عليـه وطوقته بذراعيها، وقبلته فـي فمه قبلة طويلة، فشعر بخدر لذيذ يسري في جسده واحتضنها بقوة وعصر جسدها، وأخذ

يغمرها بالقبلات. شعرت بقواها تخور، فجلست على حافة السرير وهمست قائلة:

- اطفئ النور.

فامتدت يد «ميم» في سرعة خاطفة وأطفأ النور، وأسرع بخلع ملابسه وناما على السرير متجاورين.

عندما بدأ ضوء النهار ينفذ من خلال شيش النافذة استيقظ «ميم»، ونظر فلم يجد عروسه بجواره. أدار بصره في أنحاء المكان باحثًا عنها فوجدها جالسة على أرض الغرفة، وقد استندت بظهرها على الجدار، واحتضنت التليفون، وسمعها تهمس في السماعة بكلام لم تستطع أذنه التقاطه، فتعجب لهذا المشهد، ترى من الذي تتحدث معه في هذا الصباح الباكر؟ فتظاهر بالنوم وحاول الإنصات لحديثها. كانت تتحدث بصوت منخفض لا تتيح له سماعه، ولكنه سمعها بعد ذلك تشهق بالبكاء، فازداد تعجبه، ما الذي يجعل عروسًا تبكي بعد قضاء ليلة واحدة مع (عريسها). لقد كانت في قمة السعادة منذ رآها في القاعة حتى آخر لحظة من لحظات الليل عندما غلبهما النوم، فناما بعد سهر طويل حافل بكل ألوان الحب والنشوة. ثم شعر بها تضع سماعة التليفون، وتضع التليفون في موضعه بمنتهى الحذر وتنام بجواره كما كانت. لم ينم بعد ذلك، ولكنه ظل متظاهرًا بالاستغراق في النوم، سمعها تبكي بكاء مكتومًا، ثم كفّت عن البكاء وسحبت الغطاء عليها.

لم يستطع التظاهر بالنوم بعد بذلك، فقام واستند بظهره على السرير. عندما أحست العروس بهذه الحركة، انتفضت وأسرعت بالجلوس ونظرت إليه وعلى شفتيها ابتسامة عذبة، وانحنت عليه وقبلته في خده، وقالت بصوت ينم عن السعادة والعاطفة الجياشة:

- صباح الخير يا حبيبي. لماذا استيقظت في هذه الساعة المبكرة؟ أنت لم تأخذ كفايتك من النوم.

فقال لها:

- ولماذا استيقظت أنت؟ لماذا لم تأخذي كفايتك من النوم؟

- لا حق لي في النوم وأنت سهران، لقد صحوت في هذه اللحظة، عندما شعرت بك تنهض من الفراش.

فأطرق «ميم» إلى الأرض، وظل مترددًا بضع لحظات إلى أن قال:

- سمعتك تتحدثين في التليفون. مع من كنت تتحدثين؟

فشهقت شهقة قوية، خشى «ميم» أن تحطم رئتيها، وقالت وقد اتسعت عيناها:

- أنا كنت أتحدث في التليفون؟! سلامتك يا حبيبي، لا بد أنك كنت تحلم. أنا لم أغادر مكاني بجوارك منذ نمنا معًا! من واجب الزوجة أن تظل بجوار زوجها، لا تنام إلا عندما ينام ولا تصحو إلا عندما يصحو!

فقال «ميم» في غضب:

- أنا لم أكن أحلم! لقد رأيتك جالسة في ركن الغرفة محتضنة التليفون تتحدثين في همس، ثم سمعتك تبكين، ما معنى هذا؟ أنا زوجك ومن حقي أن أعلم كل شيء.

فرفعت ركبتيها وأحاطتهما بذراعيها ودفنت رأسها في حجرها، وانفجرت تبكي وجسدها يهتز اهتزازًا عنيفًا، ثم قالت:

- هل تكذبني؟ هل أنا كاذبة؟ هل أنا خائنة؟

حاول تهدئتها، فأحاط خصرها بيده، وقبلها وقال:

- هل كنت تتحدثين مع أحد أفراد أسرتك؟

فقالت العروس وهي لا تزال تهشق بالبكاء.

- لم تعد لي عائلة، لقد نفذ حكم الإعدام في جميع أفراد أسرتي، ولهذا السبب عطف عليّ ذلك الرجل الطيب، وأواني في منزله كسكرتيرة وخادم.

- هل كنت تتحدثين مع هذا الرجل؟

فعادت تجهش بالبكاء وقالت:

- أنت لا تريد أن تصدقني. مازلت تكذبني. لست كاذبة. أنا لم أتكلم مع أحد.

فرأى «ميم» أنه لا فائدة من الاستمرار في هذا الحوار، مادام لن يصل لأية نتيجة، فربت على ظهرها وقبلها وقال:

- لا تغضبي مني، أرجو أن تنسي هذا الموضوع.

فقفزت من السرير وقد تهلل وجهها بالفرح كطفلة صغيرة، واحتضنته وأخذت تقبله وتقول:

- أنت حبيبي! أنت حياتي! لا حياة لي بدونك! ليس لي سواك!

نهض «ميم» من السرير، وأخذ يرتدي ملابسه، فقالت له:

- إلى أين أنت ذاهب يا حبيبي؟

- سنذهب معًا إلى المطعم أولًا لتناول الإفطار، ثم أذهب لأدور في الطاحونة. ظهري لا يزال يؤلمني، ولست أدري كيف أحتمل لسع السياط وجراحي لم تندمل بعد؟

لاحظ «ميم» أن عروسه تبذل مجهودًا كبيرًا لكيلا تضحك، وقالت:

- لا تشكُ، لا ينبغي للرجل أن يشكو، الرجل الذي يشكو لا يصلح للحياة في هذه المدينة.

- منذ وجدت نفسي في هذه المدينة، وأنا أشكو وأتعذب.

فاحتضنته وقبلته في جبهته، وقالت:

- العذاب وقود العبقرية يا حبيبي، لقد قرأت هذا في أحد الكتب، هل تيقنت الآن أنني مثقفة؟

- وما شأني أنا بالعبقرية؟ لست عبقريًّا، أنا مسكين أدور في الطاحونة لأحصل على قوت يومي، ولا يترك لي هذا لحظة واحدة للتفكير، فهل الدوران في الطاحونة يحتاج لأية عبقرية؟

لم تستطع العروس السيطرة على نفسها، فانفجرت تضحك حتى شعرت بدوار من كثرة الضحك، فجلست على حافة السرير، ووقف «ميم» ينظر إليها مندهشًا. لماذا تضحك؟ ما الذي يضحكها كلما جاء ذكر الطاحونة؟ لماذا يسخر الجميع من آلامه؟ لقد صمم منذ هذه اللحظة على ألّا يبوح لأحد بالآمه وأحزانه، صمم على أن يتعذب في صمت. كان فيما مضى لا يتحدث عن آلامه؛ لأنه لم يكن يجد من يتحدث معه، ولكن الأقسى من ذلك أن يعيش المرء مع إنسان، ويفرض على نفسه الصمت، فلا يشكو له كلما أحس برغبة في الشكوى، ما أقسى ألا يجد الإنسان أذنًا تصغي لشكواه! حتى مالك المدينة لم يستجب لشكواه، عندما شكا إليه قسوة الحياة في هذه المدينة، والتمس منه السماح له بالانتقال إلى مكان آخر. كانت هذه الأفكار تدور في رأس «ميم»، ثم التفت إلى عروسه، وقال:

- هل رأيت مالك المدينة؟

نظرت إليه في دهشة، وقالت:

- أنا أرى مالك المدينة؟ من أنا حتى أرى مالك المدينة؟ ليس في هذه المدينة من يجرؤ على الادعاء بأنه رآه، ما عدا أفرادًا قلائل جدًّا، الرجل الذي كنت أعمل عنده واحد منهم.

- هل أخبرك هذا الرجل أنه رأى مالك المدينة؟

- لم يقل ذلك، ولكنني أعلم أنه كان يقضي مع مالك المدينة سهرات طويلة في عديد من الليالي.

- وهل اعتاد مالك المدينة الحضور لزيارة هذا الرجل؟

فقالت في دهشة:

- مالك المدينة يحضر لزيارته؟ مستحيل. مالك المدينة لا يزور أحدًا!

فأطرق «ميم» للأرض مفكرًا ثم رفع رأسه، وقال:

- هل حقيقة ما سمعته من أننا دمى، صنعها مالك المدينة ليلهو بنا ويسلِّي نفسه، ثم يحطمنا ويصنع غيرنا؟

ردت قائلة:

- إن «كوننا» دمى صنعها مالك المدينة، فهذه حقيقة لا شك فيها، أما كونه صنعنا ليلهو بنا ويتسلى فهذا ما لا أعلمه.

ثم اقتربت منه وقالت له في همس، وكأنها تبوح له بسر لا يعلمه:

- جميع من في المدينة محكوم عليهم بالإعدام، كلنا محكوم علينا بالإعدام. هل تعلم ذلك؟

- نعم، أعلم ذلك، وهذا من أسباب حزني وشقائي.

فقالت في دهشة:

- ولماذا تحزن؟

ثم اقتربت منه مرة أخرى، وأخذت تهمس في أذنه قائلة:

- لقد أطلعني الرجل الذي كنت أعمل عنده على سر غريب.

فقال «ميم» في لهفة:

- ما هو السر؟

- أخبرني أن كل من ينفذ فيه حكم الإعدام ويلقى به في البالوعة، يعود للحياة من جديد!

- يعود للحياة من جديد؟ وما فائدة الحياة داخل بالوعة؟ هل تصدقين ذلك؟

- لا يمكنني بطبيعة الحال أن أجزم بشيء كهذا إلا إذا رأيته أو جربته بنفسي، ولكن الرجل الذي أخبرني بذلك لا يكذب مطلقًا، وهو مطلع على عديد من أسرار مالك المدينة.

ثم قامت وأخذت تدور في أنحاء الغرفة، وكأنها ترقص، ونظرت إلى «ميم» بطرف عينها، وقالت:

- ويقول أيضًا... ويقول أيضًا...

فقال «ميم» بصبر نافد:

- ماذا يقول؟

- يقول: إن في أسفل البالوعة محطة قطار، وهذا القطار يحمل الذين نفذ فيهم حكم الإعدام إلى مكان بعيد مجهول، بعد أن تدب فيهم الحياة من جديد، وهذا المكان قد يكون أجمل وأروع من هذه المدينة، وقد يكون أسوأ منها، كل إنسان يراه بصورة مختلفة.

فأطرق «ميم» للأرض مفكرًا، ثم قال:

- أنا سمعت صوت القطار. سمعته ينبعث من البالوعة عندما فتحت.

فقفزت (جيم) في فرح وكأنها طفلة صغيرة، ودارت في الغرفة عدة دورات قائلة:

- أنت سمعت صوت القطار؟ أنت الوحيد الذي سمع صوت القطار! هذا دليل على أن ما قاله لي الرجل صحيح. ألم أخبرك أنه لا يكذب أبدًا أبدًا، ولكن هذا دليل على شيء آخر...

فقال «ميم» في لهفة:

- دليل على ماذا؟

فجلست (جيم) على حافة السرير، وأخذت تحدق في عيني «ميم»، وقد غابت ابتسامتها ثم قالت:

- يدل على أنك تختلف عن جميعِ أهل المدينة، لم يسمع صوت القطار سواك!

في هذه اللحظة شعر «ميم» بجوع شديد، فقال باقتضاب:

- هيا نسرع بالذهاب إلى المطعم، فلقد شعرت بالجوع و...

وكان على وشك أن يقول «واقترب موعد دوراني في الطاحونة»، ولكنه لم يقلها وصمم على ألا يذكر لعروسه كلمة «الطاحونة» مطلقًا، مادام ذكرها يثير فيها عاصفة من الضحك!

11

في المطعم الرخيص الذي تناول فيه «ميم» طعامه آخر مرة، جلس الاثنان متقابلين حول منضدة صغيرة، وبعد برهة قصيرة أقبلت فتاة المطعم، وفي يدها لافتة متوسطة الحجم تحمل هذه الجملة «زوجان جديدان» وضعتها على المنضدة، وتعجب «ميم»، كيف عرفت أنهما زوجان جديدان؟ وقفت الفتاة بجوارهما وفي يديها نوتة صغيرة وقلم وقالت:

- ماذا يطلب العروسان؟

فوضع «ميم» يده في أحد جيوبه، وتحسس عدد النقود التي معه وقال:

- طعامًا لنا نحن الاثنين في حدود عشرة قروش.

فابتسمت فتاة المطعم، وقالت:

- طعام لاثنين في حدود عشرة قروش؟! لقد ارتفعت أسعار الطعام. أقل طعام لاثنين أصبح بستة وعشرين قرشًا.

فارتبك «ميم» واحمر وجهه خجلًا، وقال:

- ولكن كل ما معي من النقود لا يزيد على سبعة عشر قرشًا.

فقالت العروس موجهة كلامها لـ«ميم»:

- نحضر طعامًا لفرد واحد، ونقتسمه نحن الاثنين.

فابتسمت فتاة المطعم، وقالت:

- هذا ممنوع بكل أسف، ممنوع اقتسام الطعام.

أطرق «ميم» إلى الأرض خجلًا، وشعر بأنه لا يقوى على النظر إلى عروسه، وقال وكأنه يحدث نفسه:

- وما العمل الآن؟

قالت فتاة المطعم:

- الطاحونة قريبة، يمكنك الإسراع إليها والدوران فيها لتحصل على تسعة قروش أخرى، وتنتظرك عروسك هنا حتى تحضر.

فقال «ميم»، وهو يكاد يذوب خجلًا:

- هل في المدينة مطعم آخر، نستطيع تناول إفطارنا فيه بعشرة قروش؟

قالت فتاة المطعم مبتسمة:

- لا أظن ذلك، فهذا أرخص مطعم في المدينة.

وابتعدت عنهما فتاة المطعم تاركة «ميم» مطرقًا للأرض وقد ظللت وجهه سحابة من الاكتئاب والخجل، ثم عادت الفتاة وفي يدها لافتة

أخرى صغيرة وضعتها أمام «ميم»، وقرأ فيها هذه الجملة «من يتزوج ينبغي أن يكون قادرًا على الإنفاق على زوجه!» فانتفض «ميم» واقفًا وقال لعروسه:

- سأذهب إلى الطاحونة، وسأدور لأحصل على عشرة قروش أخرى. انتظريني حتى أعود.

ولم ينتظر حتى يسمع إجابتها، بل اندفع خارجًا من المطعم، وحانت منه التفاتة، فوجد عروسه تضحك من أعماق قلبها وفتاة المطعم تشاركها في الضحك. سار «ميم» يعدو نحو الطاحونة، وقد تصبب عرقه، وجرى خلفه ثلاثة أطفال، يصيحون مردّدين هذه الجملة في لحن جميل:

- يا مسكين يا مسكين.. اجر ودر في الطواحين!

وكلما سار عدة أمتار يتجمع خلفه عدد أكبر من الأطفال، مرددين معًا الجملة نفسها، حتى وصل إلى الطاحونة في زفة من الأطفال وقفوا جميعًا عند باب الطاحونة يرددون هذه الكلمات، وأخذ صوتهم يعلو حتى أصبح كهدير الرعد! كان باب الطاحونة مغلقًا، فضغط «ميم» على زر الجرس وهو يلهث، ولكن الباب لم يفتح، فأخذ يطرق الباب بشدة بقبضة يده، وتسابق الأطفال نحو الباب يدقونه بأيديهم، ويصيحون مرددين هذه الجملة في لحن غنائي:

- العجْل وصل ياليمونة.. افتح له باب الطاحونة..

وفُتح باب الطاحونة، وأطل منه الرجل البدين، وهو يفرك عينيه المنتفختين، واندفع «ميم» داخل الطاحونة، فقال له الرجل:

- لقد حضرت قبل موعدك.

فقال «ميم» وهو لا يزال يلهث، وصراخ الأطفال خارج الطاحونة يشق عنان السماء:

- سأدور عدة دورات إضافية؛ لأنني في حاجة ماسة إلى عشرة قروش لتناول الإفطار مع عروسي، الجالسة في المطعم في انتظاري.

فإبتسم حارس الطاحونة ابتسامة خبيثة وقال:

- هل تزوجت؟

فقال «ميم»، وهو لا يزال يلهث ويتصبب عرقه:

- نعم، تزوجت ليلة أمس.

فقال الرجل والابتسامة الخبيثة مازالت على فمه:

- مبروك.

بدأ «ميم» يدور في الطاحونة. وتركه الرجل، وأسرع نحو الباب، وصاح موجهًا حديثه للأطفال المجتمعين في شبه مظاهرة عند باب الطاحونة:

- من الآن، فصاعدًا لن أسمح بالفرجة مجانًا على هذا الرجل. من يرد الفرجة فليدفع عشرة قروش.

فأسرع الأطفال بتسليم النقود للرجل حتى امتلأت يداه بالمال، ووضع كوم النقود على المنضدة، وفتح باب الطاحونة على مصراعيه؛ ليتيح

للأطفال الفرجة بوضوح، وأمسك بالسوط، وأخذ يهوي به على جسد «ميم» والأطفال تهلل وتقفز فرحًا.

أنهى «ميم» فترة الدورة الإضافية هذه عندما بدأ يشعر بالدوار، ومد صاحب الطاحونة يده إلى كوم النقود الذي جمعه من الأطفال، فأخذ منه عشرة قروش، وأعطاها «ميم» قائلًا:

- هذا أجرك على هذه الدورات الإضافية، وأنا في انتظارك لتدور دورات اليوم الأصلية، وفرقع السوط عدة فرقعات في الهواء، وأطل من باب الطاحونة، فطرد الأطفال المجتمعين قائلًا:

- هيا اذهبوا إلى بيوتكم، لقد انتهى العرض. العرض القادم يبدأ بعد ساعة عندما يعود هذا البطل!

وأشار نحو «ميم» وضحك ضحكات مجلجلة وكأنها قعقعة الرعد! ولكن الأطفال لم ينصرفوا. خرج «ميم» مهرولًا نحو المطعم، وانطلق الأطفال خلفه يهللون ويصرخون، مرددين مثل هذه العبارات:

- دوخيني يا ليمونة.. تعيش وتدور في الطاحونة...

وحاول «ميم» أن يزجرهم ليبتعدوا عنه، ولكنهم لم يزدجروا، وكما وصل إلى الطاحونة في زقّة، عاد إلى المطعم بالزقّة نفسها. وارتفعت ضجة الأطفال، فقام بعض رواد المطعم لاستطلاع الأمر، ونظر «ميم» فوجد عروسه مازالت جالسة في انتظاره في المكان نفسه، وما إن رأته حتى صاحت في فرح:

- هـل حضرت يا حبيبي؟ لقد قلقت من أجلك وخفت ألّا تعود. هل أحضرت النقود؟

فقال «ميم»، وهو لا يزال يلهث والجراح تلهب ظهره:

- نعم، حصلت على عشرة قروش.

فصفقت عروسه فرحًا، وأقبلت فتاة المطعم، فقالت لها العروس:

- زوجي أحضر عشـرة قروش، هيا أحضري لنـا الطعام، نريد طعامًا لاثنين بستة وعشرين قرشًا.

ظلت فتاة المطعم واقفة تنظر إليها مبتسمة، فصاح «ميم» في غضب:

- لماذا لا تتحركين. هيا احضري الطعام، سـنموت جوعًا، وأوشـك أن يحل موعد دوراني في الطاحونة.

فضحكـت فتـاة المطعم وظلت تضحـك حتى خيل لـ«ميـم» أنها لن تكـف عن الضحك، وبدت العـروس وكأنها تقاوم الضحك، ثم ضعفت مقاومتها، فانفجرت تضحك هي الأخرى، فنظر إليهما «ميم» في غضب، وقد اغرورقت عيناه بالدموع، وقال:

- علام تضحكان؟

فقالت فتاة المطعم، بعد أن تمكنت من السيطرة على نفسها:

- أليس معك غير هذه القروش الستة والعشرين؟

فقال «ميم»، والغضب لا يزال يطل من عينيه:

- إنه المبلغ اللازم لطعام اثنين، أليس كذلك؟

فقالت الفتاة مبتسمة:

- كان هذا منذ ساعة، قبل مغادرتك المطعم، ولكن الأسعار في ارتفاع مستمر، وفي فترة غيابك ارتفعت الأسعار، وأصبح الحد الأدنى لإفطار شخصين ثلاثين قرشًا!

فشعر «ميم» بدوار وركن برأسه على حافة المنضدة، وساد الصمت، وعندما تملك نفسه ورفع رأسه، وجد عروسه مطرقة للأرض في حزن، وفتاة المطعم لا تزال واقفة تبتسم، فقال بصوت هادئ ضعيف يغلفه اليأس:

- ما معنى هذا؟

فقالت فتاة المطعم، والابتسامة لا تزال على شفتيها:

- معنى هذا أنه ينبغي عليك أن تسرع إلى الطاحونة، وتدور بضع دورات أخرى لتحضر باقي المبلغ.

فانتفض «ميم» واقفًا واندفع خارج باب المطعم، وانطلق يعدو نحو الطاحونة بكل ما بقي في جسده من قوة. وتجمع الأطفال خلفه من جديد يضحكون ويرددون الهتافات نفسها، وخيل إليه أن المسافة بين المطعم والطاحونة في هذه المرة قد أصبحت أطول منها في المرة السابقة، فكلما ظن أنه على وشك الوصول، وأن مبنى الطاحونة قد أصبح على بعد خطوات إذا به يجري ويجري ولا يجد لها أثرا، فخشى أن يكون قد

اجتاز المبنى ولم ينتبه لوجوده، ولكنه رأى دار السينما التي تسبق مبنى الطاحونة، فظل يجري ولاحظ أن جميع شرفات المساكن قد امتلأت بالمتفرجين، الذين اشرأبوا بأعناقهم لرؤيته. وأخيرًا وجد نفسه بجوار مبنى الطاحونة، وتجمع الأطفال حوله يضحكون ويهللون ويقفزون، أخذ يطرق باب الطاحونة بعنف والأطفال يشتركون معه في الطرق، كما فعلوا في المرة السابقة، ففتح الباب وأطل منه حارس الطاحونة في ذعر. وقف «ميم» أمام الرجل يلهث، وحاول أن ينطق فتقطعت أنفاسه، وخرجت من فمه كلمات لا معنى لها! فسحبه الرجل ووضعه داخل الحلقة المعدنية، وبدأ «ميم» يدور في الطاحونة، وخرج الحارس يجمع من الأطفال أجر فرجتهم على «ميم»؛ كما فعل في المرة السابقة، وامتلأت يداه بالنقود، فوضعها على المنضدة وتناول السوط، وأخذ يلهب به ظهر «ميم» و«ميم» ينتفض كالطائر المذبوح.

وبعد نحو خمسين دورة، أراد «ميم» أن يتوقف عن الدوران ويأخذ ثلاثة قروش، ولكن حارس الطاحونة أخبره أن الوقت المخصص للدورات الإضافية قد انتهى، وعليه الآن أن يكمل الدورات الأصلية التي يقوم بها يوميًا للحصول على عشرين قرشًا، وهذا بطبيعة الحال سيستغرق وقتًا طويلًا، فلم يجد «ميم» بُدًّا من الإذعان واستمر يدور.

عندما انتهت الدورات المقررة، ناوله الرجل عشرين قرشًا، أخذها من النقود التي جمعها من الأطفال. وضع «ميم» النقود في الجيب الداخلي لسترته، وانطلق يعدو من جديد نحو المطعم، والأطفال يجرون خلفه

وجميع شرفات المنازل مكتظة بالمتفرجين يلوحون له بأيديهم، وهو لا يدري هل يلوحون له إعجابًا أم استهزاء؟

وصل إلى المطعم منهوك القوى، فرأى مشهدًا أثار دهشته، وجد عروسه منهمكة في الأكل وأمامها مائدة حافلة بأطيب الطعام، فجلس. وما إن رأته حتى توقفت عن الأكل، وقالت:

- هل حضرت يا حبيبي؟

رأى أن سؤالها لا يحتاج إلى إجابة، فجلس وحاول أن يتكلم فتقطعت أنفاسه فلزم الصمت. واستمرت زوجته في الأكل في هدوء وسعادة، وبعد أن هدأت أنفاس «ميم» بعض الشيء قال لزوجته:

- ما معنى هذا؟ من الذي أحضر لك هذا الطعام؟

فقالت (جيم)، دون أن تتوقف عن الأكل:

- أحضرته لي فتاة المطعم يا حبيبي.

فقال «ميم» في غضب:

- ومن الذي دفع ثمنه؟

فقالت، وهي تلتهم فخذ الدجاجة:

- فاعل خير.

فقال «ميم»، وقد شعر بالغيرة مختلطة باليأس والألم والمهانة:

- أنا لا أقبل أن يتصدق على زوجتي أي إنسان غريب.

فقالت بهدوء، وهي تجهز على صدر الدجاجة:

- وهل كنت تحب أن أموت جوعًا يا زوجي العزيز. كنت أنتظر منك أن تشكر هذا الشاب الكريم، الذي رثى لي ورقَّ لحالي.

أخذ «ميم» يدير بصره في أنحاء المكان، فرأى عددًا كبيرًا من الشبان من ذوي الوجوه الوسيمة يختلسون النظر إليه ويبتسمون. اعتقد «ميم» أنها ابتسامات سخرية واستهزاء، فغلى الدم في عروقه، ونادى فتاة المطعم، فأقبلت بسرعة ووقفت بجواره مبتسمة في انتظار أوامره، فقال لها وقد نفرت عروق رقبته، واختلجت بعض عضلات وجهه من الغضب والإرهاق:

- كيف أترك زوجتي هنا وأذهب لأدور في الطاحونة؛ لأوفر لها ثمن الإفطار وأعود، فأجدها تأكل على نفقة إنسان غريب عنها؟

فقالت فتاة المطعم، وهي تبذل مجهودًا كبيرًا لكيلا تنفجر ضاحكة:

- تقول الإفطار؟

- نعم الإفطار.

- ولكن موعد الإفطار انتهى منذ وقت طويل، وأوشك أن يحل الآن موعد العشاء.

- سأدفع ثمن هذا الطعام الذي تأكله زوجتي. كم ثمنه؟

- مائة وعشرون قرشًا.

فارتبك «ميم» وتلعثم وأطرق للأرض في حزن ومذلة، ونطق ببعض كلمات غير مفهومة، ثم قال وكأنه يحدث نفسه:

- لكي أحصل على هذا المبلغ، ينبغي أن أدور في الطاحونة ستة أيام متتالية.

نظرت إليه (جيم) في دهشة، وقالت:

- ولماذا تدفع يا حبيبي؟ هذا الطعام دُفع ثمنه وانتهى الأمر. كل أنت الآن، وادفع ثمن طعامك فلا بد أنك جائع، لم تتناول طعامًا طوال اليوم يا حبيبي.

كانت فتاة المطعم لا تزال واقفة بجواره، فالتفت إليها وقال:

- أحضري لي طعامًا في حدود مبلغ خمسة عشر قرشًا.

فلم تتحرك فتاة المطعم ولزمت الصمت ناظرة إليه مبتسمة، فصاح في غضب:

- لماذا لا تتحركين؟ لقد مت جوعًا!

فقالت الفتاة في هدوء، والابتسامة لا تفارق شفتيها:

- لقد ارتفعت الأسعار مرة أخرى، وأصبح الحد الأدنى لطعام شخص واحد ستين قرشًا.

فتوقفت زوجته عن الأكل، ونظرت إليه بحزن وقالت:

- كنت أتمنى يا حبيبي أن تشاركني في طعامي، ولكن من التقاليد العريقة لهذه المدينة أن الزوج لا يجوز أن يشارك زوجته في طعام، لم يقم هو بدفع ثمنه.

فأخرج من جيبه كل ما معه من النقود ووضعه على المنضدة قائلًا:

- أحضري لي طعامًا، أي طعام، بهذا المبلغ.

فأخذت الفتاة المبلغ وعدته فوجدته سبعة وأربعين قرشًا، وانصرفت، ثم عادت ومعها طبق به ثلاث بيضات مقلية وقطعة خبز وضعتها أمامه، التهم الطعام في بضع دقائق وقام، فوقفت زوجته وتأبطت ذراعه، وغادرا المطعم وقلبه مفعم بالحزن وجيوبه خاوية.

وعندما وصلا إلى المنزل، أسرعت زوجته إلى الحمام وفتحت خزانة صغيرة مثبتة بالحائط، وأخذت منها مادة مطهرة وقطعة من القطن، وعادت لزوجها حيث قامت بتضميد جراحه، التي أحدثتها السياط في أثناء دورانه في الطاحونة. ونظرت إليه فوجدت عينيه مغرورقتين بالدموع، فأشاح وجهه عنها حتى لا ترى دموعه، فلقد سبق أن قالت له: إن الرجل لا ينبغي له أن يشكو، ويتحتم عليه في هذه المدينة أن يكون قوي الاحتمال.

وبعد أن انتهت زوجته من تضميد جراحه، ألقى بجسده على الفراش، وسرعان ما استغرق في نوم عميق.

استيقظ «ميم» في الصباح فلم يجد زوجته بالغرفة، فقال لنفسه إنها لا بد أن تكون في الحمام. وحاول القيام فشعر بألم شديد في ظهره، ولكنه قاوم الألم واعتدل وركن بظهره على السرير، ثم جلس على حافة السرير مطرقًا للأرض فترة من الزمن. بعد ذلك اتجه نحو الحمام فلم يجد به أحدًا. أخذ يدور في أنحاء البيت هابطًا صاعدًا مناديًا زوجته، ولكنه لم يعثر لها على أثر! وعلى الرغم من شغفه وحبه الشديد لزوجته الجميلة، لم يفزع عندما قفزت في ذهنه فكرة إمكان هروبها منه، وهجرها له إلى غير رجعة، ولكنه شعر بكرامته تدمى، عندما فكر في أن هجرها له قد يكون بسبب عجزه عن دفع ثمن طعامها، شعر بتعب شديد فجلس على أحد الكرسيين اللذين في البهو. وفي هذه اللحظة، أقبل نحوه الخادم، وهو لا يدري من أين أتى، فابتدره قائلًا:

- أين كنت؟

فقال الخادم بدون اكتراث:

- كنت أينما كنت، هل تريد شيئًا؟

فابتلع «ميم» هذا الأسلوب الجاف في الحديث، وقال للخادم:

- صحوت من النوم فلم أجد زوجتي، هل تعلم أين ذهبت؟

فقال الخادم، وهو يهم بالخروج من البهو:

- ربما تكون قد ذهبت إلى الجزء الخلفي من المدينة.

فقال «ميم» بدهشة:

- الجـزء الخلفـي مـن المدينة؟ وهـل للمدينة جزء خلفـي؟ المدينة عبارة عن شارع واحد.

فتوقف الخادم ونظر إلى «ميم» وأطال النظر، ثم قال:

- يبدو أنك مازلت تجهل أشياء كثيرة عن هذه المدينة.

فقال «ميم» بسخرية:

- ولماذا لا تزودني ببعض هذه المعلومات؟

فـأدار الخادم ظهره لـ«ميم»، ووقف ينظـر من النافذة، التي تطل على الشارع، وقال:

- ليس هذا من اختصاصي، غير مصرح لي أن أزودك بأي معلومات. هذه المعلومات إما أن تكتشفها بنفسك أو عن طريق مكتب الاستعلامات. اذهب إلى مكتب الاستعلامات، واستفهم عن كل ما ترغب في الاستفهام عنه. هو المسئول الوحيد عن تزويدك بأي معلومات، ولو أنه من الأفضل بالنسـبة لـك أن تكتشـف كل شـيء بنفسـك؛ إذ إن مهمتـك البحث عن الحقيقة.

12

في طريقه إلى مكتب الاستعلامات للاستفسار عن ذلك الجزء الخلفي للمدينة الذي لا يعلم عنه شيئًا، خطر لـ«ميم» أن يسأل سؤالًا آخر إلى جانب هذا السؤال، وهو: لماذا لا يرتفع أجر الدوران في الطاحونة، على حين ترتفع جميع الأسعار بشكل جنوني؟

وقف أمام الفتاة الجميلة بمكتب الاستعلامات، وجميع الفتيات اللاتي رآهن «ميم» في المدينة حتى الآن رائعات الجمال، قال للفتاة:

- أريد أن أستفهم عن شيئين.

قالت الفتاة، وقد رسمت شفتاها ابتسامة عذبة:

- خذ هذه الورقة وهذا القلم واكتب نص الاستفهامين، وضع الورقة في ثقب الجهاز.

كتب «ميم» هذين الاستفهامين:

أولًا: لماذا لا يرتفع أجر الدوران في الطاحونة، متمشيًا مع ارتفاع الأسعار؟

ثانيًا: ماذا يقصد بالجزء الخلفي للمدينة، وكيف أذهب إليه؟

ووضع الورقة في فتحة الجهاز، وضغط على الزر الذي طلبت منه الفتاة أن يضغط عليه، وما إن فعل ذلك حتى دقت الأجراس في جميع أنحاء المدينة، وانطلقت العربات الصفراء بأقصى سرعتها، مطلقة صفاراتها التي تشبه صفارات عربات الشرطة حتى أصبح صوت دوي الأجراس، مختلطًا بصفارات العربات يكاد يصم الآذان، ووقفت الفتاة ترتجف فزعًا، وصاحت:

- ماذا فعلت يا مجنون؟ ماذا فعلت؟

فوقف «ميم» يرتجف وقد عقد الخوف لسانه فلم يستطع النطق، وأخيرًا قال:

- لم أفعل شيئًا! سألت سؤالين لا ثالث لهما.

قالت الفتاة في غضب:

- اذكر لي السؤالين اللذين سألتهما.

فذكر لها «ميم» نص السؤال الأول ولم تتركه الفتاة ليذكر السؤال الآخر.. بل أخذت تلطم خديها حتى أصبحا في لون الورد وتشد شعرها، ثم قالت:

- كيف تجرؤ على مثل هذا السؤال؟ كيف تجرؤ على طلب رفع أجر الدوران في الطاحونة؟

فقال «ميم»، وهو لا يدرك سبب كل هذا الغضب والانفعال:

- وهل هذه جريمة؟

قالت الفتاة، وجسمها مازال يرتعد خوفًا وغضبًا:

- طبعًا جريمة. إنك بهذا السؤال فتحت على نفسك طاقة من نار! سوف تعاقب بسببه عقابًا صارمًا لا رحمة فيه!

فقال «ميم»، وهو لا يزال مندهشًا لهذه الثورة العارمة:

- أعاقب لمجرد الاستفسار عن سبب عدم رفع أجر الدوران في الطاحونة؟

- أجل، إنك بهذا تحرض على التمرد، وتعمل على بلبلة الأفكار في تلك المدينة الآمنة:

أراد «ميم» أن يهرب بجلده، ويطلق لساقيه العنان في الشارع، ولكن الفتاة اعترضت طريقه ومنعته من الخروج، وأغلقت باب مكتب الاستعلامات، وأصبحا وحيدين معًا في المكتب. وبعد لحظات، سمع من جديد صوت صفارة سيارة الشرطة تقترب، ووقفت السيارة أمام باب مكتب الاستعلامات وسمعا طرقًا شديدًا على الباب، ففتحت الفتاة الباب، وتقدم أحد الشرطة ووضع القيد الحديدي في يدي «ميم»، واقتاده إلى السيارة التي انطلقت في الشارع بأقصى سرعتها، و«ميم» لا يعلم إلى أين هو ذاهب؟

وقفت السيارة أمام مبنى أخضر ذي نوافذ صفراء، لا يذكر «ميم» أنه رآه من قبل في الشارع الخارجي، ثم دخلا من الباب واجتازا بهوًا متسعًا

على جانبيه تماثيل رائعة من الرخام، ثم صعدا معا سلمًا داخليًّا عند نهاية البهو، يقف عند أسفله أحد الشرطة وكأنه تمثال، يرتدي حلة مبرقشة. وعند قمة السلم يقف رجل شرطة آخر يرتدي الزي نفسه. لاحظ «ميم» أن السكون المطلق يخيم على المكان، فلم ير أحدًا ولم يطرق سمعه أي صوت، واجتازا معًا البهو العلوي واتجها إلى اليسار حيث دهليز ضيق طويل. وعند نهاية الدهليز باب معلق بجواره لافتة، تحمل هذه الجملة «المحكمة التأديبية العليا»، فشعر «ميم» بقلبه تسرع دقاته، وسرت في جسده رعشة خوف، ضغط رجل الشرطة على زر بجوار الباب، ففتح الباب أحد الشرطة مرتديًا الزي المبرقش.

كانت القاعة فسيحة خالية من الأثاث ما عدا مكتبًا فوق منصة عالية وخلف المكتب كرسي. وقف «ميم» أمام المنصة، وبجواره رجل الشرطة الذي صاح قائلًا:

- محكمة.

في هذه اللحظة دخل من باب جانبي، يُطل على المنصة، رجل طويل القامة ذو لحية مدببة يرتدي الزي العسكري. جلس الرجل على الكرسي خلف المنصة، ونظر إلى «ميم» نظرة طويلة ثاقبة، وقلب «ميم» يرفرف داخل ضلوعه وكأنه طائر جريح.

قال الرجل موجهًا حديثه إلى «ميم»:

- لقد أقمنا هذه المحكمة خصيصًا من أجلك على وجه السرعة، ولقد كلف ذلك المدينة أموالًا طائلة، إذ إن المحاكم كانت قد ألغيت من

المدينة، منذ أجيال عديدة لعدم الحاجة إليها. أنت متهم ببلبلة الأفكار والعمل على تغيير نظام المدينة.

فأطرق «ميم» للأرض ولزم الصمت، فصرخ القاضي في وجهه قائلًا.

- لماذا لا تتكلم؟ هل فقدت النطق؟

فازداد فزع «ميم» وازدادت رعشة جسده ودقات قلبه، وقال:

- أنا شخص مسكين أدور في الطاحونة كل يوم عدة ساعات، ويلهب جسدي بالسياط ويرهقني الألم، وأُمنح عشرين قرشًا أجرًا على ذلك. كانت هذه القروش تكفيني في أول الأمر وتمسك رمقي، ولكن الأسعار دائمة الارتفاع وأجرى ثابت لا يتغير، وعندما تزوجت عجزت عن دفع ثمن الإفطار لزوجتي...

وخنقته العبرات فتهدج صوته وأخذ يبكي في صمت، فهوى القاضي بقبضته على المكتب، ونظر إلى «ميم» بعينين كعيني نمر، وصاح قائلًا:

- ولماذا تزوجت؟ ألم يكن من الأفضل وأنت في هذه الحال المزرية أن تبقى بلا زواج؛ حتى لا تُتْعِسَ معك فتاة فاضلة جميلة؟

فقال «ميم» والدموع تلمع في عينيه:

- لم أكن أنوي الزواج إطلاقًا ولم يخطر لي على بال. ولكن في أثناء سيري في الشارع رأيت لافتة تدعو لدخول كل من يشكو من الوحدة،

وكانت الوحدة تكاد تقتلني، فابتعت تذكرة ودخلت هذا المكان، وحاولت الخروج فلم أستطع، ووجدت نفسي متزوجًا.

فأخذ القاضي يعبث بلحيته ويحرك كتفه الأيمن حركة عصبية ثم قال:

- ألا تعلم أن المطالبة برفع أجر الدوران في الطاحونة جريمة لا تغتفر في هذه المدينة؟

فأطرق «ميم» للأرض في يأس واكتئاب، فصاح القاضي قائلًا:

- تكلم، هل فقدت النطق؟

فقال «ميم»:

- لم أكن أعلم أن المطالبة برفع الأجر جريمة لا تغتفر، فأرجو أن تغفروا لي ذنبي وترأفوا بحالي؛ فأنا بائس مسكين معذب، وهذا أول ذنب أقترفه منذ وجدت نفسي في هذه المدينة!

فنظر إليه القاضي نظرة تكاد تخترق جسده، وقال وهو يهز كتفه الأيمن:

- ليس هذا أول ذنب تقترفه في هذه المدينة، أنت من أصحاب السوابق. هل نسيت أنك وجَّهتَ إلى فتاة طاهرة نقية، تعمل في أحد المطاعم كلامًا لا ينطق به سوى شخص مجرد من الحياء عديم الأخلاق؟ ألم تطلب منها أن تؤنسك في وحدتك في منزلك؟ ماذا كنت تنوي أن تفعل بهذه الفتاة البريئة الفاضلة؟

فقال «ميم»:

- لم أكن أنوي أن أفعل أي شيء. لم تدر بذهني أية فكرة دنسة. كنت أنوي التحدث معها بضع لحظات، ولا شيء غير ذلك.. إنني..

فقاطعه القاضي صائحًا:

- اسكت، لا تتكلم، أنت كثير الكلام، وأنا لا أحب الثرثرة.

لاذ «ميم» بالصمت وأطرق القاضي للأرض بضع لحظات، ثم رفع رأسه وقال:

- حكمت المحكمة التأديبية العليا عليك بالسجن والعذاب لمدة أسبوع!

وأراد «ميم» أن يقول شيئًا فأخذ يفتح فمه ويغلقه عدة مرات، ولكنه لم يستطع النطق. قام القاضي واختفى داخل الباب الذي خرج منه، وأمسك رجل الشرطة بذراع «ميم»، وجره بعنف وخرجا من القاعة. أحس «ميم» بإعياء شديد وخارت قواه وسقط مغشي عليه. ولم يشعر بشيء بعد ذلك، وعندما أفاق، وجد نفسه ملقى على أرض غرفة ضيقة، ليس بها سوى نافذة واحدة صغيرة الحجم بالقرب من السقف، وبها قضبان حديدية تقسمها إلى مربعات دقيقة، كانت الغرفة خالية من الأثاث. ودارت الأفكار في رأس «ميم»:

لست أدري! ربما كان السجن أهون من الحياة في هذه المدينة، يكفي أنني سأستريح من ضرب السياط والدوران في الطاحونة بضعة أيام حتى

تندمل جراحي. لن يطالبني أحد هنا بدفع أجر طعامي، ولكن ماذا ستفعل زوجتي في هذه المدينة؟ وأين اختفت؟ وماذا يكون مصيرها؟ إنها فتاة جميلة تضمد جراحي وتؤنس وحدتي، ولكنني عجزت عن دفع ثمن طعامها! إنني في السجن الآن بسببها، لو كنت بمفردي ما طمعت في طلب المزيد من الأجر. وماذا أفعل في المستقبل؟..

ترى من الذي كانت تتحدث معه زوجتي في التليفون؟ هل من المعقول أن تكون على اتصال برجل غيري؟ هذا شيء بعيد الاحتمال! فجميع أهل المدينة أطهار أبرار لا يرتكبون الفاحشة ولا يعرفون الخيانة، ولكن لماذا اختفت هذا الصباح ولم أجدها في البيت؟ وما ذلك الجزء الخلفي من المدينة الذي ذكره لي الخادم؟ كنت أتمنى أن أحصل على إجابة لسؤالي عن الجزء الخلفي من المدينة عن طريق مكتب الاستعلامات، ولكن لم أجد إجابة عن هذا السؤال. ليتني ما سألت السؤال الأول، الذي كان سببًا في دخولي السجن.. لو لم أسأل السؤال الأول، لحصلت على إجابة السؤال الآخر... ولكن هل من المعقول أن للمدينة جزءًا خلفيًا؟ أنا لا أرى سوى هذا الشارع.. إنه الشارع الوحيد بالمدينة على ما أعلم.. عندما يطلق سراحي من هذا السجن، سأبحث بنفسي عن هذا الجزء الخلفي من المدينة، فربما أجد فيه راحتي من هذا العذاب... ولكن كيف يعيش الناس في هذه المدينة؟ إن جميع من رأيتهم يعيشون في بذخ ورفاهية فهل يتقاضون عن دورانهم في الطاحونة أجرًا أعلى من الذي أتقاضاه؟ ولماذا يبخس أجري ويهضم حقي، وأنا إنسان طيب أتيت إلى هذه المدينة لأبحث عن الحقيقة؟

في هذه اللحظة صرخ «ميم» صرخة فزع، فلقد رأى ثعبانًا ضخمًا يزحف نحوه فانتفض واقفًا محاولًا الهرب منه، ولكنه لم يجد منفذًا فالباب مغلق والنافذة الوحيدة لا تصلح للخروج، وانساب الثعبان نحوه في رشاقة والتف حول ساقه، وأخذ «ميم» يحرك ساقه في حركات سريعة محاولًا التخلص منه، ولكن بلا جدوي! وأبصر ثعبانًا آخر يتدلى نحوه من النافذة يتبعه سرب من الثعابين حتى امتلأت الغرفة بهذه الزواحف البشعة، فأخذ «ميم» يصرخ ويدق على الباب بعنف، وشعر بثعبان يزحف على صدره، ويتدلى من كتفه إلى الأمام، ثم يلتف على وسطه، فأخذ يدور في الغرفة صارخًا حتى أرهقه التعب، وخارت قواه، فارتمى على الأرض يائسًا مستسلمًا لتلك الأفاعي تفعل به ما تشاء. ثم ما لبث أن غاب عن وعيه، فأنقذه هذا من العذاب والرعب الذي يرزح تحت وطأته.

في هذه اللحظة سمع دقات عنيفة على الباب، فقام مذعورًا ورأى باب غرفته يفتح، ويطل منه وجه رجل، قال له الرجل:

- استعد لمغادرة الغرفة، لقد صدر أمر بالعفو عنك.

ففرح «ميم» لهذا النبأ واندفع نحو الباب ليخرج، ولكن الرجل منعه من الخروج قائلًا:

- ليس الآن. ستخرج بعد عشر دقائق.

وأغلق الباب، فرجع «ميم» إلى مكانه والثعابين تلتف حوله، وما لبث أن غاب عن وعيه مرة أخرى من فرط الرعْب.

عندمـا عاد إلـى وعيه وفتح عينيه لـم ير سـوى الظـلام، فأيقن أنه فقد بصـره. وظل على هذا الاعتقاد إلى أن فتح باب الزنزانة وأطل منه رجل، يحمـل في إحدى يديه مصباحًـا ينبعث منه ضوءٌ قوى، وفي اليد الأخرى وعاء به كمية من الأرز المسلوق. وعلى ضوء المصباح، تمكن «ميم» من رؤية مجموعة كبيرة من الثعابين في الزنزانة.

صاح «ميم» مخاطبًا الرجل:

- أخبرتنـي أن أمـرًا صـدر بالعفـو عنـي، فلمـاذا لـم يفـرج عنّي حتى الآن؟

فقال الرجل:

- لقـد ألغى قرار العفو عنك، وعليك أن تبقى إلى حين صدور أوامر أخرى!

فشعر «ميم» بصدمة عنيفة، وصاح قائلًا:

- ومتى يفرج عني؟

قال الرجل:

- لا أحـد يـدري! قد يفرج عنـك بعد لحظات، وقد يفـرج عنك بعد شهور، وقد لا يفرج عنك مطلقًا!

فانهـار «ميـم» وأخـذ يهذي بـكلام غير مفهـوم. وضع الرجـل وعاء الأرز أمام «ميم» دون أن يتكلم، وخرج وأغلق الباب وأطبق الظلام على

الزنزانة من جديد، فصار «ميم» يتحسس بيده، حتى عثر على وعاء الأرز والتهمه سريعًا، ثم سرت في جسده رعدة عندما تصور أسراب الثعابين التي تنساب حوله في الظلام. ليس من المعقول أن يغمض له جفن، وهذه الزواحف الكريهة تشاركه في المسكن! وشعر بشيء يطير ويصطدم هو وجدار الزنزانة، وامتلأت الغرفة الضيقة بهذه الكائنات التي تطير وترتطم هي والجدران. خشى أن تصدم وجهه، شعر بواحد منها يمرق سريعًا من أمامه، ويكاد يلمس أنفه، فوضع كفيه على وجهه ليحميه، وانسابت الدموع من عينيه، وفكر في تقديم شكوى لمالك المدينة، بمجرد إطلاق سراحه، فهو لم يرتكب إثما يستحق أن يعاقب من أجله هذا العقاب الشديد؛ إذ من حق أي إنسان أن يطالب برفع أجره ليتناسب هو وتلك الأسعار، التي ترتفع في كل لحظة ارتفاعًا يصيب الرأس بالدوار! وقد أصبح عاجزًا عن الحياة في هذه المدينة، ولكن أين يذهب؟ وأين ذلك الجزء الخلفي من المدينة الذي ذكره الخادم؟ وهل الحياة في هذا الجزء الخلفي أقل قسوة من الحياة في هذا الشارع الذي لا يعرف سواه؟ وبينما تدور هذه الأفكار في رأس «ميم»، بدأ الضوء يتسلل إلى الزنزانة من خلال النافذة الضيقة. لقد طلع النهار.

سمع «ميم» صوت باب الزنزانة يفتح، وأطل منه الرجل الذي سبق أن أحضر له الطعام وركله بقدمه بقوة فأصابت الركلة ظهر «ميم»، وقال الرجل:

- هيا قم واتبعني.

فقام «ميم» وخرج من الزنزانة وسار خلف ذلك السجان، وظلّا سائرين في دهليز طويل مظلم، حتى وصلا إلى غرفة على يسار بابها لافتة، مكتوب عليها «مأمور السجن». فتح السجان الباب وطلب من «ميم» الدخول بمفرده، فوجد نفسه في غرفة فسيحة ذات أثاث فاخر، وحاجز يختفي خلفه مكتب طويل عريض، يجلس خلفه رجل أميل للبدانة أصلع الرأس أفطس الأنف قصير العنق، يرتدي حلة سوداء بها خطوط حمراء. وقف «ميم» أمام الرجل مطرقًا للأرض.. ظل مأمور السجن ناظرًا إلى «ميم»، وكأنه يلتذ برؤيته في هذه الحالة من الرعب ملتزمًا الصمت لثلاث دقائق، ثم قال:

- ورد الأمر بالإفراج عنك.

فقال «ميم»، وهو غير مصدق لما سمعته أذناه:

- أنا... سيفرج عنّي الآن...؟

فقال المأمور:

- سيفرج عنك فورًا.

ولزم المأمور الصمت نحو دقيقة، ثم قال:

- شخص لم يشأ أن يفصح عن اسمه توسط لك لدى أحد المسئولين، واستصدر منه أمرًا بالإفراج عنك.

ثم أشار بيده محذرًا، وقال:

- ولكن حذار.. حذار أن تسول لك نفسك الأمارة بالسوء أن تطالب برفع أجرك مرة أخرى. فاهم؟

فقال «ميم»، وهو مطرق للأرض:

- لن أعود لارتكاب مثل هذه الجريمة.

فدق مأمور السجن بيده الغليظة على المكتب، وقال:

- هيا اغرب عن وجهي، وإياك أن تعود لمثل هذه الجريمة مرة أخرى؛ حتى لا نضطر لإقامة محكمة من أجلك. هذا المبنى يستخدم كمدرسة، وأنت المسئول عن تعطيل الدراسة وتحويل المبنى إلى محكمة وسجن. وسوف يعود مدرسة كما كان، لا نريد أن يتحول إلى محكمة مرة أخرى بسببك.

13

انطلق «ميم» يعدو غير مصدق أنه قد أصبح حرًّا طليقًا. كان أشبه بمن استيقظ من كابوس رهيب أطبق على أنفاسه، وزلزل كيانه، وأخذ يفكر:

ترى من ذلك الشخص الذي توسط لي لدى أحد المسئولين للإفراج عنـي؟ ولماذا يريد أن يظل مجهولًا؟ لم يكن في طاقتي قضاء ليلة أخرى في السجن! لقد اعتقدت في لحظة من هذه اللحظات الرهيبة أنهم قرروا تنفيذ حكم الإعدام فيَّ، عن طريق الرعب الذي لا يحتمل! إنني الآن في شــوق لمنزلي وزوجتي.. ترى ماذا حـدث لها؟ وكيف قضت تلك الليلة وأنا بعيد عنها؟ ترى هل عادت إلى المنزل أو هجرتني؟

ووصــل إلـى منزله، وأدار مفتـاح الباب، وإذا بزوجتـه تنادي من عند قمة السلم، قائلة في فزع:

- من؟ من الذي دخل؟

فرح «ميم» عندما سمع صوت زوجته، وقال:

- أنا زوجك.

فصاحت في لهفة، وهي تهبط السلم قفزًا:

- أهلا يا حبيبي. أحمد الله على سلامتك.

واحتضنته وتبادلا القبلات، وقالت:

- لم يغمض لي جفن طوال الليل وأنت بعيد عني.

فقال «ميم» بصوت ضعيف:

- ولا أنا.

جلس «ميم» على أحد الكراسي وجلست زوجته على الكرسي المقابل له، وتعجب عندما رأى الكراسي قد ازداد عددها في البهو، فأصبحت أربعة بدلًا من كرسيين، قالت زوجته:

- قرأت خبر القبض عليك في صحيفة «غراب البين»، فأسرعت إلى الرجل الذي كنت أعمل عنده، ورجوته أن يتوسط لك ليفرجوا عنك. لم أكن أحتمل البعد عنك أسبوعًا بأكمله.

فنظر «ميم» إليها مبتسمًا، وقال:

- إذن أنت التي سعيت للإفراج عني.

- ومن يكون غيري؟ لا أحد في المدينة يهمه أمرك سواي. وجودك بيننا ضروري لرعاية الأولاد!

في هذه اللحظة هبط السلم طفلة وطفل شبه عاريين في نحو السابعة من عمرهما، وكأنهما توءمان، فبدت الدهشة على وجه «ميم» وقال:

- من هذان الطفلان؟!

قال الزوجة والفرحة تطل من عينيها:

- إنهما ابننا وابنتنا يا حبيبي.

ونادت الطفلين قائلة:

- تعالي يا (فاء) وأنت يا (باء) سلما على أبيكما بعد أن طالت غيبته، فأسـرعت الطفلة وعانقت «ميم» وقبلته ثم عانقه الطفل، وقفزت الطفلة، وجلسـت على فخذيه، و«ميم» ينظر إلى زوجته وإلى الطفلين في ذهول، فنظرت إليه نظرة قاسية وقالت:

- لا تبـدو عليك الفرحة بأولادك. لم أر فـي حياتي أبًا لا يفرح لرؤية أولاده!

فقال «ميم»، بعد أن استجمع قواه وأفاق من الصدمة:

- ومتى ولد هذان الطفلان ولم يمض على زواجنا سـوى يوم واحد، هـل في خلال يوم واحد قضيته في السـجن ولد لنـا طفلان، وأصبحا في هذه السن؟

قطبت الزوجة حاجبيها ودمعت عيناها، وقالت:

- يجـب أن تشـكر مالـك المدينـة؛ لأنـه صنـع لنـا هاتيـن الدميتيـن الجميلتين، إنهما هدية منه.

في هذه اللحظة طوقت الطفلة عنق أبيها، وقالت:

- أين كنت يا بابا؟ لقد اشتقت إليك!

فقال «ميم»:

- كنت في السجن.

فالتفتت الطفلة إلى (جيم)، وقالت:

- ما معنى السجن يا ماما؟

فقالت الزوجة:

- معناه الوحدة والعذاب.

قالت الطفلة باكية:

- أنا لا أحب أن يتعذب بابا.. أنا أحبه.

وبكى الطفل، وقال:

- وأنا لا أحب أن يتعذب بابا.. بابا حبيبي.

فاحتضنتهما الزوجة وقبلتهما، وقالت:

- بابا حبيبكما لن يتعذب بعد اليوم، ووجودكما سيجلب له السعادة، ويملأ قلبه بالفرح.

قالت الطفلة:

- ماما أخبرتني أنك عندما تعود يا بابا، ستحضر لي ملابس جميلة تستر جسدي.

وقال الطفل:

- وأنـا يـا بابا، مامـا أخبرتني أنـك عندما تعود، سـتحضر لي ملابس جميلة تستر جسدي.

نظـر «ميم» إلـى الطفلين فوجدهما آيـة في الجمال، تشـع البراءة من عيونهما، فاحتضنهما وقال:

- سأحضر لكما كل شيء، سأحضر لكما كل ما تريدان، أنا أحبكما.

ودمعت عيناه فالتفت إلى زوجته، وقال:

- هل من الممكن أن أعرف كيف أصبحت أبًا؟

قالت زوجته، وفي عينيها بريق السعادة:

- كنت في المنزل وحدي، في انتظارك، وسمعت جرس الباب يدق، فحسبت أنك عدت. فأسرعت بفتح الباب، فلم أجدك بل وجدت هذين الطفليـن عرايا تمامًا! شـعرت بعطف شـديد عليهما وحـب عنيف لهما، وسـألتهما «مـن أنتما» فقالا: «لقد أرسـلنا مالك المدينـة إليكما، لنصبح أولادكما وتطلقا علينا ما تشـاءان من أسـماء!» فأطلقت على الطفلة اسم (فاء) ليصبح اسـمها الكامل (فاء ميم نون)، وسميت الطفل (باء) ليصبح اسـمه الكامل (باء ميم نون) ورحبت بهما وقبّلْتهمـا وأدخلتهما المنزل! ولمـا رآهمـا الخـادم رق قلبـه لهما عندمـا وجدهما بلا ملابـس إطلاقًا، فأحضـر لي قميصًـا قديمًا مـن قمصانه، صنعـت منه قميصيـن صغيرين مؤقتًا إلى حين عودتك، لتحضر لهُما ملابس لائقة تستر جسديهما، ولقد أحضر لنا الخادم كرسيين آخرين وسريرًا لهما!

في هذه اللحظة بكت الطفلة، فاحتضنتها أمها في حنان، وقالت:

- لماذا تبكين يا حبيبتي؟ لماذا تبكين؟

فقالت الطفلة، وهي لا تزالة تبكي:

- أنا جوعى.

وقال الطفل:

- وأنا جوعان.

فقالت لهما الأم:

- سيحضر أبوكما طعامًا لكما حالًا

وقالت لزوجها:

- هيا يا حبيبي اخرج وأحضر لهما طعامًا. إنهما مسكينان، لم يتناولا أي طعام منذ حضورهما.. لقد انتظرتك طويلًا.

فأطرق «ميم» إلى الأرض لحظة، دارت في رأسه في أثنائها أفكار عديدة سود. إنه لا يملك مليمًا ويشعر بإرهاق شديد عقب تلك الليلة المرعبة التي قضاها في السجن، ولن يستطيع الدوران في الطاحونة إلا بعد زوال هذا الإرهاق، ولكنه لا بد أن يحصل على المال اللازم لغذاء وكساء الطفلين المسكينين، فقال لزوجته، وهو لا يزال مطرقًا للأرض:

- وثدياك، أليس بهما بعض اللبن لتغذية الطفلين في الوقت الحاضر؟

قالت الزوجة في دهشة:

- ثدياي لمتعتك أنت يا حبيبي، وليسا لغذاء الأطفال!

قال «ميم»، وفي صوته رنة حزن:

- غـذاء الطفليـن أهم من متعتـي: لا يمكنني الشـعور بأية متعة وهما جائعان.

قالت الزوجة عابسة غاضبة:

- أنت المسئول عن غذائهما لا أنا!

ثم تهدج صوتها، وهي تقول:

- إنك تهينني وتجرح مشاعري.

وانخرطـت فـي بكاء عنيف، فأسـرع إليهـا الطفلان في فـزع، وأخذا يقبلانها ويمسحان دموعها، فقالت وهي تشهق بالبكاء:

- ليس من يمسح دموعي غيرهما.

فقـام «ميـم» وأخذ يقبلها ويسـترضيها حتـى كفت عن البـكاء، وقال لها:

- سـأخرج لأدور في الطاحونة؛ لأحصل على المال اللازم لغذائهما وكسائهما.

واندفـع خارجًا مـن المنزل يعدو نحـو الطاحونة، وتجمـع عدد كبير مـن الأطفـال يجرون خلفـه ويصيحـون. لم يشـعر بغضـب أو نفور من

الأطفال في هذه المرة كما حدث في المرات السابقة، وتجمعوا عند باب الطاحونة.

جمع الحارس من الأطفال قدرًا كبيرًا من المال، أجرًا لفرجتهم على «ميم» في أثناء دورانه في الطاحونة. وظل يدور حتى خارت قواه، فتوقَّف عن الدوران. أعطاه حارس الطاحونة العشرين قرشًا المعتادة. وبينما «ميم» يهم بالخروج من الطاحونة، وجد زوجته وطفليه الشبيهين بالعاريين يقتحمون الطاحونة، فشعر بخجل شديد، وقال لزوجته في انفعال:

- لماذا حضرت هنا؟ هل جئت أنت أيضًا للاستمتاع برؤيتي، وأنا أدور في الطاحونة وأضرب بالسوط؟

قالت الزوجة:

- كلا يا حبيبي، لقد حضرت لأعطيك حقك.

والتفتت إلى حارس الطاحونة، وصاحت في وجهه قائلة:

- كيف تستغل دوران زوجي في الطاحونة؛ لتجمع النقود من الأطفال أجرًا لفرجتهم عليه؟ هذه النقود من حقي أنا، وليست من حقك!

وهجمت على النقود التي جمعها الرجل فاختطفتها، وحارس الطاحونة ينظر إليها في ذهول دون أن يتحرك.

خرج «ميم» من الطاحونة بصحبة طفليه وزوجته، التي ظلت قابضة على النقود بأصابعها، ثم سلمتها لزوجها قائلة:

- خذ عدّ هذه النقود.

فأخذ «ميم» يعدها، وهو غير مصدق أنه قد أصبح مالكًا لكل هذه الكمية من النقود. وبعد أن انتهى من عدها، قالت له زوجته في لهفة:

- كم وجدتها؟

فقال:

- ثلاثة جنيهات وثلاثين قرشًا!

قال الزوجة:

- إنها أكثر من الأجر الذي تتناوله عن الدوران في الطاحونة لنصف شهر. كان هذا اللص يريد أن يستولى عليها! لا مكان في هذه المدينة للصوص. سأرفع أمره للمسئولين؛ لينال ما يستحقه من العقاب والتعذيب. هل سبق له أن فعل ذلك؟

فقال، وهو شارد الذهن:

- فعل ماذا؟

- هل سبق لهذا اللص أن استغل دورانك في الطاحونة للحصول على المال؟

- نعم، فعل ذلك عدة مرات.

- شيء جميل! أنت تدور في الطاحونة، وتضرب بالسياط وهو يقبض!

سارا في الشارع وبصحبتهما الطفلة والطفل، فوقف المارة يتفرجون عليهم، وأطل الناس من الشرفات لرؤية هذا المشهد العجيب! أب وأم ومعهما طفلان شبه عاريين، وصاح شخص من إحدى الشرفات قائلًا:

- يا للقسوة! أب يترك طفليه عاريين!

وصاح ثان قائلًا:

- يا للعار! هل يترك الأب ابنه وابنته عاريين؟ يا له من أب نذل حقير!

وصاح ثالث قائلًا:

- اكس أولادك أيها الأب القاسي القلب.

وتوالت أصوات عديدة تردد المعنى نفسه، فشعر «ميم» بخجل شديد، وقال لزوجته:

- سأحمل الطفل وأحملي أنت الطفلة، وهيا نسرع لنشتري لهما ملابس لائقة.

حمل كل منهما طفلًا وأخذا يعدوان في الشارع بحثًا عن محلٍّ لشراء الملابس، والشتائم تنهال على «ميم» كالمطر من المارة ومن الشرفات. وأخيرًا وجدا متجرًا كبيرًا لبيع الملابس الجاهزة، فوقفا يتأملان الأسعار في واجهة المحل. وجد أن ثمن الكساء الواحد ستون قرشا، ولكن حدث شيء عجيب: كانت الأسعار تتغير من تلقاء نفسها فأصبح ثمن الكساء سبعين قرشًا وبعد فترة قصيرة أصبح الثمن خمسة وسبعين قرشا! بدت

الأسعار كأنها مكتوبة على أسطوانة دائمة الدوران، وكلما دارت ظهر رقم جديد أعلى من الرقم السابق! فأسرع «ميم» بدخول المحل مهرولًا قبل أن يستفحل الأمر وخلفه زوجته تجر الطفلين لتلحق به. وعندما وصل «ميم» إلى المكان الخاص بتلك الملابس، كان سعر الكساء قد أصبح جنيهًا! دفع «ميم» جنيهين ثمنًا للكساءين، وارتدى الطفلان كساءيهما الجديدين وخرج الجميع من المحل. قالت الطفلة باكية:

- أنا جوعى.

فبكى الطفل، وقال:

- وأنا جوعان.

فقالت الزوجة لزوجها:

- هيا نسرع بشراء طعام، قبل أن نعجز عن شرائه.

فحملا الطفلين، وأسرعا نحو دكان يبيع طعام الأطفال، فرح «ميم» عندما وجد أن ثمن كمية معقولة من طعام الأطفال لا يتجاوز المبلغ الباقي معه، فدفع جنيهًا ثمنًا لهذا الطعام، وقالت الزوجة:

- ونحن.. أنا وأنت.. ألن نأكل؟

فقال «ميم»، وهو شارد الذهن.

- سنأكل طبعًا.

فقالت الزوجة، وفي لهجتها شيء من السخرية:

- متى؟

- الآن، هيا بنا إلى المطعم.

- كم بقي معك من النقود؟

- خمسون قرشًا.

- وهل تعتقد أن هذا المبلغ يكفي طعامنا نحن الاثنين؟

- أتعشم ذلك، ربما نجد مطعمًا رخيصًا.

- كلا.. لن يكفي.

- كلي أنت وأؤجل أنا طعامي للغد.

- وهل يطيب لي الطعام وأنت جوعان يا حبيبي.. كلا.. لن آكل بمفردي.

ثم قالت، وكأنها تذكرت شيئًا مهمًّا:

- اسمع، لدي فكرة.

- ما هي؟

الطعام في المطاعم أصبح باهظ الثمن، فلماذا لا نشتري بعض الطعام وأقوم بطهوه بنفسي في المنزل؟ أنا طاهية ماهرة كنت أطهو الطعام للرجل الذي كنت أعمل عنده. هل تذكر الطعام الذي تناولته هناك، إنه من صنع يدي.

فصاح «ميم»، وقد شعر بشيء من الارتياح:

- فكرة هائلة.

اشترى «ميم» بعض الخضروات وثلاث قطع من عظام الساق، لتصنع منها زوجته بعض المرق، ورغيفين من الخبز وبقي معه عشرة قروش.

وفي المساء بعد تناول الطعام وتغذية الأطفال، جلس «ميم» في البهو وصعدت الزوجة إلى الدور العلوي لتضع الطفلين في سريرهما، وبعد أن ناما تركتهما وهبطت السلم وجلست مع «ميم». ودارت الأفكار في رأسه. تذكر عندما استيقظ من النوم، فلم يجد زوجته في المنزل، وعندها أخبره الخادم أنها ربما تكون قد ذهبت إلى الجزء الخلفي من المدينة. وتذكر أنه عندما أراد أن يستفسر من مكتب الاستعلامات عن هذا الجزء الخلفي من المدينة، لم يتلق الإجابة؛ لأن سؤاله الأول عن سبب عدم زيادة أجره عن دورانه في الطاحونة أحدث ضجة عنيفة، كان من نتيجتها أن زُجَّ به في السجن، فرغب في الاستفهام من زوجته عن ذلك الجزء الخلفي من المدينة، فقال:

- أين كنت عندما استيقظت من نومي، فلم أجدك في المنزل؟

فقالت الزوجة، وكأنها لا تذكر شيئًا عن هذا الموضوع:

- أنا لم تجدني بالمنزل؟ متى؟

فقال «ميم»:

- في صباح اليوم الذي دخلت فيه السجن، استيقظت من نومي فلم أجدك، وأخبرني الخادم أنك ربما تكونين قد ذهبت إلى الجزء الخلفي من المدينة. فهل لهذه المدينة جزء خلفي لا أعرف عنه شيئًا؟ أنا أعلم أن المدينة تتكون من شارع واحد!

فضحكت الزوجة وقامت وطوقت «ميم» بذراعيها، وقبلته في فمه قبلة طويلة، ثم عادت إلى مكانها، وقالت:

- لا تسمع كلام هذا الخادم المعتوه، إنه يهذي، المدينة تتكون من شارع واحد، هو هذا الشارع الجميل الذي نعيش فيه يا حبيبي، ولا شيء سواه!

قال «ميم»، وقد ساوره شعور بأن زوجته تخفي عنه شيئًا:

- يخيل إليّ أن الرجل ليس معتوهًا ولم يكن يهذي، ربما يكون للمدينة جزء خلفي لا نعلم عنه شيئًا نحن الاثنين، فلماذا لا نتحقق بأنفسنا من هذا الأمر؟ ربما يكون الغلاء في الجزء الخلفي أخف وطأة منه في هذا الشارع.

فقامت الزوجة، وجلست على فخذي «ميم» وطوقته بذراعها وقالت:

- دع عنك هذه الأوهام يا حبيبي، ولا تحاول البحث عن شيء لا وجود له.

رأى «ميـم» عدم جدوى الاسترسـال في هذا الحـوار فلاذ بالصمت، وظلت زوجته على فخذيه تداعبه، فأخذها من يدها وصعدا معًا إلى غرفة النوم.

في نحو منتصف الليل، صحا «ميم» من نومه مرعوبًا على أثر صرخة نـدت مـن الطفلة أعقبهـا بكاء وصـراخ، ثـم صحـا الطفل وأخـذ يصرخ ويبكي، فأسرع إليهما «ميم»، على حين بقيت الزوجة مستغرقة في نومها وكأن شيئًا لـم يحدث، احتضن «ميم» الطفلين، وسألهما:

- ماذا حدث يا حبيبتي؟ ماذا حدث يا حبيبي؟

قالت الطفلة باكية:

- الثعبان.. الثعبان يجري خلفي!

فتعجب «ميم».. هل ترك الثعابين في السـجن؛ لكي تطارد طفلته في أحلامها؟ ثم قال لها:

- لا ثعابين هنا يا حبيبتي.

فقالـت الطفلـة وهي لا تزال تصـرخ وتبكي، والطفـل يصرخ ويبكي لصراخها:

- الثعابين كانت تجري خلفي.

وبكى الطفل، وقال:

- أين ماما؟ أريد ماما.

حاول «ميم» أن يوقظ زوجته من نومها، ولكنها ظلت مستغرقة في النوم، وانقلبت على جانبها الأيسر وعلى شفتيها ابتسامة، فتعجب «ميم»، كيف لا تصحو، وهذه الزوبعة من الصراخ والعويل تهز أركان الغرفة؟ وأخذ يهدّئ الطفلين ويغني لهما ويملس على رأسيهما، وبعد مجهود كبير، عاد الهدوء إليهما، وبدأ النوم يداعب جفونهما ثم ناما.

عاد «ميم» إلى سريره وتمدد بجوار زوجته التي لم تشعر بما حدث، وظلت مستغرقة في نومها تبتسم، ولا يدري لماذا تبتسم، وأدارت ظهرها لزوجها، وانقلبت على الجانب الآخر.

ظل «ميم» ساهرًا متوقعًا صراخ الطفلين من جديد في أية لحظة، وبعد نحو ساعة غلبه النوم فنام، ورأى في منامه أنه يدور في الطاحونة والعرق يتصبب منه، ثم شعر بسوط يهوي على جسده، ويحدث فرقعة هائلة أشبه بفرقعة الرعد، فصحا من نومه منتفضًا، ووجد الطفل يصرخ ويبكي قائلًا:

- الأسد.. الأسد سيأكلني.. الأسد سيأكلني!

ثم صحت الطفلة صارخة باكية لبكاء أخيها، وأخذ «ميم» يهدئهما ويحتضنهما حتى عاد الهدوء إليهما وناما، والزوجة نائمة لم تشعر بشيء في هذه المرة أيضا! وأخذ «ميم» يفكر ويتعجب. أين رأت ابنته الثعبان؟.. وأين رأى ابنه الأسد؟ إنهما لا يعرفان شيئًا في الوجود، فكيف عرفا الثعبان والأسد؟ وبعد نحو ساعة نام «ميم»، ولكن لم يطل نومه، فلقد صحا بعد نحو ساعة فوجد الطفلين نائمين، ولكنه لم يجد

زوجتـه بالغرفة، فقام في هدوء وأخذ يبحث عنها في جميع أنحاء الطابق العلوي فلم يجدها، هبط السـلم على أطراف أصابعه، فوجد شـيئًا عجيبًا لـم يكـن يخطر له على بـال. وجد زوجتـه مرتدية قميص النوم الشـفاف تفتـح بابًـا خلفيًّا لـم يـره من قبل، ولـم يكن يعلم عنه شـيئًا، وتسـللت من ذلك البـاب، فتركها تخرج وأقفلت الباب خلفهـا، وبعد فترة أخذ «ميم» يعالـج هذا الباب حتى فتحه. وخرج منه، فوجد نفسـه في الجزء الخلفي من المدينة. ذلك الجزء الذي أنكرت زوجته وجوده، ها هي ذي تتسـلل إليـه عند طلوع الفجر. وتعجب: كيف قضى كل هـذه الأيام في المدينة، وهو لا يعلم شيئًا عن هذا الجزء المترامي الأطراف؟

14

كان أول ما شعر به «ميم» في هذا الجزء الخلفي تلك الروائح الكريهة التـي تفوح من مصادر مجهولة، ورأى الشـوارع طويلـة ملتوية والأرض ملوثة بالوحل والقاذورات. سار في أحد تلك الشوارع باحثًا عن زوجته. كانت المسـاكن على الجانبين قديمة رثة والشـرفات متداعية. ظل سائرًا حتـى وصل إلى ميدان، يتوسـطه مسـتنقع قذر، وأبصر علـى ضوء الفجر رجلًا شـبه عارٍ يسير خلفه، فشعر بالخوف، وأسـرعت دقات قلبه، اختبأ في أحد الأركان المظلمة في مكان يسـمح له برؤية ذلك الرجل، دون أن يتمكن الرجل من رؤيته. تذكر «ميم» أنه سـبق أن رأى هذا الرجل، ولكنه لا يذكـر أيـن رآه، وأضـاءت ذاكرته فجـأة، فتذكر الرجـل وتذكر المكان الذي رآه فيه. إنه الواعظ، نعم، إنه هو بعينه ولا أحد سـواه! ذلك الواعظ الـذي قال: إن المدينة لم ترتكب فيها أية جريمة من أي نوع، ولم يحدث فيها ما يتنافى هو والقيم الأخلاقية الرفيعة، وأن المدينة لم تعد في حاجة إلى وعظ وإرشاد. وقف هذا الرجل وأخذ يتلفت حوله. ورأى «ميم» فتاة جميلة ترتدي قميص نوم شفافًا تقبل نحو الرجل، وتقابل الرجل والفتاة. وعنـد ذلك رأى «ميم» الفتـاة ترقص، وبعد لحظات هجـم عليها الرجل واحتضنهـا، وأخذ يقبلها في فمها ووجههـا ورقبتها وصدرها، ثم حملها

وسـار بها وهي تضحك ضحكات خليعة، فسـار «ميم» خلفهما، دون أن يشـعرا بوجوده مشدوهًا لا يصدق ما يراه. وانعطف الرجل حاملًا الفتاة، واختفيا في زقاق ضيق.

سـار «ميـم» مذهـولًا من هول مـا رأى، ثـم خطرت له فكـرة جعلت الدنيـا ظلامًـا في عينيه. إنـه لم يتحقق من وجه الفتـاة، أليس من الممكن أن تكـون زوجته؟ فرجع ودخل الحارة وأخذ يتسـلل، محاولًا النظر من خـلال الباب الـذي رآهما يدخلان منـه، ولكنه رأى البـاب مفتوحًا على مصراعيـه والرجل والفتاة يتطارحـان الغرام في بهو المنزل. أجفل «ميم» عندمـا التقت عيناه وعينا الرجل وشـعر بخجل شـديد، وظـن أن الرجل سـيفزع ويسـتحي، ولكن شـيئًا مـن ذلك لم يحـدث. لقد ابتسـم الرجل لـ«ميم»، وحياه بإيماءة من رأسـه، واسـتمر يطارح الفتـاة الغرام بلا حياء أو حـرج! لـم يتمكن «ميم» من رؤية وجه الفتـاة بوضوح، فلقد كان جزء كبير من وجهها مختبئًا خلف كتف الرجل، ولكنها عندما حركت رأسـها تمكن من رؤية وجهها، وشـعر ببعض الراحة النفسـية عندما وجدها فتاة أخـرى غير زوجته، ولكن هذه الراحة النفسـية، لـم تدم طويلًا، أليس من الممكن ما دام الأمر كذلك أن تكون زوجته في هذه اللحظة بين أحضان رجل آخر؟

ظلـت الهواجس والأفـكار تعربد في ذهن «ميـم»، كيف يحدث هذا في هذه المدينة التي نبذه فيها الجميع وأشـاحوا بوجوههم عنه أينما سار لمجرد أنه طلب من فتاة المطعم أن تؤنس وحدته ولم يكن يضمر لها أي سـوء؟ وكيف عاش طوال هذه المدة، وهو لا يعرف شـيئًا عن هذا الجزء

مـن المدينة؟ إن هذا الجـزء الخلفي يبدو وكأنه لا نهايـة له، كان يظن أن المدينة ما هي إلا ذلك الشارع، الذي يعيش فيه ويدور في طاحونته، على حين تكشـف لـه الآن أن ذلك الشـارع ما هو إلّا جزء ضئيـل، هو واجهة المدينـة، على حيـن يلتف هـذا الجزء الخلفـي حول الشـارع من جميع الجهات، فيبدو الشارع وكأنه جزيرة صغيرة تتوسط بحيرة!

أشـرقت الشـمس وغمر الضياء المدينة، وظل «ميم» سـائرًا على غير هـدى يبحث عن زوجته وقد اسـتبد به القلق. تـرى أين هي الآن؟ ولماذا تتـرك زوجهـا وطفليها وتتسـلل إلى هذا الجـزء الخلفـي العجيب؟ ماذا تفعل هنا؟ إن ما رآه يثير الفزع ويدعو للشك، كان يظن أنه علم كل شيء عن المدينة، فإذا به يكتشف الآن أنه لا يعلم عنها شيئًا!

ومـا هذه الروائـح الكريهة التي تصدم أنفه أينما سـار فـي هذا الجزء الخلفي؟ شـتان بينها وبين رائحة الورد والياسـمين التي تنبعث في جميع أنحاء الشارع! كانت هذه الأفكار تدور في رأس «ميم»، ومر عليه في هذه اللحظة سـرب من الفتيات لا يضعن على أجسادهن سوى قمصان النوم الشفافة. عندما رأينه أحطن به، وهن يرقصن رقصات فيها عنف وشهوة، فأشـاح بوجهه مبتعدًا عنهن وتركهن وهن ينظرن إليه في دهشـة، واستمر «ميم» يسير على غير هدى في شوارع طويلة ملتوية.

بدأت الشـوارع تمتلئ بالمارة شـيئًا فشـيئًا، ولاحظ «ميـم» أن بعض المارة شـبه عراة والبعض يرتدي ملابـس النوم، كل ما في هذا الجزء من المدينـة يبدو أقرب إلى العري، حتـى المنازل تبدو عارية بطوبها الأحمر

العاري الذي لا يكسوه طلاء. واعترض طريقه شاب نحيل شاحب الوجه أشعث الشعر، صوب نحو «ميم» يدًا مرتجفة، ولكنها تحمل مسدسًا وصاح قائلًا:

- كم معك من النقود؟

فارتجف «ميم» وتحسس جيوبه فلم يجد بها سوى عشرة قروش، فقال، والفزع يطل من عينيه:

- معي عشرة قروش.

فضحك الشاب، وقال ساخرًا:

- رجل مثلك يسير وليس معه سوى عشرة قروش!

ثم صاح وارتسمت على وجهه علامات الشراسة، ولو أن يده لا تزال ترتجف:

- أعطني القروش العشرة.

فأخرج «ميم» القروش العشرة وأعطاها للشاب، وسار وقد أصبح لا يملك شيئًا. وشعر بظمأ شديد، فأخذ يبحث عن جرعة ماء. وجد حانة في أعلى بابها لافتة، تحمل اسم «حانة الوحش المفترس»، فقال يحدث نفسه:

- حتى اسم الحانة مرعب!

وعلى الرغم من تلك الساعة المبكرة من الصباح، وجد الحانة غاصة بالرواد، كانت المناضد متناثرة في أنحائها بلا نظام، وقد التف حولها عدد من الرجال والشبان والفتيات وزجاجات الخمر والكئوس أمامهم يعبون منها، كان الرجل الجالس على يمين الباب، لا يرتدي سوى سروال قصير على اللحم وعلى فخذيه العاريتين جلست فتاة شبه عارية يغمرها بالقبلات، وقد أحاطت صدره بيدها اليمنى، وفي يدها اليسرى كأس من الخمر، وينبعث منها بين حين وآخر ضحكة ماجنة ممدودة. ويجلس خلفه رجل طاعن في السن ذو لحية بيضاء يرتدي منامة وعلى كل فخذ من فخذيه جلست فتاة ترتدي قميص نوم شفافًا والرجل يغازلهما ويقبّلهما. ورجل ثان يدق بيده على منضدة دقات إيقاعية، وفوق المنضدة فتاة شبه عارية ترقص وتتمايل، واختل توازنها وأوشكت أن تسقط فاحتضنها الرجل، وأخذ يتحسس جسدها ويغمره بالقبلات، ثم عادت ترقص فوق المنضدة. وفي ركن الحانة على اليسار، رجل يطارح فتاة الغرام وأربع فتيات أخريات، يدرن حولهما راقصات رقصات عنيفة.

كان الساقي واقفًا خلف طاولة طويلة، تمتد بعرض الحانة والجزء الأعلى من جسمه الذي لا تحجبه الطاولة يبدو عاريًا غزير الشعر أقرب إلى البدانة وهو ذو رقبة قصيرة غليظة ورأس كبير أصلع. وكانت تجلس على الطاولة أمام الساقي فتاة شبه عارية يغازلها ويقبلها من آن لآخر. تذكر «ميم» أنه سبق أن رأى هذا الرجل، ظل ناظرًا إليه فترة من الزمن محاولًا تذكره، وأخيرًا تذكره. إن هذا الساقي هو مأمور السجن، الذي رآه منذ يومين!

وقف «ميم» وسط الحانة مذهولًا، يدير بصره في أنحاء المكان، وقد نسـى الظمأ الذي من أجله دخل الحانة. وعندما ركز بصره على الفتيات الأربـع اللّاتـي يرقصـن، كاد يفقد عقله مـن هول المفاجـأة. إن إحداهن يعرفها جيدًا. إنها فتاة المطعم. لم يصدق ما يراه، فأخذ يفرك عينيه وينظر إليهـا فتيقـن أنها هي بعينها! كيـف يحدث هذا؟ إنها الفتاة التي أشـاحت بوجههـا عنـه، لمجرد أنـه في لحظة ضيـق طلب منها أن تؤنـس وحدته، فكيـف يراها هنا ترقص شـبه عارية، حول رجل وفتـاة يتطارحان الغرام، فـي حانة مليئة بالفسـق والفجـور! نظرت إليه الفتاة وابتسـمت، فأشـاح بوجهه عنها خوفًا من العقاب، وهم بالخروج من الحانة، فأسرعت الفتاة نحـوه وأمسـكته من ذراعه، ومنعتـه من الخروج، واحتضنتـه بقوة وقبلته بقوة في فمه وقالت:

- أريد أن أتزوجك وأقضي الليلة معك. أنت تعجبني.

فـي هـذه اللحظـة اختـل تـوازن الفتـاة التي ترقـص فـوق المنضدة، فترنحت وسقطت على رأسها فوق أرض الحانة، فقامت ضجة وصراخ، وصاح الساقي قائلا:

- لقد نفذ فيها حكم الإعدام!

وفـي مثـل لمح البصـر، وقفت أمـام باب الحانة سيارة سـوداء هبط منها رجلان يرتديان ملابس السـهرة السـود، وحملا الفتاة ووضعاها في السـيارة التـي انطلقت بعـد ذلك بأقصى سـرعتها. فتيقن «ميـم» أن ذلك المـكان ما هو إلا جـزءٌ من المدينة، الناس فيها محكـوم عليهم بالإعدام

كما هي الحال في الشارع الذي يعيش فيه... وبعد أن هدأت الضجة في الحانة، عادت الفتيات للرقص والرجال لمطارحة الفتيات الغرام، وكأن شيئًا لم يحدث.

تسلل «ميم» وخرج، وانطلق يعدو بأقصى سرعته مبتعدًا عن هذه الحانة، وإذا بفتاة المطعم تجرى خلفه وتلحق به وتحضنه بعنف، وعادت تقول:

- أنت تعجبني! أريد أن أتزوجك ولو لليلة واحدة!

اعتقد «ميم» أن هذا فخ نصب له، وقال لنفسه: إنه لن يسمح بأن يلدغ مرتين من جحر واحد! فاستجمع قوته وأفلت منها، وجرى بأقصى سرعته، فلحقت به مرة أخرى، وأخذت تحتضنه وتغمر وجهه بالقبلات وهو يحاول أن يفلت منها، وتجمع حولهما عدد من الرجال والنساء، عندما أفلت منها، في هذه المرة هجم عليه رجلان أحدهما قصير والآخر طويل، وأوسعاه ضربًا واقتاداه إلى المحكمة، وفتاة المطعم بصحبتهم، وقد بدا عليها الغضب.

وقف الرجلان أمام القاضي وخلفهما «ميم» والفتاة. كان القاضي جالسًا خلف منصة وهو شبه عار، واكتشف «ميم» أنه القاضي الذي سبق أن حكم عليه بالسجن، نظر القاضي إلى «ميم» وقال:

- ما اسمك؟

- «ميم نون».

- ما سبب قدومك لهذه المدينة؟

- البحث عن الحقيقة.

- وسبب مجيئك للجزء الخلفي من المدينة؟

- البحث عن زوجتي.

فضحك القاضي، وقال:

- الناس لا يذهبون للجزء الخلفي للمدينة للبحث عن زوجاتهم.

ثم نظر إلى الرجل القصير، وقال:

- ما التهمة الموجهة إليه في هذه المرة؟

قال الرجل القصير مشيرًا إلى فتاة المطعم:

- لقد أهان هذه الفتاة وجرح مشاعرها!

عند ذلك بدأت الفتاة تبكي، فنظر القاضي إلى «ميم»، وقال غاضبًا:

- وكيف حدث هذا؟

فقال الرجل الطويل:

- هذه الفتاة المسكينة وجدناها تستعطفه ليقضي ليله بصحبتها، ولكنه كان قاسي القلب قسوة لم أر مثلها، فلم يستجب لطلبها.

فنظر القاضي إلى «ميم» بوجه متجهم وقال:

- هل تنكر ذلك؟

فقال «ميم» في ذهول:

- كلا، لا أنكره، ولكن هذه الفتاة سبق لي إن طلبْتُ منها في المطعم، تحت وطأة شعوري بالوحدة القاسية أن تؤنس وحدتي، ولم أكن أضمر لها سوءا، بل كان طلبي بريئًا كبراءة الأطفال! ولكنني عوقبت بسبب ذلك أقسى عقاب؛ إذ أصبحت منبوذًا يشيح بوجهه عني كل من يراني، وظللت مدة طويلة على هذه الحال، وخشيت في هذه المرة أن تكون قد نصبت لي شركًا لأعاقب من جديد، ولم أعد أحتمل العذاب والعقاب، فلقد قاسيت وتعذبت في هذه المدينة بما فيه الكفاية!

فقال القاضي، وهو يتحسس صلعته:

- أنت جاهل لا تعلم شيئًا عن هذه المدينة، ولكن كيف اهتديت إلى هذا الجزء الخلفي؟

فقال «ميم»:

- صحوت من نومي في صباح أحد الأيام، فلم أجد زوجتي بالمنزل، وأخبرني الخادم أنها ربما تكون قد ذهبت إلى الجزء الخلفي من المدينة، وتكرر الشيء نفسه صباح اليوم، استيقظت من نومي فلم أجدها. واكتشفت بابًا خلفيًا بالمنزل خرجت منه لأبحث عنها، فوجدت نفسي هنا.

فـي هذه اللحظـة، عادت فتـاة المطعـم تجهش بالبـكاء، فنظـر إليها القاضي وقال:

- لماذا تبكين أيتها الفتاة الجميلة؟

قالت الفتاة:

- كنت أتمنى أن أقضي معه عدة ليال، ولكنه يرفض أن يتزوجني ليلة واحدة!

فقـام القاضـي مـن خلـف المنصـة، واحتضن الفتـاة، وأخـذ يقبلها، وقال:

- أنت فتاة جميلة. سـأقضي بصحبتك بضع ليال، إنني أشـتهيك! ثم عاد إلى المنصة، وقال موجهًا حديثه لـ«ميم»:

- أرأيت إلى أي مدى أهنت هذه الفتاة وجرحت مشاعرها؟ يالك من شاب قاسي القلب متبلد العاطفة!

ثم قال بلهجة الأمر:

- هيـا احتضنهـا، وقبلهـا، وإلا قمـت أنـا واحتضنتها بـدلا منك أيها المغفل.

احتضنهـا «ميم»، فأغضمـت عينيها، وتبادلا القبـلات، ثم قال «ميم» للقاضي:

- هل يمكنني الانصراف الآن لأواصل البحث عن زوجتي؟

فقال القاضي:

- ليس قبل تنفيذ الحكم.

فقال «ميم»:

- وما الحكم؟

قال القاضي:

- تحمـل هذه الفتاة المسـكينة المعذبة الولهانة فوق كتفيك، وتسـير بهـا في أنحاء هذا الجزء الخلفي مـن المدينة حتى يحل الظلام. هذه هي إجـراءات الزواج في هذا الجزء الخلفي للمدينة، ثم تذهبان لقضاء الليلة معًا، وتسرحها في الصباح!

فخرج «ميم» من المحكمة، وهو يحمل فتاة المطعم شـبه عارية على كتفيـه، وأخـذ يدور بها في أنحـاء الجزء الخلفي مـن المدينة، والرجلان القصير والطويل يسيران خلفهما للإشراف على تنفيذ الحكم.

وفـي أثناء سـير هذا الموكـب، امتلأت الشـرفات بالفتيـان والفتيات يغنـون لهما، ويعزفـون ألحانًا على الجيتار، حتى وصلا إلى جسـر يصل بين ضفتي نهر، تحف به المساكن على الشاطئين. نظر «ميم» إلى الجسر، فوجده متهالكًا على وشك الانهيار، فلم يجد ما يدعو إلى عبور مثل هذا الجسـر الآيـل للسـقوط، فاسـتدار ليرجع من حيـث أتى، ولكـن الرجل القصير أمره قائلًا:

- هيا اعبر الجسر.

فوقف «ميم» والعرق يتصبب منه، وقال:

- لا داعي لعبور الجسر، فهو على وشك الانهيار، والقاضي لم يأمر بذلك، فدفعه الرجل دفعة قوية نحو الجسر، وقال:

- لا بد أن تعبر الجسر.

فسار «ميم» فوق الجسر حاملًا الفتاة على كتفيه والرجلان خلفه، وأخذ الجسر يهتز هزات عنيفة في أثناء سيرهم، وأعتقد «ميم» أنه منهار لا محالة، ولكن الجسر صمد ولم ينْهَرْ. ووجد «ميم» نفسه في الضفة الأخرى للنهر؛ فتوقف عن السير وقد بلغ به الإجهاد أقصاه، والتفت إلى الرجلين، وقال:

- أنا عطشان. أريد أن أشرب.

فقالت الفتاة التي فوق كتفيه:

- وأنا جوعى. أريد أن آكل، هيا نعود إلى الحانة.

نظر «ميم» إلى الجسر، وقد امتلأ قلبه بالرعب، وقال لنفسه:

- لقد عبرته مرة في سلام، ولابد أنه سيتقوَّض في هذه المرة، ويلقي بي في مياه النهر، وأنا لا أعرف العوم.

وصاح أحد الرجلين:

- هيا اعبر الجسر. سنعود للحانة، الفتاة المسكينة الولهانة جوعى، ولابد أن تأكل.

فقال «ميم»:

- وأنا عطشان وجوعان.

فصاح الرجل الطويل قائلًا:

- إذن أسرع بالرجوع.

وعاد «ميم» يعبر الجسر، وفي كل خطوة يعتقد أن الجسر سيهوى به. وبينما هو في منتصف الجسر، إذا بسرب من الفتيات مرتديات قمصان النوم الشفافة، يندفعن نحوه من الضفة الأخرى ويغازلنه. فغضبت الفتاة التي فوق كتفيه، وأخذت تقذفهن بشتى أنواع الشتائم فانصرفن، وعبر بسلام في هذه المرة أيضًا، وسار الموكب راجعًا نحو الحانة.

وعند باب الحانة، قفزت الفتاة من على كتفيه بحركة رشيقة، وما كادت قدماها تلمسان الأرض حتى احتضنته وقبلته قبلة طويلة، و«ميم» يترنح من فرط التعب.

كانت الحانة في هذه اللحظة تكاد تكون خالية، ليس بها سوى الساقي وفتاة جميلة ترتدي قميص نوم قصيرًا كمعظم قمصان النوم، التي رآها «ميم» على أجساد الفتيات، في هذا الجزء الخلفي من المدينة. كانت الفتاة جالسة على فخذي رجل بدين يرتدي منامة، وقد أدار ظهره نحو باب الحانة، فلم يتمكن «ميم» من رؤية وجهه، ولكن الرجل عندما شعر بدخول شخص إلى الحانة استدار ليراه. عرفه «ميم» على الفور، وشعر بانقباض عندما رأى وجهه، إنه حارس الطاحونة.

جلست فتاة المطعم عند منضدة على اليمين، وجلس أمامها «ميم» منهوك القوى، ووقف عند باب الحانة «الرجلان اللذان رافقاهما»، وقال الرجل الطويل:

- لا داعي لوجودنا معكما الآن لتنعما معًا بوقت سعيد، وسنعتمد على كلمة شرف منك لتنفيذ باقي الحكم، وهو قضاء الليلة مع هذه الفتاة المسكينة الولهانة. هل تعدنا بذلك؟

فقال «ميم»، وهو يكاد يسقط جوعًا وإعياء.

- أعدكما بذلك.

وانصرف الرجلان، وقالت الفتاة لـ«ميم»:

- اطلب لي طعامًا.

فقال لها «ميم»:

- ليس معي نقود، لم يكن معي سوى عشرة قروش سرقت مني في هذا الجزء الخلفي من المدينة، لا بد أن أذهب لأدور في الطاحونة لأحصل على بعض النقود! ولكنني أرى حارس الطاحونة هنا، فهل في هذا الجزء الخلفي طاحونة أخرى أدور فيها؟

فانفجرت الفتاة ضاحكة حتى أغرورقت عيناها بالدموع، وشاركها في الضحك الساقي، وحارس الطاحونة، والفتاة الجالسة على فخذيه.

وتعجب «ميم»، إذ لم يجد في كلامه ما يدعو إلى الضحك، وقال للفتاة:

- لماذا تضحكون؟

فلم تجب الفتاة عن سؤاله، ولكنها قالت:

- سأدفع ثمن الطعام في هذه المرة، معي مال كثير، وأنت ضيفي هذه الليلة. سنسهر معًا حتى الصباح.

وسألها «ميم»:

- والمطعم.. متى ستذهبين إلى المطعم الذي تعملين فيه؟

فضحكت وقالت:

- عندي إجازة يومين.

فقال لها وتعمد أن يرفع صوته؛ ليسمعه حارس الطاحونة:

- وحارس الطاحونة، هل عنده إجازة أيضًا؟

فرد عليه حارس الطاحونة قائلًا:

- ألا تعلم لماذا أنا هنا؟

وضحك ضحكات عالية وشاركته في الضحك فتاته وفتاة المطعم، وقال له الساقي:

- ماذا تريدان أن أقدم لكما من الطعام؟

فلزم «ميم» الصمت، وقالت الفتاة:

- نريد دجاجتين مشويتين وزوجًا من الحمام المحشي وكمية من الموز وزجاجة نبيذ. لا بد أن يتغذى حبيبي جيدًا قبل أن نقضي الليلة معًا.

وضحكت ضحكة طويلة، وبعد فترة أحضر لهما الساقي الطعام المطلوب.

فقال له «ميم»:

- أنا عطشان.

فقالت الفتاة:

- أحضر لنا دورقًا من الماء المثلج.

فأسرع الساقي وأحضر الماء، فأفرغ «ميم» في معدته قدرًا كبيرًا منه، ثم هجم على الطعام فأتى عليه في بضع دقائق، وصبت له فتاة المطعم قدرًا من النبيذ ومثله لنفسها وأفرغاه في معدتهما.

وعند الانتهاء من الطعام والشراب، دخل الحانة خمس فتيات حسان يرتدين قمصان نوم قصيرة، فوقفن يتأملن «ميم»، وقالت إحداهن:

- هذا الشاب الجميل يعجبني.

فقالت فتاة ثانية:

- ويعجبني أنا أيضًا.

وقالت ثالثة:

- يبدو أنه يعجبنا جميعًا. إن أي فتاة تتمناه وترغب في قضاء عدة ليال في صحبته.

فقالت الأولى:

- سيبيت معي هذه الليلة.

وقالت ثانية:

- بل سيبيت معي أنا.

فصاحت فتاة المطعم قائلة:

- كيف تجرؤن على هذا؟ ألا ترينه جالسًا معي؟

فنشبت معركة بين فتاة المطعم وباقي الفتيات، وأخذن يتجاذبن «ميم» بينهن حتى خارت قواه، فصاحت فتاة المطعم:

- انظرن ماذا فعلتن به يا مجرمات! لقد خارت قواه قبل أن يبيت معي.

وتدخل الساقي، فطرد الفتيات الخمس اللاتي دخلن الحانة، وبقي «ميم» مع فتاته التي احتضنته وكأنها تثبت ملكيتها له، ثم قامت وجذبته من ذراعه، وسارت معه نحو منزل قريب من الحانة ذي طابقين، وأخرجت

من جيب صغير في قميص نومها مفتاحًا وفتحت المنزل ودخلت، وبقي «ميـم» واقفًا على عتبة الدار، فجذبته من يده جذبة قوية، فوجد نفسه في البهو الذي كان خاليًا من أي أثاث، ثم جرته الفتاة من يده وصعدا سلما يؤدي إلى الدور العلوي، ثم دخلا حجرة نوم بها سرير عريض وكرسيان. جلست الفتاة على أحد الكرسيين، وجلس «ميم» على الكرسي الآخر وسألها:

- هل تسكنين هنا في الجزء الخلفي من المدينة؟

فضحكت الفتاة، وجلست على فخذيه وقبلته، وقالت:

- لكل واحد من السكان منزلان، أحدهما في الواجهة، والآخر في الجزء الخلفي هذا.

فأطرق «ميم» في حزن وقد تذكر زوجته، وقال:

- لست أدري لماذا جاءت زوجتي إلى الجزء الخلفي.

فقالت الفتاة:

- أنت لم تحسن اختيار زوجتك. كنت أتمنى أن تتزوجني أنا؛ فأنا لا أشتهي سواك يا حبيبي.

فقال «ميم» في حزن:

- ترى أين هي الآن تلك الخائنة؟

- قد تكون في انتظارك بمنزلك.

وانتفضت بغتة وقامت غاضبة وصفعته على وجهه، وقالت:

- كفى حديثًا عن زوجتك! هل جئت معي لتتحدث عنها؟

وجذبتـه من يده في حركـة عصبية، وألقت به فوق السـرير وانقضت عليـه! وفـي الصبـاح صحا «ميـم» من نومـه متأخرًا فلـم يجـد الفتاة في السرير، فقام وهبط السلم، فوجد باب المنزل مفتوحًا. فتسلل منه وخرج إلـى الطريـق، وأخذ يفكر؛ تـرى ألا تزال زوجتـه هنا في الجـزء الخلفي غارقة في شهواتها، أو تراها الآن في المنزل تنتظره كما قالت الفتاة؟

15

شعر «ميم» برغبة في العودة إلى منزله، فأخذ يبحث عن الطريق المؤدي إليه. وسار محاذيًا لحافة الواجهة يبحث عن الباب الخلفي، ولكن الأبواب الخلفية كانت متشابهة، فظل يسير وهو يائس من العثور على باب منزله، وبعد أن أضناه التعب وجد بابًا خلفيًّا مفتوحًا نصف فتحة، أطل منه، فوجد زوجته واقفة خلف الباب تبكي. وما إن رأته حتى جذبته من ذراعه، وصاحت:

- أين كنت يا فاجر؟ أين قضيت ليلتك السوداء؟

فقال «ميم» مرتبكًا:

- ذهبت أبحث عنك، عندما رأيتك تتسللين إلى الجزء الخلفي. أين كنت أنت يا عاهرة؟

فارتمت على قدميه، تقبلهما باكية، وقالت:

- هل رأيتني يا حبيبي وأنا أتسلل؟ لن أذهب إلى الجزء الخلفي بعد الآن، لن أذهب أبدًا!

فقال لها في جفاء:

- أين الطفلان؟

قالت، وهي لا تزال تبكي:

- أتيت فلم أجدهما.

فصاح غاضبًا.

- وأين ذهبا؟

قالت، والدموع لا تزال في عينيها:

- لست أدري يا حبيبي! اذهب وابحث عنهما في كل مكان.

فصاح «ميم» قائلًا:

- مرة أبحث عنك، ومرة أبحث عن الطفلين! ومن المفروض أن أبحث عن الحقيقة، فهل أظل طوال حياتي في بحث مستمر؟

فاحتضنته زوجته، وقالت:

- لا تغضب مني يا حبيبي، روحي فداك، أنا لا أحب أن تغضب أو تحزن، سنذهب معًا نبحث عن الطفلين.

- وهل سنبحث في الواجهة أو في الجزء الخلفي؟

- لقد وجدت الباب الخلفي مفتوحًا والباب الأمامي مغلقًا. وهذا دليل على أنهما خرجا من الباب الخلفي.

هرول «ميم» إلى الجزء الخلفي من المدينة وخلفه زوجته، وهي لا تزال مرتدية قميص النوم. وأراد أن يسلك الطريق الذي سبق أن سار

فيـه نفسـه، ولكـن زوجته جذبته من يده بعنف، فسـارا فـي طريق آخر لم يسـبق له السـير فيه. كانت الزوجة تسـير في ثقة، تدل على إلمامها إلمامًا تامًّا بكل شـبر في هذا الجزء الخلفي، ووصلا إلى ميدان به عدد كبير من النسـاء والرجال. النسـاء مرتديات قمصان نوم قصيرة شـفافة، والرجال يرتـدون ملابس النوم، والبعـض منهم يرتدي سـروال المنامة، وقد ترك النصف الأعلى من جسـمه عاريًا. كان الجميع ملتفين حول تمثال مغطى بسـتارة حمراء، وقد وقف على منضدة قريبة من التمثال رجل، لا يرتدي سوى سروال قصير، قال الرجل:

- إن صاحب هذا التمثال يسـتحق منا الإعجـاب والتقدير، أنه أعظم لص شهدته المدينة منذ أجيال عديدة، لقد ضرب رقمًا قياسيًّا في السرقة، تصوروا أيها السادة والسيدات أنه، في يوم واحد، تمكن من سرقة عشرة آلاف جنيه! سـيظل هذا الرجل مثلًا أعلى وقدوة حسـنة تحتذى على مر السـنين والأجيـال. ومنذ أن نفـذ فيه حكـم الإعدام، لم يوجـد من يحل محله ويملأ الفراغ الذي تركه، والآن ارفعوا الستار.

ورفع السـتار الذي كان يخفـي التمثال، وإذا به تمثال رجل شـبه عارٍ ضخم الجثة ذي وجه بشـع عريـض الفكين، ضيق الجبهة، فهمس «ميم» في أذن زوجته قائلًا:

- هل تقام التماثيل هنا للصوص وقطّاع الطرق؟

فنهرته زوجته قائلة:

- اسكت، لا ترفع صوتك، لقد كان معبود الجماهير، هيا نبحث عن الطفلين.

وجرته من يده بعيدًا عن المكان، فسألها «ميم»:

- إلى أين أنت ذاهبة بي الآن؟

- إلى حيث معظم الأطفال.

- أين؟

- يوجد متجر كبير به لعب للأطفال، ربما نجدهما هناك.

وصلا إلى ذلك المحل المكون من عدة طبقات. وعندما دخلاه، وجداه مليئًا بشتى أنواع لعب الأطفال، وبه ما لا يقل عن خمسمائة طفل يجولون في أنحائه وهم شبه عراة، وينتقون ما يروق لهم من اللعب والدمى، ويخرجون بها من المحل دون أن يدفعوا ثمنها، فقال «ميم» مندهشًا:

- الأطفال يسرقون اللعب، إنهم لا يدفعون ثمنها.

فنهرته زوجته قائلة:

- اسكت، أنت لا تعلم شيئًا عن هذه المدينة.

فلم يفهم «ميم» شيئًا. كان مشغولًا بالبحث عن الطفلين بين هذا العدد الضخم من الأطفال، فلم يستوضح معنى ما قالته زوجته. وظل يدور ببصره في أنحاء المكان في قلق واضطراب، وسمع صوتًا ينادي

زوجته. التفت نحو مصدر الصوت فوجده شابًّا وسيمًا مفتول العضلات، قفز عـدة قفزات حتى وصل إليهما واحتضن زوجـة «ميم»، وأخذ يقبلها وهي تقبله، غير عابئة بوجود زوجها بجوارها الذي بدا هادئًا، وكأن الأمر لا يعنيـه، وقـد أخـذ يديـر بصـره باحثًـا عـن الطفليـن. وقالـت الزوجـة للشاب:

- أيـن كنـت يا حبيبـي؟ لقد بحثت عنـك في كل مـكان، أنا لا أحب زوجي هذا، أحبك أنت من كل قلبي.

فقال لها الشاب:

- وأنـا بحثت عنك هـذا الصباح فلم أجـدك، وحاولت الاتصال بك تليفونيًّا أمس فلم أجدك. أين كنت؟

قالت الزوجة، وقد نسيت وجود زوجها نسيانًا تامًّا:

- كنت أبحث عنك هنا!

فـي هـذه اللحظة أبصر «ميـم» ابنه يحتضن دمية كبيـرة على هيئة دب تبلـغ نصـف حجمـه، ويحاول انتقـاء لعبة أخرى، فأسـرع «ميـم» نحوه، وترك زوجته تتناجى هي وحبيبها، وأمسك بيد الطفل، وسأله بلهفة:

- أين أختك؟

فأشار الطفل نحو أحد أركان المحل، وقال:

- تركتها هنا، عند العرائس.

فحمل «ميم» الطفل على كتفه، وسار يشق الزحام نحو ركن العرائس، فعثر على ابنته تحتضن عروستين كبيرتين، وتحاول عبثا أن تحمل بيديها الصغيرتيـن عروسـة ثالثة، غيـر مدركة أن هـذا من المسـتحيل. فحملها «ميـم» على كتفه الآخر، وعاد يبحث عن زوجته، فوجدها قد اختفت من المحل.

رأى «ميم» فتاة شـقراء ترتدي قميص نوم قصيرًا، جالسـة على منصّة عالية في المحل، فاتجه نحوها ليسـألها عن ثمن هذه اللعب التي انتقاها الطفلان، ولكنه تذكر أنه لا يملك مليمًا واحدًا فوقف مترددًا، ورأى باقي الأطفال يحملون لعبهم ويخرجون دون أن يدفعوا شـيئًا، فقرر أن يسـأل الفتاة ويترك اللعب في المحل، لو أصرت على ضرورة دفع ثمنها، فتقدم نحوها وسألها:

- كم ثمن هذه اللعب التي أخذها طفلاي؟

فابتسمت الفتاة وقالت:

- ألا تعلم أننا لا نأخذ من الأطفال ثمن ما يأخذونه؟ هل من المعقول أن يمتلك الأطفال العراة نقودًا؟

ولما همّ بالخروج وعلى كتفيه الطفلان، نادته الفتاة قائلة:

- تعال يا... يا أنت.

فلم يلتفت إليها «ميم» ظانًّا أنها تنادي أحدًا غيره. فقفزت من المنصة التي تجلس عليها، وجرت خلفه، وجذبته من ذراعه، وقالت:

- ألا تسمعني؟ أنا أناديك.

فنظر إليها «ميم» مندهشًا، وقال:

- تنادينني أنا؟ لماذا؟

فقالت الفتاة مبتسمة.

- لقد أعجبتني.. شكلك جميل.

فلم يعرها «ميم» اهتمامًا وخرج. وإذا برجل عملاق، يقبض عليه من رقبته، ويقول:

- لقد أهنت هذه الفتاة وجرحت مشاعرها، يجب أن تحاكم.

فأنزل «ميم» طفليه من فوق كتفيه، وقال مندهشًا:

- أحاكم مرة أخرى؟ لا لم يعد وقتي يسمح بذلك، لديّ عمل مهم ينبغي أن أقوم به.

- وما هذا العمل المهم؟

- سأذهب لأدور في الطاحونة لأحصل على بعض النقود لزوجتي وأولادي.

فضحك الرجل العملاق وشاركته الفتاة الضحك، وطوقت «ميم» بذراعيها وأخذت تقبله.

فقال «ميم» متعجبًا:

- لماذا تضحكان؟

فتوقف الرجل عن الضحك، ولكن الفتاة ظلت تضحك. وقال له الرجل عابسًا:

- لا شأن لنا بدورانك في الطاحونة. يجب أن تحاكم أولًا

مثل «ميم» أمام القاضي نفسه مرة أخرى وطفلاه على كتفيه، والفتاة على يمينه والرجل على يساره، وقال له القاضي، بعد أن تفرس في وجهه:

- ماذا اقترفت من الجرائم هذه المرة؟

فقال الرجل الواقف على يساره:

- لقد جرح مشاعر هذه الفتاة، وأهانها إهانة لا تغتفر! قالت له: إن شكله جميل وإنه يعجبها، فلم يعرها اهتمامًا ومضى في سبيله مع طفليه!

فقال القاضي:

- لقد سبق لك أن اقترفت الجريمة نفسها، أصبحت معتاد الإجرام من أصحاب السوابق.

ثم اعتدل القاضي في جلسته، ونظر إلى «ميم» طويلًا، وكأنه يفحصه وقال:

- أنا لم أر في حياتي مثيلًا لك! هل تعلم أنك المجرم الوحيد الذي يرتكب هذا النوع من الجرائم في هذا الجزء الخلفي من المدينة؟ كل

من يأتي هنا يسرع بالاستجابة لنداء أية فتاة حسناء أو غير حسناء، وينسى زوجته إذا كان متزوجًا ويطلق لشهواته العنان! أنت الوحيد الذي لا تتغير أفكارك، ولا تتبدل في الجزء الخلفي من المدينة!

ثم ضحك القاضي، وقال:

- لم أر شخصا قبلك يحضر إلى الجزء الخلفي من المدينة ليبحث عن زوجته!

فقال «ميم»:

- وهل هذه جريمة أعاقب عليها؟

فقال القاضي، وقد انتفخت أوداجه كما يفعل الديك الرومي:

- هذا دليل على إخلاصك الشديد لزوجتك، ولكن هذا لا يعفيك من العقاب، لأنك أهنت وجرحت مشاعر هذه الفتاة الجميلة الفاتنة التي غازلتك، فلم تستجب لغزلها!

وقفز الطفلان من فوق كتفي «ميم»، ووقفا في أحد الأركان يعبثان باللعب التي في أيديهما، وقال القاضي للفتاة:

- تعالَيْ.. تعالي يا قطقوطة يا جميلة، أنا اشتهيتك! دعك من هذا الغبي الأحمق.

فاقتربت الفتاة من منصة القاضي، الذي أخذ يتحسس جسدها. ثم قام من خلف المنصّة واحتضنها وقبلها عدة قبلات، ثم عاد إلى المنصة.

فقال «ميم»، وكأنه يحدث نفسه:

- لن أحضر إلى هذا الجزء الخلفي مرة أخرى، مهما كانت الظروف والأحوال.

فضحك القاضي مقهقهًا، وقال:

- لم أر أجهل منك في حياتي، أنت لا تعلم شيئًا عن المدينة.

ونظر «ميم» حوله فلم يجد طفليه، لقد انطلقا خارج المحكمة في أثناء المحاكمة، فصاح «ميم» قائلًا:

- ابني وابنتي.. أين ذهبا؟، لقد عثرت عليهما بعد عناء، وسأعود للبحث عنهما من جديد.

فقال القاضي، وهو يملّس على صلعته:

- كل من يجيء هنا يا جاهل يعود إلى الواجهة من تلقاء نفسه، معظم الناس لا يبقون في هذا الجزء الخلفي طويلًا.

ثم أغمض القاضي إحدى عينيه، وأبقى العين الأخرى مفتوحة كعادته عندما يفكر في إصدار الحكم، وقال:

- ولو أن الجهل لا يعفي من العقاب، فإنني في هذه المرة سأعفو عنك لسذاجتك. اغرب عن وجهي، واذهب إلى منزلك بالواجهة، ستحضر لك زوجتك ويعود لك طفلاك دون حاجة للبحث عنهم، إنهم يعرفون طريقهم جيدًا.

عندما دخل «ميم» منزله من الباب الخلفي، اتجه نحو البهو فرأى زوجته جالسة وفي يدها كتاب وطفلاها ينظران إلى صفحاته، وعندما رأت «ميم»، أسرعت إليه واحتضنته وقبلته، وقالت:

- لماذا تأخرت يا حبيبي؟ لقد أقلقني غيابك!

فلم يعرها «ميم» اهتمامًا وسحب من يدها الكتاب، وأخذ يتصفحه فوجده مليئا بصور الزواحف والوحوش، فاستنتج أن الأسد والثعابين التي أفزعت الطفلين في أحلامهما مصدرها هذا الكتاب. فقالت الزوجة:

- إنه كتاب جميل، اشتريته لأسلّي به الطفلين.

فاختطف الطفلان الكتاب وأخذا يقلبان صفحاته، وبقيت الزوجة واقفة تنظر إلى «ميم» الذي لم يعرها التفاتًا، وجلس فترة صامتًا مطرقًا للأرض، ثم التفت نحو زوجته، وقال:

- من هذا الذي كنت تغازلينه أمامي في الجزء الخلفي من المدينة، وذهبت معه وتركتيني وحدي أبحث عن الطفلين؟

فأجهشت الزوجة بالبكاء وانحنت على قدمي «ميم» تقبلهما، وترك الطفلان الكتاب واحتضنا أمهما في فزع، ثم انسحبا وجلسا على أرض الحجرة والدموع تسيل من عيونهما، وقالت الزوجة ناظرة إلى زوجها وهي لا تزال راكعة أمامه:

- أنت حبيبي ولا حبيب لي سواك، أنت حبيبي!

ثم جلست على حافة الكرسي واحتضنته، وأخذت تقبل رأسه وتبلله بدموعها، فرق لها قلب «ميم» وأخذ يملِّس على رأسها ويربت على ظهرها ثم قام، وقال:

- ليس معي أي نقود وينبغي أن أذهب الآن، لأدور في الطاحونة للحصول على بعض المال اللازم لطعامنا.

فقامت وتأبطت ذراعه وقالت:

- لن أتركك تذهب وحدك يا حبيبي، سأحضر معك لأجمع النقود من الأطفال الذين سيتفرجون عليك، وأنت تدور في الطاحونة وتضرب بالسوط يا حبيبي.

ولاحظ «ميم» أنها تبذل مجهودًا لكيلا تنفجر ضاحكة، وخرجا من المنزل وأسرعا نحو الطاحونة، والطفلان يهرولان خلفهما.

فوجئ «ميم» عندما فتح باب الطاحونة بوجود حارس جديد لم يره من قبل. كان الحارسُ الجديدُ نحيلًا طويل القامة، ذا أنف يشبه أنف الببغاء وعينين خضراوين، فتعجب «ميم» وقال لزوجته:

- لقد تغير الحارس.

فقالت الزوجة:

- أنا السبب في تغييره، لقد شكوته للمسئولين وأخبرتهم أنه غير أمين، لأنه كان يستغل دورانك في الطاحونة لمصلحته الخاصة، ويجمع نقودًا من الأطفال الذين يتفرجون عليك، فعوقب عقابًا شديدًا واستبدل

بـه غيره وسـمحوا لي أنا بجمع النقود من المتفرجيـن، فأنا صاحبة الحق في ذلك.

لم يكن الحارس الجديد أقل قسـوة على «ميم» من الحارس القديم، بل كان أشـد قسوة، لقد ظل يلهب ظهره بالسوط بشراسة ووحشية طوال فترة الدوران حتى تفجر الدم من ظهره، وأخذ يئن أنينًا خافتًا متصلًا، ولما انتهـى من الدوران، كانت الزوجة قد جمعت من الأطفال أربعة جنيهات وأربعين قرشـا، وساروا جميعا نحو السوق لشراء لوازم الطعام، وفوجئ «ميـم» بأن الأسـعار فـي هذه الفتـرة القصيرة قد قفزت من جديد بشـكل جنونـي لدرجة أن شـراء طعام بسيط، يكفي أفراد هـذه العائلة الصغيرة، تكلـف نحو ثلاثة جنيهات ونصف الجنيـه! فقرر «ميم» أن تكتفي العائلة بوجبة واحدة في اليوم، ورغب في شراء بدلة جديدة بدلا من تلك البدلة (الوحيـدة) التـي تمزقت في معظم أجزائها، كما تمنى أن يشـتري قميصًا جديدًا بدلًا من ذلك القميص الذي صبغته الدماء. فقادته زوجته إلى أحد المتاجر المعروفة باعتدال أسـعارها، وسـأل عن ثمـن البدلة والقميص، فشـعر بالـدوار عندما علـم أن ثمن البدلـة ثلاثون جنيهًا وثمـن القميص أربعـة جنيهـات! فخـرج من المتجـر مطـرق الرأس يائسًـا حزينًـا، دون أن يشـتري شـيئًا، وتيقـن أن هذه البدلة التي على جسـده وهـذا القميص الملوث بالدماء سيلازمانه طوال حياته!

ظـل «ميم» طـوال اليـوم مكتئبًـا، فاقترحـت زوجتـه أن يذهبـا لزيارة الرجـل الـذي كانـت تعمل عنـده، فوافـق «ميم» علـى الفـور، فاتصلت الزوجة تليفونيًّا، وأخبرت الرجل برغبتها في زيارته فرحّب بذلك.

وفي المساء تركا الطفلين بالمنزل، وذهبا لزيارة ذلك الرجل. وعندما ضغطت الزوجة على زر جرس الباب، فتحته فتاة شقراء طويلة القامة زرقاء العينين، عندما رأتها الزوجة عانقتها وقبلتها، وعندما دخلا وجدا البهو غاصًّا بالزائرين والزائرات، فوقف صاحب الدار وتقدم نحوهما بوجه باسم صبوح، وصافح «ميم» بحرارة، وعندما صافح الزوجة مالت عليه، وهمست في أذنه كلمات لم يسمعها «ميم»، ولكنه رأى الرجل يومئ برأسه، وبدا وكأنه يوافق على ما أسرته له الزوجة، ثم تولى تقديم «ميم» وزوجته إلى جميع الزائرين، ثم قال مشيرًا إلى الزوجة:

- هذه الفتاة كانت تعمل عندي هنا، ولها عندي مكانة خاصة، ولقد زوجتها هذا الشاب، عندما وجدته في حاجة إلى من يؤنس وحدته.

وأفسح مكانًا لـ«ميم» وزوجته ودعاهما للجلوس متجاورين، وأخذ «ميم» يفكر:

- هل حقيقة هو الذي زوَّجني هذه الفتاة؟ هل هو الذي رتب وخطط لهذا الزواج؟ وهل صادف زواج هذه الفتاة مني هوى في نفسها أو اضطرت لقبوله إرضاءً لهذا الرجل؟ وهل هي على علاقة بذلك الشاب، الذي طارحته الغرام في الجزء الخلفي من المدينة؟

وانتزعه من هذه الأفكار الحزينة صوت الرجل، عندما قال:

- ولقد أهدى لهما مالك المدينة طفلين جميلين، ذكرًا وأنثى.

والتفت إلى «ميم» وسأله:

- كيف حال الطفلين؟

فقال «ميم» وهو شارد الذهن:

- بخير.

فقال الرجل:

- هل ألحقتهما بالمدرسة؟

لقد فوجئ «ميم» بهذا السؤال، ولم يخطر على باله من قبل، فارتبك لحظة ثم قال:

- كلا، لم يلتحقا بالمدرسة بعد.

فنظر إليه الرجل نظرة عتاب وقال:

- وماذا تنتظر، ينبغي أن ترسلهما غدا للمدرسة. هذه هي رغبة مالك المدينة.

فقال «ميم»، وقد شعر بعبء جديد يلقى على كتفيه:

- سأفعل ذلك.

وأخذ «ميم» يدور برأسه فاحصًا الزوار. كانوا ثلاثة رجال وزوجاتهم، كل زوج يجلس بجوار زوجته، كانوا جميعًا يرتدون ملابس جديدة بديعة الألوان متقنة التفصيل؛ مما جعل «ميم» ينكمش خجلًا من ملابسه الممزقة. وتعجب من أين يحصلون على المال، الذي يشترون به مثل هذه الملابس الفاخرة؟!

كان الرجال في مثل سن «ميم» والزوجات في مثل سن زوجته. كان أحدهم سريع الكلام تبدو عليه العصبية، يحرك يديه كثيرًا عندما يتكلم وهو دائمًا متحمس مرتفع الصوت. أما زوجته الجالسة بجواره، فكانت هادئة الأعصاب قليلة الكلام، ذات عينين ساحرتين سوداوين، وشعر أسود طويل مرسل على ظهرها. أما الزائر الثاني، فكان قصير القامة بارز الكرش قصير العنق قمحي اللون هادئ الحديث منخفض الصوت يبدو دائما مبتسمًا، على حين كانت زوجته نحيلة البدن طويلة العنق واسعة العينين بيضاء البشرة ذهبية الشعر، تضع ساقًا فوق ساق، وتحرك قدمها حركة عصبية. وكان الزائر الثالث مفرط الطول عريض المنكبين عملاقًا تبدو زوجته بجواره وكأنها عصفورة وديعة، تتحدث دائمًا دون أن تنظر لمن تحدثه، بل تسبل جفنيها على عينيها ذواتي الأهداب الطويلة.

نظر صاحب البيت إلى الرجل العصبي المرتفع الصوت، وقال:

- كنت تتكلم، أكمل حديثك.

فقال، وهو يحرك يديه في عصبية:

- كنت أقول: إنني صحوت اليوم من نومي، فوجدت ورقة حمراء ألقيت من تحت باب المنزل، وعندما قرأتها اعترتني رجفة وشعرت بدوار.

فقال صاحب المنزل:

- وماذا قرأت فيها؟

فقال الرجل العصبي:

- وجدت فيها إنذارًا بتنفيذ حكم الإعدام في ولدي الوحيد.

في هذه اللحظة فتحت زوجته حقيبة يدها، وأخرجت منديلًا صغيرًا مسحت به دموعًا سالت من عينيها، وقال صاحب المنزل:

- وماذا فعلت؟

فقال الرجل العصبي:

- جئت أرجوك لتتوسط لي لدى مالك المدينة؛ ليعفو عن ابني المسكين ويؤجل تنفيذ حكم الإعدام فيه، فهو وحيدي وهو شديد الذكاء، يحبني ويحب أمه حبًّا شديدًا، وإذا لم يقبل مالك المدينة العفو عنه فأرجو أن ينفذ فينا حكم الإعدام، أنا وأمه، فنحن لا نطيق الحياة بدونه.

وتهدج صوته عندما نطق بالجملة الأخيرة وأجهشت زوجته بالبكاء، فاعتدل صاحب المنزل في جلسته، وقال:

- أنا لا أنكر أنني وثيق الصلة بمالك المدينة، ولكنه في كثير من الأحيان لا يستجيب لرجائي.

وقالت زوجة الرجل العصبي، وهي تمسح دموعها:

- نتوسل إليك أن تبذل كل ما في وسعك لتأجيل حكم الإعدام فيه.

فقال صاحب المنزل:

- أعدكما أن أبذل ما في وسعي، ولو أنني لا أجد ما يدعوكما لكل هذا الحزن والألم.

فنظر إليه الشاب العصبي، وقال:

- هل تطلب منا ألا نحزن أو نتألم لتنفيذ حكم الإعدام في ابننا الوحيد؟

فقال صاحب المنزل في هدوء:

- كلنا محكوم علينا بالإعدام إن عاجلًا أم آجلًا، وعلاوة على ذلك فإن تنفيذ حكم الإعدام ليس نهاية الحياة. لقد قلت لكم ذلك مرارًا.

فقال الرجل القصير المبتسم دائمًا:

- أنا شخصيًا أتمنى أن أصدّق ذلك، ولكنَّ في أعماق نفسي شعورًا لا سيطرة لي عليه يرفض التصديق. أسمع صوتًا في أعماق نفسي يقول: إن تنفيذ حكم الإعدام هو النهاية.

وقالت زوجة الرجل القصير، وهي تهز قدمها في عصبية:

- لو عاد إلينا أحد الذين تم تنفيذ حكم الإعدام فيهم وأخبرنا فقد نصدقه، ولكن الذين يُلقى بأجسادهم في البالوعة لا يعودون إلينا، فمن أين لنا أن نعرف الحقيقة؟

فظل صاحب المنزل ناظرًا إليها، فترة من الزمن، ثم قال:

- هناك مدينة أخرى يمتلكها مالك هذه المدينة، مدينة تفوق مدينتنا هذه جمالًا، ومالك المدينة يعتز بتلك المدينة الأخرى اعتزازًا عظيمًا ويهتم بها اهتمامًا بالغًا، وتلك المدينة الأخرى بطبيعة الحال في حاجة لمن يسكنها، فمن أين يأتي سكانها؟

فقال الرجل المبتسم دائمًا:

- من المكان نفسه الذي أتى منه سكان هذه المدينة.

فقال صاحب المنزل:

- كلا، إن سكانها هم سكان هذه المدينة أنفسهم، يذهبون إليها بعد تنفيذ حكم الإعدام فيهم، ويمرون بمدينتنا هذه مرورًا عابرًا.

قال «ميم»:

- الذي يحيرني أنني لا أعلم من أين أتيت. لقد وجدت نفسي في يوم من الأيام في هذه المدينة ولا أذكر مطلقًا من أين أتيت. كل الذي علمته من مكتب الاستعلامات هو أنني أتيت لمهمة محددة، وهي البحث عن الحقيقة، ولست أدري ما تلك الحقيقة، التي أتيت لأبحث عنها هنا.

في هذه اللحظة حدث شيء عجيب: أخذ الزوار ينظرون بعضهم لبعض نظرات غريبة، ثم قام الرجل العملاق واحتضن «ميم» وقبل رأسه. ثم حذت حذوه زوجة العملاق التي تقدمت نحو «ميم» والدموع تلمع في عينيها، وقبلت رأس «ميم» في صمت، وانسابت الدموع من عيون

باقي الزوار وتقدموا بدورهم، وقبلوا رأس «ميم» رجالًا ونساء، وهو مستسلم في دهشة وذهول، وقد عجز عن تعليل هذا السلوك الغريب. فأطرق للأرض في صمت، وقفزت في ذهنه في هذه اللحظة سلسلة الآلام والأحزان التي قاساها، منذ أن وجد نفسه في هذه المدينة، وقطع صاحب المنزل تيار أفكاره، عندما قال:

- ولماذا توقفت عن إرسال تقاريرك عن الحقيقة؟ ألا تعلم أن من واجبك أن تكتب عددًا من هذه التقارير؟

فقال «ميم» بصوت متهدج، مقاومًا الانفجار بالبكاء:

- لم يطلب مني أحد كتابة هذه التقارير.

فقال صاحب المنزل:

- ولكنك أرسلت تقريرًا واحدًا، بعد فترة وجيزة من وجودك في المدينة، ولم ترسل غيره.

فقال «ميم» مندهشًا:

- أنا أرسلت تقريرًا عن الحقيقة؟ متى؟ أنا لم أرسل شيئًا.

فقال صاحب المنزل:

- ألم تقدم شكوى لمالك المدينة، تشرح فيها ما تلاقيه من عذاب، وتلتمس منه نقلك إلى مدينة أخرى؟

- نعم، فعلت ذلك، ولكن هل اعتبر هذا تقريرًا؟

فقال صاحب المنزل مبتسمًا:

- إنـك تقرر فيـه حقيقة، ولذا فلقـد اعتُبر تقريرًا، متى ترسـل تقريرك الثاني؟

فقال «ميم» وهو يقاوم البكاء:

- لا أجـد وقتًـا لكتابـة أي تقريـر، إن وقتـي مـوزع بين الـدوران في الطاحونـة والسـعي للحصـول علـى ما يمسـك رمقي من طعـام. وكنت بمفردي في بادئ الأمر، ولكنني أصبحت الآن مطالبًا بتلبية رغبات زوجة وطفلين، والبحث عنهم في الجزء الخلفي للمدينة، عندما يتسللون إليها بدون علمي.

ثم تهدج صوته ولمعت عيناه بالدموع، وهو يقول:

- إنني دائـم الـدوران فـي الطاحونة ولقـد تمزق ظهـري من ضرب السـياط وَأُعْطَى أجرًا ضئيلًا في مقابل ذلـك، ولا أجد معي في أية لحظة ما يكفي الطعام.

ومسـحت زوجة العمـلاق دموعًا، طفـرت من عينيهـا، ومالت على زوجها وقالت:

- أمـن أجل هذا يرتدي هذه الملابـس الرثة البالية، ويلطخ الدم ظهر سترته؟

فقال زوجها، وكأنه يحدث نفسه:

- إنه أشرف من في هذه المدينة.

وفـي هـذه اللحظـة، اندفـع الرجـل العصبي نحـو صاحـب المنزل، وانحنى أمامه، وقبل قدميه قائلًا:

- أتوسـل إليك أن تتوسـط لي عند مالك المدينة؛ لإنقاذ حياة ولدي وتأجيل تنفيذ حكم الإعدام فيه.

فقام صاحب المنزل غاضبًا، وقال:

- سأبذل كل جهدي، سأبذل كل جهدي.

واعتبـر قيام صاحب المنزل إنهاء للزيارة فقام الجميع، وقال صاحب المنزل:

- أرجو أن تكون هذه الزيارة سـببًا للتعارف بينكم جميعًا، ولا تنسـوا أن «ميـم» مـا زال يعانـي من الوحـدة، على الرغـم من وجـوده بين أفراد أسرته.

وخـرج جميع الزوار ما عدا «ميم» الذي ظل واقفًا ناظرًا إلى صاحب الدار وبجواره زوجته، فسأله صاحب الدار:

- أرى في ذهنك سؤالًا حائرًا تريد أن تسأله.

فقال «ميم»:

- أجل، في ذهني سؤال يحيرني.

- ما هو؟

فقال «ميم» بعد لحظة تردد:

- أنت على علاقة وطيدة بمالك المدينة، أليس كذلك؟

- بلى.

فأطرق «ميم» للأرض لحظة، ثم رفع رأسه وقال:

- هل هو خيّر أم قاسٍ؟

فقال صاحب الدار في هدوء، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة:

- ماذا تظن أنت؟

فقال «ميم» في عصبية:

- من يسمح بكل هذا العذاب في مدينته فلا أظن أنه خيّر!

فوضع الرجل يده على كتف «ميم»، وقال:

- كل العذاب الذي تراه في هذه المدينة شيء تافه لا قيمة له. ستعلم ذلك في لحظة من اللحظات، تيقن أن مالك المدينة يحب الخير ولا يحب الشر. وللشر رسالة لا تقل عن رسالة الخير.. هل يقدّر الجمال من لم يعرف القبح؟ هل يدرك معنى النور من لم يعرف الظلام؟ إننا نرى الخير من خلال الشر، وإن لم نر الشر فهل نعرف معنى الخير؟ لن يبهرك جمال المدينة الأخرى، إن لم يرعبك شر هذه المدينة!

قال «ميم» بعد تردد، وهو مطرق للأرض:

- أريد أن أرى مالك المدينة! هل أستطيع أن أراه؟

فابتسم صاحب المنزل، وقال:

- لقد سألتني هذا السؤال عند زيارتك لي في المرة السابقة. لماذا أنت مصمم على رؤيته؟

- لأتحدث إليه، وأستفسر منه عن أشياء كثيرة، وأشكو إليه ظلمي وعذابي!

فوضع صاحب الدار يده على كتف «ميم»، وقال مبتسمًا:

- عندما أتمكن أنا من رؤيته، سأدعوك لتراه.

وخرج «ميم» بصحبة زوجته واتجها نحو منزلهما، وقال لزوجته مندهشًا:

- هذا الرجل الوثيق الصلة بمالك المدينة يدَّعي أنه لم يره، هل هذا معقول؟ لقد بدأت أشك في وجود مالك لهذه المدينة.

فقالت الزوجة غاضبة:

- إنه لا يكذب، وما دام قال إنه لم ير مالك المدينة، فينبغي أن تصدقه، وعدم رؤية الشيء لا يدل على عدم وجوده. المدينة لا وجود لها بالنسبة لشخص أعمى وأطرش وفاقد لجميع الحواس، ولكن هذا لا يعني أنها غير موجودة.

قال «ميم»:

- ولكنه قال لي عند زيارتي له أول مرة إنه يقضي مع مالك المدينة أمسيات طويلة.

- إنه يقضي مع مالك المدينة أمسيات عديدة، ولكنه ما دام قد قال إنه لم يره، فيجب أن نصدّقه فهو لا يكذب أبدًا.

- أنا لا أفهم هذا، كيف يقضي معه أمسيات عديدة ولا يراه؟ هل يجلس خلف حجاب؟

فضحكت وقالت:

- لست أدري! لم أكن معهما!

ظل «ميم» يسير بجوار زوجته، وهذه الأفكار تدور في ذهنه، ثم التفت إلى زوجته وقال:

- لمْ تنطقي بكلمة واحدة طوال الزيارة.

فقالت الزوجة:

- لا تنس أن هذه أول مرة أزوره في منزله كضيفة، بعد أن كنت خادمته. وعلاوة على ذلك، فلقد كنت طوال مدة الزيارة أفكر في طفلينا، ترى ماذا حدث لهما وقد تركناهما وحدهما بالمنزل؟

فشعر «ميم» بجسده يرتجف خوفًا وقلقًا على الطفلين، وأسرعا الخطى نحو المنزل.

16

بحثا في جميع أنحاء المنزل فلم يجد الطفلين، فجلست الزوجة تبكي وتقول:

- لقد أضعناهما، لن نراهما بعد اليوم.

شعر «ميم» بالحزن يعتصر قلبه، وفكر في الخروج للبحث عنهما في جميع أنحاء المدينة. وفي هذه اللحظة فتح الباب ودخل الخادم، فسأله «ميم» بلهفة:

- هل تعرف أين ذهب الطفلان؟

فجلس الخادم على إحدى درجات السلم المؤدى إلى الدور العلوي، وقال:

- رأيتهما يتسللان إلى الجزء الخلفي من المدينة.

فاندفع «ميم» نحو الباب المؤدى إلى الجزء الخلفي للمدينة، ولكن الخادم استوقفه قائلًا:

- منذ فترة قصيرة، وصلت هذه الرسالة.

وأخـرج من جيبه ورقة حمراء، اختطفها «ميم» منه بلهفة، وقد وقفت زوجتـه خلفـه محاولة معرفة مـا فيها، ومـا كاد يقرؤها حتى شـعر بدوار وترنح وأوشك أن يسقط، فأسرعت زوجته واحتضنته قائلة:

- مالك يا حبيبي؟ ماذا قرأت في هذه الورقة؟

فقال «ميم»، والدموع تسيل من عينيه:

- إنذار بتنفيذ حكم الإعدام في الطفل ابننا.

فصرخت الزوجة، كمن فقد عقله قائلة:

- ابني، حبيبي، سـينفذ فيه حكم الإعدام! هيا نبحث عن الطفلين في الجزء الخلفي. أريد أن أرى الطفلين.

خرجـت كالمجنونـة من البـاب الخلفي و«ميـم» في إثرهـا، وانطلقا يبحثـان عـن الطفليـن، كان الضوء خافتًا فـي الجزء الخلفـي، وكان أول مـا صادفهما تلـك الروائح الكريهة التـي تزكم الأنـوف، والتي لا يعرف أحـد مصدرهـا. ومـا كادا يسيران بضع خطـوات، حتى شـاهدا رجلين لا يستر جسد أي منهما سوى قطعة صغيرة من قماش قذر تخفي عورته. كان الرجلان يتشـاجران. أحدهما في نحو السـبعين هزيل الجسم يحمل خنجـرًا، والآخر في نحـو الثلاثين قوي البنية مفتول العضلات، فأشـفق «ميم» على الرجل العجوز. ولكن دهشته كانت عظيمة، عندما رأى ذلك الرجـل الذي في نحو السـبعين يسـدّد نحو الشـاب المفتـول العضلات ضربـة قوية، جعلـت الدم يتدفق من أنفه وفمه، ثـم يجثم فوقه ويغمد في صـدره خنجـرًا، وترك جثـة الرجل غارقة فـي الدماء، وسـار متجهًا نحو

حانة قريبة من المكان، ورجل الشرطة واقف يبتسم دون أن يفعل شيئًا. وأقبلت سيارة سوداء حملت الجثة وانطلقت مبتعدة عنهم، فصاح «ميم» قائلا للعسكري، الذي يبدو شبه عار، ويعلق في عنقه قلادة تحمل شارة الشرطة:

- لماذا لا تتحرك؟ لماذا لا تفعل شيئًا؟ لقد ارتكبت أمام عينيك جريمة قتل، وأنت واقف تبتسم.

فنظر إليه الشرطي، وقال مندهشًا.

- اسكت. أنت لا تفهم شيئًا في هذه المدينة.

فقالت الزوجة لشرطي:

- ألم تشاهد طفلًا وطفلة هنا؟

فقال رجل الشرطة:

- شاهدت عديدًا من الأطفال.

ثم انقض رجل لشرطة على زوجة «ميم» وقبّلها وقال لـ«ميم»:

- تعجبني زوجتك! لقد أحسنْت الاختيار!

وابتسمت الزوجة لرجل الشرطة، ثم طوقته بذراعيها، وقالت:

- وأنت تعجبني. أنت وسيم، أجمل من زوجي!

صفعها «ميم» على وجهها فانفجرت تبكي، وارتمت في أحضان رجل الشرطة، الذي أخذ يتحسس جسدها ويقبلها قائلًا:

- لا تبكي يا عزيزتي، إنه زوج متوحش، لقد أسأتِ الاختيار!

فجذبها «ميم» من يدها وأخذ يجرها معه، وهو يعدو، وهي تتلفت من آن لآخر نحو رجل الشرطة، وترسل له قبلة في الهواء، وتلوح له بيدها مودعة وهو يلّوح لها.

قال لها «ميم» غاضبًا:

- أنسيت أننا جئنا هنا لنبحث عن طفلينا، وأن ابننا تلقى إنذارًا بتنفيذ حكم الإعدام فيه؟

فجلست الزوجة على الأرض، وأخذت تبكي وتلطم خدها، وتقول:

- ابني، حبيبي، أين أنت الآن يا حبيبي؟ وأين أنت الآن يا ابنتي؟

جذبها «ميم» من ذراعها، فقامت، وأخذ يعدو باحثًا عن طفليه، وهي تعدو خلفه تبكي وتولول، فأمسك يدها وسارا معًا في حارة ضيقة وسمع «ميم» صفيرًا منبعثًا من أعلى، فالتفت إلى مصدر الصوت، فوجد العملاق الذي قابله عند زيارته للرجل الذي كانت زوجته خادمة عنده، ونظرت زوجته، فرأت العملاق وسمعته يقول لها:

- أنا أحبك! أحببتك عندما رأيتك في الزيارة. تعالَيْ عندي نسعد معا فترة من الوقت. أنا لا أحب زوجتي! أحبك أنت!

كان «ميم» لا يزال قابضا على يد زوجته، فجذبت يدها بشدة، وأفلتت منه، قائلة:

- سأذهب لأرى ماذا يريد مني هذا الرجل؟ فلقد أعجبني عندما رأيته في الزيارة!

وجرت مندفعة نحو باب منزل ذلك الرجل، فجرى «ميم» خلفها ليمنعها من الدخول، ولكنها سبقته وأسرعت بدخول المنزل، وأغلقت الباب خلفها في وجه «ميم»، الذي نظر إلى الشرفة، فرأى العملاق قد اختفى داخل منزله. وقف «ميم» فترة من الزمن حائرًا لا يدري ماذا يفعل، فترك زوجته في منزل ذلك الرجل، وأسرع الخطى باحثًا عن طفليه والعرق يتصبب منه. كان يسير على غير هدى في أزقة مظلمة ممزق النفس، متلهفا على لقاء طفليه، ومتألمًا من سلوك زوجته التي نسيت طفليها، وارتمت في أحضان ذلك العملاق، ووجد نفسه في ميدان به ما يشبه مدينة للملاهي، فتوقع أن يرى طفليه في هذا المكان. ولكنه لم يجدهما، بل وجد فتاة ترقص مرتدية قميص نوم قصيرًا شفافًا، وحولها من الرجال ما لا يقل سن أحدهم عن ستين عامًا يصفقون لها. ووجد عجلة شاهقة الارتفاع معلقًا بها عدد من الأراجيح. كل أرجوحة ذات كرسيين متقابلين. وقد شغل جميع الكراسي عدد هائل من النساء العجائز والرجال كبار السن، يصرخون ويصيحون ويهللون كما يفعل الأطفال، والعجلة تدور بأقصى سرعتها.

ترك «ميم» هذا الميدان، وأخذ يعدو على غير هدى في شارع، لم يسبق له السير فيه. تمنّى أن تكون معه زوجته التي تعرف جميع خبايا هذا الجزء الخلفي من المدينة، لترشده إلى محل لعب الأطفال، الذي سبق أن وجد فيه طفليه. وفي أثناء سيره في هذا الشارع، كان يطل عليه

من الشـرفات ومن أبواب المنازل فتيات شـبه عاريات مرتديات قمصان النوم القصيرة، يغازلنه ويدعونه لممارسـة الحب. ورأى من بينهن فتيات ونسـاء سـبق أن رآهن في الشـارع الذي يسـكن فيه، ولـم يكن يجرؤ على مجرد النظر إليهن! ولـم يكن يتصور أن يراهن شبه عاريات في هذا الجزء الخلفي من المدينة. تعرف من بينهن على فتاة مكتب الاستعلامات، كما رأى زوجـة العمـلاق، التي كانت تبدو فـي أثناء الزيارة خجـولًا لا تكاد ترفـع عينيهـا عـن الأرض، ولكنها هنا تبتسـم لـه وتدعوه ليصعـد إليها. وشـعر باكتئـاب عندما تذكـر أن زوجته لابـد أن تكـون الآن في أحضان ذلك العملاق زوج هذه السيدة. لم يعرهن «ميم» أي اهتمام، ومضى في طريقه يبحث عن طفليه.

ظل يعدو في شوارع ذلك الجزء من المدينة وقد أنهكه التعب، وفكر في أن يسـتريح ويلتقط أنفاسـه في أحد المقاهي، ولكنه في هذه اللحظة سـمع بكاء طفلة فانقبض قلبـه، واتجه نحو مصدر الصـوت، فوجد ابنته جالسة تبكي وقد تمدد أمامها أخوها في شبه غيبوبة والدم يسيل من ساقه المجروحـة، ومـا إن رأت الطفلـة أباهـا حتى ارتمت فـي أحضانه، وهي تنتحب وقالت:

- لقد صدمته سيارة مسرعة، فجرحته وألقته على الأرض.

حمـل «ميم» ولده الجريح على كتفه وسـحب ابنته من يدها، وانطلق بهمـا عائـدًا إلى منزلـه. وعندمـا دخل المنزل، أسـرع بوضـع ولده على السـرير وأخـذ يضمد جراحه ويناجيـه بصوت مرتعش متهـدج، والطفل لا ينطق ولا يتحرك. أحضر كمية من الماء رشـها على وجه الطفل، ففتح

عينيه وبدأ يبكي. وفي هذه اللحظة أقبلت زوجته، التي عادت لتوها من الجزء الخلفي للمدينة. ولما رأت طفلها بهذه الحال، صرخت قائلة:

- ابني حبيبي، ماذا حل بك يا فلذة كبدي؟ ماذا جرى لك يا قرة عيني؟

فدفعها «ميم» دفعة قوية ألقت بها على الأرض، فقامت تترنح وتصرخ حتى خارت قواها، وارتمت على حافة السرير والدمع يبلل خديها. جذبها «ميم» من يدها جذبة قوية، فاعتدلت في جلستها، وقال لها:

- ماذا نفعل الآن؟ لا بد أن نفعل شيئًا، لن نتركه حتى ينفذ فيه حكم الإعدام، فقالت الزوجة بصوت ضعيف:

- اذهب إلى الرجل الذي كنت أعمل عنده، والتمس منه السعي لدى مالك المدينة لتأجيل حكم الإعدام.

فخرج «ميم» من المنزل، وانطلق يعدو نحو منزل ذلك الرجل، وشعر بإرهاق شديد ودوار، وأحس بساقيه تنهاران تحته، فسقط على الأرض خائر القوة. وحاول أن ينهض من كبوته، ولكن ساقيه لم تتمكنا من حمله، ومرت بجواره سيارة يقودها شاب في نحو العشرين، ولما رأى «ميم» ملقى على الأرض، أوقف السيارة وأسرع إليه، وسأله:

- إلى أين أنت ذاهب أيها الأخ الكريم؟

فنظر إليه «ميم» بعينين يبللهما الدمع، وقال:

- وصلني إنذار بتنفيذ حكم الإعدام في ولدي الصغير، وكنت في طريقي إلى رجل أعرفه، ليتوسط لي لدى مالك المدينة لإلغاء حكم الإعدام، وفي الطريق خارت قواي.

فقال له الشاب:

- تنفيذ حكم الإعدام لا يلغى، ولكنه يؤجل، فكل أهل المدينة محكوم عليهم بالإعدام. ألا تعلم ذلك؟

ومد يده، فساعده على الوقوف، وحمله إلى السيارة، وجلس الشاب خلف عجلة القيادة، وانطلقت السيارة بأقصى سرعتها نحو العنوان الذي ذكره «ميم».

استقبله الرجل بحفاوة، وفزع عندما رآه في هذه الحالة من الحزن والقلق والإرهاق، وسأله:

- ماذا حدث؟

فقال «ميم» بصوت مضطرب:

- وصلنا إنذار بتنفيذ حكم الإعدام في طفلي.

فقال الرجل:

- سأبذل كل جهدي لتأجيل تنفيذ الحكم.

وخرج من الصالون، وترك «ميم» وحده فترة من الزمن، ثم عاد متهلل الوجه مبتسمًا، وقال:

- لقد نجح مسعاي وتقرر تأجيل تنفيذ حكم الإعدام في ولدك. ولكن على شرط.

فقال «ميم» في لهفة:

- أنا أقبل جميع الشروط مهما كانت.

استمر الرجل في حديثه قائلًا:

- على شرط أن تدور في الطاحونة مائة دورة، ويلهب ظهرك بمائة سوط.

فقال «ميم» على الفور:

- أقبل كل هذا في سبيل تأجيل حكم إعدام ابني.

وانحنى يقبل يد الرجل ثم هوى على قدميه يقبلهما، وخرج من المنزل منطلقًا نحو الطاحونة، وعندما دخل الطاحونة وجد الحارس الأول البدين، الذي استقبله بوجه عبوس، وقال:

- كانت زوجتك سببًا في عقابي وإبعادي عن الطاحونة بعض الوقت، وهأنذا قد عدت من جديد لأسومك العذاب!

وبدأ «ميم» يدور في الطاحونة، والحارس يلهب ظهره بالسوط بقوة ووحشية لم يعهدهما من قبل. ولكن «ميم» احتمل كل هذا في سبيل تأجيل حكم الإعدام في ابنه، وأتم الدورات المائة، وعاد متجهًا نحو منزله بأقصى سرعته.

وعندما دخل المنزل، وجد الخادم جالسًا على إحدى درجات السلم المؤدي إلى الدور العلوي، فسأله بلهفة:

- أين زوجتي وطفلاي؟

فقال الخادم وهو مطرق للأرض، دون أن ينظر إليه:

- لقد شفي ابنك الجريح، وأخذ يعدو ويقفز في جميع أنحاء المنزل فأخذته زوجتك هو وأخته، وذهب الجميع إلى الجزء الخلفي من المدينة.

فصاح «ميم» في غضب:

- إلى الجزء الخلفي مرة أخرى في هذا الظلام! ولماذا ذهبوا إلى الجزء الخلفي؟

فقال الخادم بدون اكتراث:

- هذا السؤال يوجه لزوجتك.

وقام الخادم وهبط باقي درجات السلم، ودخل غرفته وأغلق بابها.

فكر «ميم» في الذهاب إلى الجزء الخلفي للبحث عن عائلته، ولكنه شعر بإرهاق شديد، فصعد السلم وألقى بجسده فوق السرير. وبعد نحو ساعة، سمع صوت أقدام تصعد السلم، ورأى ابنه وابنته يقتحمان الغرفة، فقفز «ميم» من السرير واحتضن ابنه وسأله:

- كيف حالك الآن؟

فقال الطفل:

- لقد شفي الجرح، وأصبحت أستطيع الجري كما كنت.

وقال «ميم»:

- أين أمكما؟

فقالت الطفلة:

- طلبنا منها الحضور معنا، ولكنها فضلت أن تبقى مع الرجل الطويل العريض.

فضرب «ميم» كفًّا بكف، وقال:

- مع الرجل الطويل العريض مرة أخرى، وتترككما تأتيان وحدكما؟

فقالت الطفلة:

- أنا لا أحب هذا الرجل، إنه يخيفني!

أطرق «ميم» إلى الأرض حزينًا، ثم قام ووضع الطفلين في سريرهما، وبعد لحظات كانا في سبات عميق. ظل «ميم» ينتظر عودة زوجته، ولكنه شعر برغبة شديدة في النوم، فلم يستطع المقاومة، وتمدد على السرير ولم يلبث أن استغرق في النوم.

في الصباح استيقظ من نومه، وفتح عينيه ولكن زوجته لم تكن بجواره. وتعجب كيف تقضي الليل بطوله في الجزء الخلفي من المدينة. ونظر إلى

سرير الطفلين فلم يجدهما. فقام مسرعًا وهبط السلم، فرأى الطفلين في البهو يلهوان باللعب التي أخذاها من محل اللعب وأخذا يتشـاجران، كلٌّ يريد أخذ لعب الآخر، ففض المشـاجرة التي نشبت بينهما، وجلس على أحد الكراسي، ووضع رأسه بين كفيه وأخذ يفكر في زوجته. ثم سمع وقع أقدام على السـلم فرفع رأسـه، ورأى طفليه ينزلقان على درابزين السلم، فنهرهما وطلب منهما ألا يفعلا هذا مرة أخرى. فانسحبا نحو ركن البهو، وبدأ الشـجار بينهما مرة أخرى. فقام ليفض المشـاجرة من جديد، ولكن الطفـل ظل يصرخ مطالبًا بدميته التي اسـتولت عليهـا الطفلة واحتضنتها بقـوة. فحاول «ميـم» أن يأخذ منها الدمية ويعيدهـا للطفل، ولكن الطفلة ظلـت قابضـة عليها بكل قوتها، وأخذت تصرخ هـي الأخرى. وفي أثناء هذه الزوبعة، فتح الباب الخلفي ودخلت الزوجة، وهي تترنم بأغنية ذات لحن جميل. فكف الطفلان عن الصراخ، ووقفا في ركن البهو، وقد لزما الصمت. ولما رأت الزوجة «ميم»، أقبلت نحوه وسألته في لهفة:

- ماذا صنعت يا حبيبي؟ لقد عوفي ابننا والتأمت جراحه.

فقام «ميم» وهو مطرق الأرض، متحاشيًا النظر إليها:

- درت فـي الطاحونة مائة دورة، وألهب ظهري بمائة سـوط كشـرط لتأجيل حكم الإعدام.

فاحتضنته زوجته، وأخذت تقبله قائلة:

- أنت حبيبي، أنت سيد الرجال!

فقال «ميم» ساخرًا وهو لا يزال ناظرًا نحو الأرض:

- سيد الرجال! أمن أجل هذا تركتيني وتسربت إلى الجزء الخلفي لمقابلة الرجل العملاق، في الوقت الذي كنت أشقى فيه كل هذا الشقاء؟

فاختنقت بالبكاء، وقالت:

- أنت تعلم يا حبيبي أن الذهاب إلى الجزء الخلفي للمدينة يتم بدون إرادتنا، ولا يمكننا السيطرة عليه! أنت حبيبي ولا أحب سواك! أنت نور عيني وبهجة فؤادي! هل فكرت يا حبيبي في تكاليف المدارس؟ الطفلان سُيلحقان بالمدارس غدًا، ولم تحضر لهما الملابس اللازمة، ولم تدفع لهما المصروفات.

فنظر إليها «ميم» لحظة، ثم أطرق للأرض، وقال:

- لم تعد معي نقود، لقد درت في الطاحونة في هذه المرة بلا أجر.

فنظرت إليه، وقد اتسعت عيناها دهشة، وقالت:

- ولكنك رب الأسرة، وأنت المسئول عن تدبير كل ما تحتاج إليه الأسرة من مال.

فقال غاضبًا:

- وماذا تريدين مني أن أفعل الآن؟

فطوقت عنقه بيدها وقبلته، وقالت:

- تـدور فـي الطاحونـة يـا حبيبي. فـي هذه المـرة سـيعطونك أجرًا، وسأجمع من المتفرجين عليك بعض النقود.

فقال غاضبًا:

- لقد درت ليلة أمس مائة دورة، وضربت مائة سوط ولا يزال ظهري داميًا ملتهبًا، فهل تنتظرين مني أن أذهب الآن وأدور من جديد؟

فقفزت الزوجة وجلست على فخذيه، وقالت بدلال:

- هيا يا حبيبي لا تكن كسولًا أنت سيد الرجال!

فقام «ميم» والدم ما زال ينزف من ظهره، وسار متجهًا نحو الطاحونة وخلفـه زوجته وقد أمسـكت بيدي الطفلين، وأخـذت تغني أغنية مرحة، وتجمـع خلفهـم فـي أثنـاء سـيرهم عـدد هائل مـن الأطفـال، يصيحون ويهللون ويهتفون، فقالت الزوجة لـ«ميم»، وفي عينيها بريق الفرح:

- انظـر يـا حبيبـي إلـى هـذا الموكـب الهائـل مـن الأطفـال، الذين سـيتفرجون عليك وأنت تدور في الطاحونة وتضرب بالسـوط! سيكون الإيراد كبيرًا في هذا اليوم المفترج، ألا يسعدك هذا؟

ظـل «ميـم» يدور فـي الطاحونة مـن الصباح؛ حتى أضيئـت مصابيح الشـارع في المسـاء، وكانت زوجته تحثه على إطالة مـدة الدوران؛ لكي تضمـن تجمـع أكبر عدد من المتفرجين. ولما انتهـى من الدوران، أعطاه الحارس عشـرين قرشًـا كالمعتاد، ولـم يضع في الاعتبـار المدة الطويلة التـي قضاها «ميـم» في الـدوران في هذه المـرة، وعندما خـرج من باب

الطاحونة وجد زوجته تكاد تطير فرحًا، وفي يدها النقود التي جمعتها من الأطفال تعدها بلهفة. ثم نظرت إلى زوجها المنهوك القوي، وقالت، ووجهها متهلل من الفرحة:

- لقد جمعت اليوم من المتفرجين ستة جنيهات وثلاثين قرشًا!

وسار «ميم» نحو منزله يجر ساقيه، والدم ينزف من ظهره وبجواره زوجته وابنه وابنته، وخلفهم موكب من الأطفال يصيحون، ومروا بجوار محل لبيع الملابس الجاهزة، فقالت الزوجة:

- هيا نشتري ملابس المدرسة للطفلين من هذا المحل؟

فقالت «ميم»، وقد بدأ يفقد توازنه:

- أشعر بدوار وإعياء شديد.

فجذبته زوجته نحو باب المحل قائلة:

- من العار أن يشكو الرجل، الرجال لا يشكون يا سيد الرجال، هيا هيا.. ثم دفعته دفعة قوية، فوجد نفسه داخل المحل، وخلفه زوجته وقد أمسكت بيد الطفلين. وظل موكب الأطفال مرابطًا أمام باب المحل، يشرئبون بأعناقهم ويضحكون؛ لمشاهدة «ميم» وهو يسير مترنحًا كالسكران من شدة الإعياء.

أخذت الزوجة تنتقي ملابس الطفلين، ثم سألت عن الأسعار فأخبرها البائع أن ثمن الثوبين سبعة جنيهات، فنظرت إلى زوجها وقالت:

- النقود غير كافية يا حبيبي، يلزمنا خمسون قرشًا أخرى.

فقال «ميم»، وقد شعر بيأس قاتل:

- وماذا نفعل؟

- تدور في الطاحونة بضع دورات أخرى.

- لا أستطيع الدوران. أكاد أسقط إعياءً!

فقال الزوجة غاضبة.

- أنت المسئول عن تكاليف الأطفال ومصروف المنزل، هل تنتظر مني أن أذهب أنا وأدور في الطاحونة؟! لماذا تزوجت إذا كنت لا تستطيع الإنفاق على أسرتك؟

ثم قالت آمرة:

- هيا إلى الطاحونة، ولا تجعلني أخجل من زواجي منك، وألعن اليوم الذي رأيتك فيه!

فخرج «ميم» من المحل، وسار يجر ساقيه وهو في شبه غيبوبة وجذبته زوجته من يده، فكاد يسقط على الأرض، وحملت طفلتها على كتفها وأمسكت يد الطفل، وخلفهم الأطفال صائحين مهللين، واتجه الموكب نحو الطاحونة، ظل «ميم» يدور في الطاحونة ويُضرب حتى دخلت زوجته، وهمست في أذنه قائلة:

- كفى دورانًا، لقد جمعت من المتفرجين ثلاثة جنيهات أخرى.

فتوقف «ميم» عن الدوران، وأعطاه الحارس خمسة قروش أجرًا على دورانه، وسار الموكب متجهًا نحو متجر الملابس، وقد أصبح معهم نحو تسعة جنيهات. قالت الزوجة للبائع، وهي متهللة الوجه:

- لقد أحضرنا النقود المطلوبة، الجنيهات السبعة ونريد شراء الملابس قال البائع:

- لقد ارتفع السعر في هذه الفترة، وأصبح ثمن الملابس ثمانية جنيهات.

فصاحت الزوجة غاضبة:

- هل ترتفع الأسعار من سبعة جنيهات إلى ثمانية جنيهات في ساعة واحدة؟

فقال البائع غاضبًا:

- ولماذا تصيحين في وجهي؟ لست أنا المسئول عن ارتفاع الأسعار!

فقالت الزوجة ملوحة بيدها أمام وجهه، وقد أوشكت أن تضربه:

- ومن المسئول؟ أريد أن أرى هذا المسئول! لقد دار زوجي في الطاحونة طوال النهار والليل؛ ليحصل على هذا القدر من المال من الطاحونة ومن المتفرجين عليه، ولم يعد في استطاعته الدوران دورة واحدة أخرى.

في هذه الأثناء، جاء صبي وسـلـم البائع ورقة صغيرة صفراء، وعندما قرأها أطرق للأرض في حزن، وقال:

- لقـد ارتفعـت الأسـعار مرة أخـرى في هـذه اللحظـة، أصبح ثمن الملابس تسـعة جنيهات. لو كنتم أسرعتم بشرائها بدلًا من هذا الصراخ، لوفرتم لأنفسكم جنيهًا!

فاختطفـت الزوجـة الملابـس، وأسـرعت بدفـع الجنيهات التسـعة وخرجـت من المحل وهي تجر معها طفليها وزوجها، الذي أصبح يتعثر فـي خطاه من شـدة الإعياء، وسـاروا نحـو المنزل في زفة مـن الأطفال. وما كادوا يخطون بضع خطوات، حتى انهار «ميم» وسقط على الأرض. وفـي هـذه اللحظـة توقفت بجوارهما سـيارة حمـراء، وهبـط منها رجل يرتـدي بدلـة حمراء وسـلم الزوجة ورقة حمـراء. سـألها «ميم» بصوت ضعيف:

- ماذا في هذه الورقة؟

فقالت الزوجة في هدوء، وكأن الأمر لا يعنيها:

- إنذار بتنفيذ حكم الإعدام فيك يا حبيبي.

وسـحبت الزوجة طفليها، واتجهت مهرولة نحو المنزل تاركة «ميم» ملقى على الأرض، لا يقوى على القيام، وحوله حشد هائل من الأطفال يرقصون ويغنون.

17

بعد دقائق، توقفت سيارة بيضاء، تقودها فتاة جميلة في نحو العشرين، ذات عينين زرقاوين واسعتين وشعر كستنائي ناعم غزير، هبطت الفتاة من السيارة وشقت طريقها بين الأطفال، وساعدت «ميم» على النهوض وأسندته حتى أوصلته إلى السيارة وعاونته حتى جلس في المقعد الخلفي وانطلقت بالسيارة.

عندما وقفت السيارة أمام أحد المباني، كان «ميم» قد استرد بعض قوته، قفزت الفتاة من السيارة برشاقة وفتحت له الباب الخلفي، وأمسكت بيده حتى هبط من السيارة، وظلت ممسكة بيده، وهما يجتازان حديقة تسبح في الأضواء الساطعة. كان «ميم» يسير مع الفتاة وكأنه في حلم، ظل صامتًا ونظر إلى المبنى، فوجده قصرًا رائع البناء أخضر اللون ذا نوافذ زرقاء. صعدا معًا الدرجات المؤدية إلى باب المنزل، وأخرجت الفتاة من حقيبة يدها مفتاحًا وفتحت الباب، فوجد «ميم» البهو ممتلئًا بالفتيات والشبان والرجال، يرقصون على أنغام موسيقى هادئة شجية تعزفها فرقة موسيقية. ولأول مرة التفت «ميم» إلى الفتاة وسألها:

- أين نحن؟

فقالت الفتاة مبتسمة:

- في بيتي.

أخذ «ميم» يدير عينيه في أنحاء البهو مندهشًا، وقال للفتاة:

- ما هذه الضجة؟

قالت الفتاة:

- موسيقى ورقص وعشاء.

قال «ميم»:

- وما المناسبة السعيدة؟

فنظرت إليه بعينيها الزرقاوين الساحرتين، وقالت:

- لا شيء! أنت تعلم أن جميع أهل المدينة محكوم عليهم بالإعدام، ولذا فمن الضروري أن نرفه عن أنفسنا من آن لآخر؛ لننسى ذلك المصير الرهيب، الذي ينتظرنا حتى لا نظل في غم ورعب، طوال فترة حياتنا القصيرة.

فأطرق «ميم» للأرض ودمعت عيناه، وقال:

- وصلني اليوم إنذار بتنفيذ حكم الإعدام.

فقالت الفتاة في فزع جعل عينيها تزدادان اتساعًا وجمالًا:

- تنفيذ حكم الإعدام فيك أنت؟

- أجل.

فسحبته من يده وسارا يشقان طريقهما بين المدعوين والمدعوات وصعدا معًا درجات السلم المؤدى إلى الدور العلوي. ودخلا غرفة نوم ذات جدران فستقية اللون وستائر صفراء، وطلبت منه أن يستلقي على السرير، وغادرت الغرفة. ثم عادت بعد دقائق، وفي يدها إناء به سائل ولفافة كبيرة من القطن، وفي حرص شديد خلعت سترته الممزقة وقميصه المهلهل الملوث بالدماء، وغمست قطعة من القطن في السائل وأخذت تضمد جراحه، ولاحظت هزاله الشديد حيث كانت ضلوعه يمكن عدها ضلعًا ضلعًا، وكأنه هيكل عظمي. فترقرقت الدموع في عينيها وقالت:

- أنت شديد الهزال مثخن بالجراح، ما الذي فعل بك هذا؟

فقال «ميم» وقد أسبل جفنيه على عينيه:

- الدوران في الطاحونة والضرب بالسياط وضيق ذات اليد.

فقالت الفتاة في لهفة ودهشة:

- لأي غرض أتيت إلى هذه المدينة؟

فقال «ميم»:

- البحث عن الحقيقة.

فانسابت الدموع من عيني الفتاة، وهوت على رأسه تقبلها، وأسرعت بالخروج من الغرفة، وسمع «ميم» وقع خطواتها، وهي تقفز هابطة

درجات السلم، وهو في دهشة لا يعرف تفسيرًا لهذا السلوك. توقف عزف الموسيقى، وبعد لحظات سمع وقع أقدام عديدة تصعد السلم ودخلت الفتاة الغرفة، ووقفت بجواره، ونظر فوجد حشدًا من الناس يقفون بالباب، انحنت الفتاة وقبلت رأسه، وتبعتها فتاة أخرى ثم شاب ثم رجل.. وهكذا أخذ الجميع يقبلون رأسه واحدًا بعد الآخر، ثم خرجوا من الغرفة وسمع خطواتهم، وهم يهبطون السلم في بطء، وظلت الفتاة واقفة بجواره، فقال لها:

- لماذا يقبلون رأسي؟

فجلست الفتاة على حافة السرير، ووضعت يدها على جبهته، وقالت وكأنها تحدث نفسها ودموعها تنساب على خديها:

- حملك ثقيل وحظك قليل وهمومك تنوء بحملها الجبال.

تعجب «ميم» من تأثر الفتاة وبكائها من أجله، وهي التي لم يرها في حياته قبل اليوم، في حين أن زوجته التي يشقى من أجلها لم تذرف من أجله دمعة، وهي تراه يدور في الطاحونة ويُلهب جسده بالسوط، بل كانت تضحك كلما سمعته يذكر الطاحونة، وتركته ملقى على أرض الشارع منذ لحظات، وتذكر «ميم» أن ظل ابتسامة خفيفة كان قد لاح على شفتيها، وهي تخبره عن الإنذار بحكم الإعدام، الذي قرأته في الورقة الحمراء. تمنى في أعماق نفسه لو أن الظروف كانت قد أتاحت له فرصة رؤية هذه الفتاة الرقيقة التي ضمدت جراحة وبكت من أجله؛ ليتزوجها بدلًا من

زوجته الحالية إذا كان لا بد من الزواج، وفي هذه اللحظة انتفضت الفتاة واقفة في فزع، وقالت:

- نسيت أنك تلقيت إنذارًا بتنفيذ حكم الإعدام فيك. ينبغي أن أفعل شيئًا لتأجيل تنفيذ الحكم.

فقال «ميم»، وفي صوته رنة يأس:

- لم يعد الأمر يهمني. لم تعد لي رغبة في الحياة.

فأطرقت الفتاة نحو الأرض لحظة، وبدت وكأنها تفكر تفكيرًا عميقًا، ثم قالت:

- أعرف رجلًا وثيق الصلة بمالك المدينة، سأتصل به تليفونيًا، وألتمس منه التوسط لتأجيل تنفيذ حكم الإعدام.

وانطلقت تعدو خارج الغرفة، وبعد قليل عادت متهللة الوجه وقالت:

- لقد قبل مالك المدينة تأجيل تنفيذ حكم الإعدام فيك.

وجلست بجواره على حافة السرير ناظرة إليه مبتسمة. وخطرت لـ«ميم» فكرة غريبة، أن تلك الفترة التي أضيفت إلى عمره لم تعد من حق زوجته التي تركته ملقى في الطريق، وهو منذر بتنفيذ حكم الإعدام فيه ولاذت بالفرار، بل رأى أن من واجبه أن يكرس ما امتد من عمره لإسعاد تلك الفتاة، صاحبة الفضل في تأجيل تنفيذ حكم الإعدام، ولكن كيف

يسعدها؟ هل يتزوجها لتحل محل زوجته الحالية؟ ولكن هل يسعدها زواجها منه؟ كلا، بل سوف يشقيها، من الأفضل لها أن يظل بعيدًا عنها، إنه لا يحب أن تشقى معه. كانت هذه الأفكار تدور في رأس «ميم»، وشعر بأنه استرد قوته، فقفز من السرير، فنظرت إليه الفتاة مندهشة وقالت:

- إلى أين أنت ذاهب؟

فقال:

- سأذهب إلى منزلي، إلى زوجتي وأولادي.

فازدادت دهشة الفتاة، وقالت:

- زوجتك؟ هل أنت متزوج؟

- نعم، ولي طفل وطفلة.

- مسكينة زوجتك! إنها لا تعلم أنك سقطت في الطريق من شدة الإعياء، وأن حكم الإعدام كان على وشك أن ينفذ فيك!

فقال «ميم» بمرارة:

- كانت زوجتي معي، عندما سقطت إعياءً في الطريق.

فرفعت الفتاة حاجبيها في دهشة وقالت:

- كانت معك! مسكينة! وماذا فعلت؟

- تركتني ملقى في الطريق ولاذت بالفرار.

- أنا لا أصدق.

فقال «ميم» محاولًا التماس العذر لزوجته:

- ربما تكون قد ذهبت للسعي لتأجيل حكم الإعدام.

فأطرقت الفتاة للأرض لحظة، ثم نظرت إليه، وقالت:

- كلا، لم تفعل ذلك، عندما اتصل الرجل بمالك المدينة ملتمسًا تأجيل حكم الإعدام فيك، عرف أن أحدًا لم يتصل بمالك المدينة من قبل بشأن هذا الموضوع.

أطرق «ميم» للأرض في حزن، واتجه نحو باب الغرفة، فاعترضت الفتاة طريقه قائلة:

- لا تذهب قبل تناول الطعام، هيا معي.

سار معها «ميم» مستسلمًا وهبطا معًا السلم نحو الدور الأرضي، كان جميع المدعوين قد انصرفوا، وساد الصمت في جميع أنحاء المنزل، وعلى أحد الكراسي بالبهو رأى «ميم» رجلًا كهلًا ضامر الجسم مرتديًا روبًا منزليًا أزرق اللون، يضع على حافة أنفه نظارة مستغرقًا في مطالعة إحدى الصحف، وبجواره امرأة في نحو الأربعين يدل مظهرها على أنها كانت ذات حسن وبهاء في شبابها. كانت منهمكة في تطريز قطعة من القماش، قالت الفتاة لـ«ميم» مشيرة نحو الرجل:

- هذا أبي.

فنظـر الأب إلـى «ميـم» مبتسـمًا وقام بصعوبـة وصافحـه، ثم جلس واستأنف قراءة الصحيفة، ثم قالت الفتاة مشيرة نحو السيدة:

- وهذه أمي.

فرفعت الأم رأسـها وابتسـمت ومدت يدهـا لـ«ميـم» وصافحته، ثم استأنفت التطريز، وقالت الفتاة:

- وجدتـه ملقًى فـي الطريق منهوك القـوى، وقد وصله إنـذار بتنفيذ حكم الإعدام فيه.

فنظر كل من الأب والأم إليه، وقالت الأم:

- مسكين!

فقال الأب:

- كلنا مساكين! جميع أهل المدينة محكوم عليهم بالإعدام.

فأطرقت الفتاة للأرض لحظة، ثم رفعت رأسـها، وقالت وفي صوتها رنة حزن:

- إنه يدور في الطاحونة ويُلْهَب جسده بالسياط.

ثـم توقفـت عن الحديـث لحظـة، وقالت وقـد أسـبلت جفنيها على عينيها:

- لقد أتى إلى المدينة ليبحث عن الحقيقة.

فأسرع الأب بإلقاء الصحيفة التي كانت في يده، وتركت الأم القماش الذي كانت تطرزه، وقام الأب واقترب منه وقبّل رأسه، ثم حذت الأم حذوه، وجلس الأب مطرقًا للأرض، وخبأت الأم وجهها بيديها وبدت كما لو كانت تبكي. وقالت الفتاة لـ«ميم»:

- هيا معي لتناول الطعام.

وقادته إلى غرفة طعام فاخرة، ازدحمت مائدتها بشتى أنواع الغذاء الشهي والحلوى والفاكهة. جلس «ميم» وجلست الفتاة أمامه في الجهة المقابلة، استندت بمرفقيها على المائدة، ووضعت كفيها على خديها، ونظرت إلى «ميم» وقالت:

- اعتبر نفسك في منزلك.

فأقبل «ميم» على الطعام يلتهمه، والفتاة لا تحول نظرها عنه، وعندما انتهى من تناول الطعام، قال للفتاة:

- أشعر الآن بالحياة تدب في جسدي. أشكرك من أعماق قلبي.

فنظرت إليه الفتاة بعينين مبتسمتين ولزمت الصمت، فقال لها «ميم»:

- ما اسمك؟

- اسمي (لام)، واسمك؟

- اسمي «ميم».

قال الفتاة وعيناها لا تزالان تبتسمان:

- اسمان متقاربان، الميم في الحروف الهجائية تجلس دائمًا بجوار اللَّام!

فقال «ميم»، وكأنه يحدث نفسه:

- ليتنا نفعل كما تفعل حروفنا الهجائية!

فضحكت الفتاة ضحكة رقيقة، واستولى على «ميم» إحساس جديد لم يكن له عهد به من قبل، إنه لا يستطيع الحياة بعيدًا عن هذه الفتاة، فأطرق للأرض وقال، دون أن ينظر إليها:

- غريبة تلك المدينة.

- كيف؟

- الإنسان لا يعثر على الفتاة التي صنعها مالك المدينة لتعيش معه ويسعدا معًا، إلا بعد أن يكون قد تورط في الزواج من فتاة أخرى لا تصلح له!

فأسبلت جفنيها وقالت:

- ألا تحب زوجتك؟

- لا أحبها ولا تحبني.

فقالت، وقد اتجه نظرها بعيدًا عنه:

- ولماذا تزوجتما؟

فقص عليها ظروف زواجه منها، فنظرت إليه وقد تلاشت ابتسامتها، وظلت تحدق في وجهه نحو دقيقة، وقالت:

- آه! لقد تذكرت.. تذكرت الآن كل شيء!

فقال «ميم» مندهشًا:

- تذكرت ماذا؟

قالت وهي تسترجع في ذاكرتها ذلك المشهد:

- لقد رأيتك في القاعة في تلك الليلة.

فنظر إليها بدهشة وقال:

- هل كنت في تلك القاعة في ذلك اليوم؟

- كنت أجلس بجوار الفتاة التي تزوجتها، وابتسمت لك كما ابتسمت هي. ولكنك لم ترني ولم تر ابتسامتي. فماتت ابتسامتي على شفتيّ، كانت الفتاة التي تزوجتها تبتسم لكل شاب تراه. ولكنني في تلك الليلة لم أبتسم لأحد سواك، ولكنك لم تر ابتسامتي.

فلمعت الدموع في عيني «ميم»، وقال:

- هذا من سوء طالعي.

فقالت الفتاة في تأثر واضح:

- أنا أعرف زوجتك معرفة جيدة، كما أعرف نقائصها.

فقال «ميم» وقد شعر بالألم يعتصر قلبه:

- إنه قدري! ولا يد لنا في كل ما يحدث، ما نحن سوى دمى يحركها مالك المدينة.

نظرت الفتاة إليه بعينيها النجلاوين، وقالت:

- كلا، أنت الذي تصنع قدرك، مالك المدينة يصنعنا ويمدنا بالقدرة على الحركة والتفكير ويترك لنا حرية الاختيار، إنه لا يجبرنا على حركة معينة او اختيار شيء بالذات!

فقال «ميم»:

- ولكنني سمعت أننا دمى لا نتحرك إلّا بأمر مالك المدينة، كما تتحرك العرائس عندما تحرك الخيوط المتصلة بها!

- كلا هذه العرائس نحركها بأيدينا؛ لأنها لا قدرة لها على الحركة من تلقاء أنفسها ولم يضع لها صانعها عقلًا في رأسها، ولكن مالك المدينة وضع في رؤوسنا عقلًا وزودنا بالقدرة على الحركة والتفكير، وتركنا نصنع بأنفسنا ما نشاء، نحن دمى من نوع آخر.

- هل تعتقدين ذلك؟

- بل أنا واثقة من ذلك كل الثقة. كل فرد من أفراد هذه المدينة هو الذي يصنع قدره في حدود معينة.

- وماذا تقصدين بتلك الحدود المعيّنة؟

فلزمت الصمت فترة غير قصيرة، وبدت وكأنها مترددة في الكلام، ثم قالت:

- أنت مثلًا: لقد أخبرك مكتب الاستعلامات أنك أتيت إلى المدينة للبحث عن الحقيقة، هذا هو قدرك الذي لا يمكن تغييره، ولكن لك تمام الحرية في اختيار زوجتك أو في البقاء بلا زواج لو أردت، وأنا مثلًا: عندما رأيتك ملقى في الطريق، كان لي مطلق الحرية في أن أتركك في مكانك وأمضي في سبيلي، أو أحضرك معي إلى منزلي. لم يحركني مالك المدينة ويجبرني على اتخاذ سلوك معين في هذا المجال! إن مالك المدينة يشعر بمتعة، وهو يراقبنا من خلال أجهزة التليفزيون الخاصة به، ليعرف كيف نتصرف. إنه لن يشعر بأية متعة لو حركنا وأملى علينا جميع تصرفاتنا.

في هذه اللحظة، أطل الأب من باب غرفة المائدة والصحيفة لا تزال في يده وأشار لابنته، فأسرعت إليه وأسرّ في أذنها بضع كلمات، ثم عاد إلى مكانه بالبهو، فاستسمحت الفتاة «ميم» في الغياب عنه بضع لحظات، وخرجت من الغرفة تعدو، وسمع «ميم» وقع خطواتها على درجات السلم، ثم عادت وفي إحدى يديها مشجب، يحمل بدلة، وفي اليد الأخرى، قميص جديد، وقالت لـ«ميم»:

- أبي متأثر جدًّا وأمي بكت كثيرًا لارتدائك هذه الملابس البالية، ونرجو أن تستبدل بها هذه البدلة وهذا القميص.

شـعر «ميم» بخجل شـديد، هل بلغت به الفاقة هـذه الدرجة، فأصبح مظهـره يدعو للرثـاء ويتصدق عليه الناس بالطعام والكسـاء؟ ومن الذي يتصدق عليه؟ الفتاة التي ابتسـمت له ليتزوجها ولم ير ابتسامتها. لو رأى ابتسـامتها وابتسـم لها في ذلك اليـوم لأصبحت الآن زوجتـه. ولكنه في مسيس الحاجة لهذه البدلة ولهذا القميص. ومهما دار في الطاحونة، فلن يتمكـن من توفير مبلغ من المال، يكفي شـراء بدلـة وقميص. دارت هذه الأفـكار في ذهـن «ميم»، ثم مد يده وأخذ البدلـة والقميص، وهو مطرق للأرض وقد أحمر وجهه خجلًا ودمعت عيناه، وقالت الفتاة:

- سأتركك لحظة ريثما ترتدي هذه الملابس.

وغـادرت الغرفـة وأغلقـت الباب خلفهـا، خلع «ميم» ملابسـه الرثة البالية وارتدى الملابس الجديدة، ونظر في المرآة التي تعلو البوفيه فرأى نفسـه وقد بدا وسـيمًا أنيقًا. فتحت الفتاة الباب فتحة صغيرة، أطلت منها فوجـدت «ميم» مازال ناظرًا لصورته في المرآة، فدخلت الغرفة مبتسـمة وقالت:

- أرأيت كيف تغير مظهرك؟ كل فتاة في المدينة تتمنى أن تتزوجك.

فقال «ميم»، وكأنه يحدث نفسه:

- ولكنني لم أتغير، ملابسي هي التي تغيرت.

فقالت الفتاة:

- الغلاف الجميل يسترعى الأنظار إلى الكتاب القيم.

وتذكر «ميم» في هذه اللحظة ابنه وابنته وأنهما في حاجة إلى الطعام، وتمنى لو يستطيع توفير المال اللازم لطعامهما، واشتاق لرؤية طفليه، فقال للفتاة:

- لقد اشتقت لرؤية ابني وابنتي، ولابد أن أسرع الآن بالعودة إلى منزلي.

فأطرقت الفتاة للأرض في حزن، وقالت:

- كنت أحب أن يطول بقاؤك بيننا!

فصافحها وخرج من غرفة المائدة والفتاة خلفه، كان الأب والأم لا يزالان جالسين في مكانيهما بالبهو. مد يده إلى الأب، فقام وصافحه بحرارة، وصافح الأم واتجه نحو باب المنزل والفتاة بجواره فصافحها مرة أخرى، فضغطت على يده، وقالت:

- أحب أن أراك كثيرًا.

فقال «ميم»، والدموع تلمع في عينيه:

- يسعدني أن أراك. سأحضر لزيارتكم كلما سمحت ظروفي بذلك.

شيعته الفتاة حتى باب الحديقة وأسرع الخطى نحو منزله.

كان نور الصباح قد بدأ يغمر المدينة. وفي منتصف الطريق، وضع «ميم» يده في جيب البدلة الجديدة، التي يرتديها فوجد نقودًا. أخرجها وعدها فوجدها خمسين جنيهًا، فتعجب؛ إذ لم يكن في جيوب بدلته القديمة مليم واحد، فاعتقد أن الفتاة لم تفتش جيوب البدلة قبل إهدائها

إليه، وأنه لا حق له في هذا المبلغ الذي تركوه سهوًا في أحد جيوبها. فعاد إلى بيت الفتاة مرة أخرى، وعندما فتحت الباب، ورأت «ميم» بدت على وجهها الدهشة المشوبة بالفرح، وقالت:

- أنا سعيدة لرؤيتك مرة أخرى، تفضل.

فظل «ميم» واقفًا عند عتبة الباب، وأخرج من جيبه مبلغ الخمسين جنيهًا، وناولها الفتاة قائلًا:

- وجدت هذه النقود في أحد جيوب البدلة.

فلم تمد الفتاة يدها لتأخذها وقالت، وفي صوتها رنة حزن:

- أمن أجل هذا عدت؟

فقال «ميم»:

- كان لابد أن أعود لأسلم لكم هذه النقود، التي لا حق لي فيها.

فقالت الفتاة مبتسمة:

- أنا التي وضعتها في جيب البدلة؛ لأريحك من عناء الدوران في الطاحونة بعض الوقت ريثما تندمل جراحك!

فالتقط «ميم» يد الفتاة وقبلها، وقال:

- أنت أرق وأنبل من رأيت في حياتي.

وأسرع بالخروج من حديقة المنزل، وهو مطرق للأرض والفتاة تشيعه بنظراتها إلى أن اختفى، وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

18

ما كاد «ميم» يبتعد بضع خطوات عن منزل تلك الفتاة، حتى رأى شيئًا عجيبًا. رأى على أحد جانبي الشارع عددًا من العمال، يرتدون سراويل زرقاء وعلى رؤوسهم خوذات معدنية رمادية اللون لامعة، منهمكين في إقامة مبنى وقد ارتفع ارتفاعًا شاهقًا، مستعينين بآلات عجيبة مذهلة ترفع الأحجار وترصها وتلصقها معًا في مثل لمح البصر! وقف «ميم» على الجانب الآخر من الطريق محملقًا، يتابع هذا المشهد الغريب. مر عليه شاب، وقد وضع يديه في جيبي سرواله وأخذ يصفر بفمه أنغامًا مرحة. سأله «ميم» عن هذا المبنى الذي يرتفع بسرعة البرق، حتى أصبح الواقف على الرصيف لا يستطيع رؤية قمته، إلا إذا نظر إليه وهو منبطح على ظهره على الأرض، فظهرت الدهشة على وجه الشاب، وأخرج يديه من سرواله، وقال:

- ألا تعرف؟! إنه البرج.

فلم يفهم شيئًا، وعاد يسأل الشاب:

- وما الغرض من إقامة مثل هذا البرج الشاهق بهذه السرعة؟

فقال الشاب، وقد ازدادت دهشته:

- هـذا البرج يقام من أجلك أنت، من العجيب أن كل من في المدينة يعلم ذلك ما عداك. ألست «ميم نون»؟

فقال «ميم» مبتسمًا ابتسامة بلهاء غير مصدق لما تسمعه أذناه:

- نعم أنا «ميم نون»، ولكن لماذا يقيمون برجًا من أجلي؟ هل أسكن فيه؟

ضحك الشـاب ذو الشـعر الأحمر والوجه النحيـل، ووضع يديه في جيبي سـرواله، واسـتأنف صفيـره المرح، ثـم توقف عـن الصفير فجأة، وتلاشـت من وجهه الملامح المرحة، وتجهم وجهه ولمعت الدموع في عينيـه واحتضن «ميـم» وقبله، ثم اختطف يده وقبلهـا! تعجب «ميم» من هذا التصرف العجيب، وأراد أن يستفسـر من الشـاب عن سـببه، ولكن الشـاب سـار في طريقه مطرقًا للأرض، وعينا «ميم» تشـيعانه في ذهول. ثـم حانت منه التفاتة نحو اليمين، فوجد طابورًا من البشـر قد تكون على بعـد خطـوات منه، يضـم رجالًا ونسـاء وفتيـات وأطفالًا، كانـت جميع وجوههـم حزينـة، وكان البعض منهم يجفف دموعـه، وكان أول من في الطابـور رجـلًا قصير القامة ممتلئ الجسـم أزرق العينيـن أصلع الرأس، تقـدم هـذا الرجل مـن «ميم» والتقط يـده وقبلها ثم مضى فـي طريقه، ثم تقدمـت المـرأة التي كانت تقف خلفـه في الطابور، وهي سـيدة في نحو السـتين نحيلة الجسـم، جففت دموعها بمنديلها، ثم أمسـكت بيد «ميم» وقبلتها ومضت في سبيلها، وتتابع كل من الطابور يقبل يد «ميم» ويمضي في سبيله، و«ميم» في ذهول، شعر بجسمه يرتجف، فصاح:

- ما معنى هذا! لماذا تقبلون يدي؟ لماذا تبكون؟

ولكن الجميع لزموا الصمت وكأنهم لم يسمعوا شيئًا، واستمروا يقبلون يده واحدًا بعد الآخر وواحدة بعد الأخرى في صمت، ثم يسيرون في طريقهم. كان البعض من فرط التأثر يركع ويقبل قدم «ميم». ولمح «ميم» من بين الواقفين في الطابور الفتاة (لام)، التي كان بمنزلها مطرقة للأرض في حزن؛ كما لاحظ أن الطابور بدلًا من أن يقصر فإنه يطول حتى أصبح كسرب من النمل لا نهاية له! وتذكر «ميم» في هذه اللحظة زوجته وطفليه، وشعر بشوق شديد إليهم، فترك الطابور واقفًا وانطلق يعدو نحو منزله. ولكنه بعد لحظات وجد الشارع، وقد امتلأ فجأة بجموع هائلة من البشر، وكأنهم كتلة واحدة من الأجساد تسد الطريق!

أخذ «ميم» يشق طريقه بصعوبة بالغة بين هذه الأجساد المتلاصقة، ثم عجز بعد ذلك عن التقدم خطوة واحدة، وشعر بضغط البشر على جسده من جميع الجهات فأخذ يتحرك على غير إرادته، ثم شعر بأن قدميه قد ارتفعتا عن الأرض، فصار يدور مع الأجساد الضاغطة عليه، وأوشكت أن تتحطم ضلوعه، وأحس باختناق وصعوبة في التنفس، وخشي أن يصاب بإغماء، فيغوص ويضيع في هذا البحر المتلاطم الأمواج من الأجساد البشرية. وفي هذه اللحظة سمع صوت آلة تنبيه سيارة على هيئة صفير. أخذ الصوت يرتفع، ثم ظهرت سيارة صفراء منطلقة في الشارع بأقصى سرعتها، تحصد مئات البشر. شعر «ميم» برعب شديد. ولكن ضغط الأجساد البشرية عليه تلاشى، فارتكزت قدماه على الأرض، وبدأ يتنفس

تنفسًا طبيعيًّا. وأخذ من تبقى على قيد الحياة يجري، محاولًا الابتعاد عن السيارة الصفراء، ولكن تلك السيارة بعد أن ابتعدت وتلاشى صوت صفيرها، عادت من جديد في الاتجاه المضاد؛ لتحصد مزيدًا من البشر! وخلا الشارع من جميع المارة، ووجد «ميم» نفسه وحيدًا في الشارع، الذي تناثرت وتبعثرت على أرضه مئات الجثث البشرية، وأقبلت عربات سود عديدة التقطت هذه الأجساد، وانطلقت بها نحو البالوعة، التي يلقون فيها جثث المحكوم عليهم بالإعدام.

انطلق «ميم» يعدو نحو منزله، وشعر كأن خطواته على الرصيف تحدث دويًّا هائلًا وسط هذا السكون المطبق. وعندما اقترب من منزله، سمع صوت موسيقى صاخبة مختلطًا بضحكات مرتفعة تنبعث منه.. أخرج من جيبه المفتاح، وفتح الباب فشعر كأنه أخطأ ودخل منزلًا غير منزله. ولكنه تيقن رقم المنزل فوجده رقم منزله، كان البهو ممتلئًا بالشبان والفتيات، وقد تناثر في أنحائه أثاث فاخر لا عهد له به. وكل فتى يراقص أنثى على أنغام الموسيقى الصاخبة، فشق طريقه بينهم، دون أن يعيره أحد أي اهتمام! وصعد السلم المؤدى للطابق العلوي، فوجد زوجته تراقص شابًّا وسيمًا، وحولهما حشد هائل من الشبان والفتيات يصفقون لهما تصفيقًا إيقاعيًّا.

عندما رأته زوجته تسمرت في مكانها وشحب لونها، وتوقف التصفيق، وهجم «ميم» على زوجته وأمسكها من ذراعها وهزها هزًّا عنيفًا قائلًا:

- ما معنى هذا؟

فنظـرت إليـه زوجته، وقد اتسـعت عيناهـا من الدهشـة، وكأنها ترى شبحًا، وبدت رائعة الجمال، وقالت:

- ألا تـزال على قيد الحياة يا حبيبـي؟ ظننت أن مالك المدينة قد نفذ فيك حكم الإعدام. لقد تركتك ملقى على الأرض فاقد الوعي، وتسلمت ورقة حمراء تنذر بتنفيذ حكم الإعدام فيك، أليس كذلك يا حبيبي؟

فقال «ميم»، والغضب يعصف به ويكاد يفجر رأسه:

- وهـل هـذا سـلوك زوجـة، تعتقـد أن زوجهـا قـد نفـذ فيـه حكـم الإعدام؟

فأطرقـت الزوجـة لـلأرض ولزمت الصمـت. وبدأ الزوار يتسـربون واحـدًا بعد الآخـر، تاركيـن «ميم» وزوجتـه وحدهما؛ فقـال «ميم» وقد استعاد بعض هدوئه، ذلك الهدوء الذي يشـعر به الإنسان، عندما ينحدر إلى أسفل درجات اليأس ويفقد الأمل في كل شيء.

- لـم ينفـذ في حكـم الإعـدام. بعـد أن تركتني ملقى علـى الأرض! أنقذتني فتاة نبيلة رقيقة المشـاعر، وحملتني في سيارتها إلى منزلها حيث وجدت العناية والإكرام.

ونظـر «ميم» في أنحاء الغرفة، فوجدها مليئة بكميات من شـتى أنواع الطعام، فقال لزوجته:

- عندما دخلت البهو وجدت تلالًا من الطعام وألوانا من الشراب، مثل الذي أراه الآن في هذه الغرفة. من أين حصلت على المال الذي اشتريت به كل هذه الأشياء؟ هل عثرت على كنز؟

ظلت الزوجة مطرقة للأرض في صمت، فصاح «ميم» غاضبًا:

- أريد أن أعرف من أين حصلت على هذا المال؟ تكلمي.

قالت الزوجة وهي لا تزال مطرقة للأرض، وكأنها تخجل من أن تلتقي عيناها وعيناه:

- حصلت على قرض من الطاحونة!

فقال «ميم» مندهشًا:

- قرض من الطاحونة! وكيف ستسددين هذا القرض؟

- تعهدت لهم بأنك ستدور في الطاحونة عامًا بلا أجر!

- أنا أدور في الطاحونة عامًا دون أجر! وكيف تعهدت لهم بذلك، على حين كنت تعتقدين أنني قد نفذ فيّ حكم الإعدام؟ كيف تتعهدين بأن يدور في الطاحونة زوج تعتقدين أن حياته قد انتهت؟

فنظرت إليه بعينين تطل منهما القسوة، وصاحت وهي تنتفض من الغضب:

- لا تسألني من أين حصلت على المال، إنك تجبرني على الكذب!

- ولماذا لا تقولين الحقيقة؟ لماذا تكذبين؟

- أنا مضطرة لذلك.

- لماذا؟

- قوانين المدينة وتقاليدها تحرم عليّ أن أخبرك بالحقيقة، لقد جئت أنت للمدينة للبحث عن الحقيقة فابحث عنها، وتوصل إلى معرفتها بنفسك. كل أهل المدينة ينتظرون نتيجة بحثك هذا، وهم في قلق وشوق لمعرفته، وأنت المسئول عن هذا القلق الذي يستبد بسكان هذه المدينة.

تذكر «ميم» في هذه اللحظة أنه جاء إلى هذه المدينة للبحث عن الحقيقة، ولكنه لا يدري أي حقيقة هذه التي جاء ليتوصل إلى معرفتها. إنه لم يفعل شيئًا ولم يبذل مجهودًا حتى الآن لأداء الرسالة، التي من أجلها جاء إلى المدينة. إنه لم يجد منذ قدومه لحظة فراغ أو لحظة راحة يلتقط فيها أنفاسه اللاهثة، فكيف يبحث عن الحقيقة؟ شعر باكتئاب وضياع، فقال لزوجته:

- منذ وجدت نفسي في هذه المدينة، وأنا مشغول بالدوران في الطاحونة للحصول على لقمة العيش والبحث عنك في الجزء الخلفي للمدينة، ولم أجد لحظة فراغ، أتمكن في خلالها من البحث عن الحقيقة.

فوضعت الزوجة يديها في خصرها، ونظرت إليه غاضبة، وقالت:

- لا عذر لك في التقاعس عن أداء رسـالتك، من الذي تصدق عليك بهذه البدلة؟

فتجاهل سؤالها، وجلس على حافة السرير، وقال:

- أين ابني وابنتي؟ أين ذهبا؟

فقالت الزوجة، دون أن يبدو على وجهها أي تعبير:

- لقـد نفـذ حكم الإعـدام في ابننـا في أثنـاء غيابك، ولم يبق سـوى البنت.

فانتفض «ميم» واقفًا كمن لدغه عقرب، وقال وقد تحشرج صوته:

- ابني نفذ فيه حكم الإعدام؟ كيف حدث هذا؟

فقالت الزوجة بهدوء:

- عندما ذهب إلى المدرسـة بصحبة أختـه، كان على جميع التلاميذ والتلميذات أن يعبروا بئرًا كبيرة الحجم للوصول إلى باب المدرسة، ولم تكن هناك سوى خشبة ضيقة فوق البئر، يتحتم على التلاميذ والتلميذات السـير عليها لعبـور البئر. تمكنت الطفلة من العبـور، ولكن الطفل عندما وصـل إلى منتصف الخشـبة ترنح وفقـد توازنه، فوقع في البئـر ونفذ فيه حكم الإعدام على الفور!

فجلس «ميم» على حافة السـرير من جديد، وقد شـعر بدوار، ووضع رأسـه بين يديه وأجهش بالبكاء، وظلت الزوجة واقفة ناظرة إليه، ثم رفع رأسه وقال لزوجته:

- وأين ابنتنا؟

جلست الزوجة على حافة السرير، ووضعت ساقًا فوق ساق، وقالت:

- ظلت الطفلة تبكي حزنًا على أخيها فنصحتها بعدم البكاء، وأفهمتها أن جميع سكان المدينة محكوم عليهم بالإعدام وكلنا سنلاقي المصير نفسه في يوم من الأيام. فلما أدركت هذه الحقيقة البشعة أصابتها لوثة، وأخذت تبكي وتصرخ وتحطم كل ما يقع تحت يدها وفقدت عقلها تمامًا فأخذت تهذي. ولما نفد صبري، حملتها ووضعتها هناك بعيدًا، في الغرفة السوداء. وتركتها وهي تصرخ وتبكي.

شعر «ميم» بدوار، فألقى بجسده على السرير، ولم يشعر بنفسه بعد ذلك. وعندما صحا من نومه، رأى ضوء الفجر ينفذ من خلال النافذة، فأدرك أنه ظل نائمًا مدة طويلة وأن يومًا جديدًا قد بدأ، ورأى زوجته واقفة بجواره مرتدية قميص النوم وهي تتثاءب. وفي هذه اللحظة دق جرس التليفون، فالتقطت الزوجة السماعة، وبعد فترة ناولت زوجها السماعة قائلة:

- شخص يطلب التحدث إليك.

فأخذ «ميم» سماعة التليفون من زوجته، وقد شعر بخدر في ذراعه، فلم يستطع رفع السماعة نحو أذنه، فوضعها بجواره على السرير وقال لزوجته:

- من هذا الشخص؟

فقالت الزوجة بدون اكتراث، وهي تهم بمغادرة الغرفة:

- لست أدري، لا تسألني أنا، اسأله هو.

فرفع «ميم» السماعة نحو أذنه بصعوبة، وقال:

- من الذي يتكلم.

فسمع شخصًا يقول:

- أريد إخطارك بأن أهل المدينة متلهفون ومشتاقون لمعرفة الحقيقة، التي أتيت إلى المدينة للبحث عنها، وأنت حتى هذه اللحظة لم ترو ظمأهم لهذه المعرفة ولم تفعل شيئًا! ورغبة في مساعدتك للتوصل إلى معرفة الحقيقة، تعاون أهل المدينة وبنوا لك برجًا هائلًا رائعًا زودوه بكل وسائل المعرفة. والمطلوب منك الآن أن تذهب فورًا إلى هذا البرج، وتبذل كل ما في طاقتك للتوصل إلى معرفة الحقيقة.

فقال «ميم»:

- وكيف أبحث عن الحقيقة في هذا البرج؟

فسمع الرجل يقول:

- كل من في البرج في انتظارك، ستجد هناك أكثر من ثلاثة آلاف موظف، جميعهم تحت أمرك ورهن إشارتك، وسيبذلون كل جهدهم لمساعدتك، هيا أسرع ولا تضيع دقيقة واحدة.

وانتهت المحادثة، فوضع «ميم» سماعة التليفون في مكانها، وتذكر البرج الذي رآه يقام بسرعة مذهلة في أثناء رجوعه إلى المنزل، فترك زوجته وقلبه مفعم بالحزن لإعدام ولده وجنون ابنته، وأسرع بالخروج من المنزل، وانطلق يعدو في الشارع نحو البرج.

فوجئ «ميم» برؤية جموع هائلة من أهل المدينة، مصطفين على جانبي الشارع، يلوحون له بالإعلام ويغنون له كلما مر بهم. وفي الشرفات فتيات يعزفن على الجيتار والكمان، ووجد أمامه سربًا من السيارات الزرق المكشوفة، بها عدد من علية القوم بالمدينة، وفي السيارة الخلفية فرقة موسيقية تعزف أنغامًا شجية، فتوقف «ميم» عن الجري، ورأى فتاة في نحو التاسعة عشرة تبتسم له، فسألها:

- ما هذا؟ هل اليوم عيد من أعياد المدينة؟

فانحنت له الفتاة احترامًا وقالت، والابتسامة لا تزال على شفتيها:

- كل هذا من أجلك ألا تعرف ذلك؟ ألست في طريقك إلى البرج لتبحث عن الحقيقة التي يتوق لمعرفتها جميع سكان المدينة؟ ألا تعرف أن البحث عن الحقيقة هو الرسالة، التي من أجلها أتيت إلى هذه المدينة؟

وفي أثناء توقفه مع هذه الفتاة لاحظ أن موكب السيارات قد توقف كما توقف عزف الموسيقى، وعندما ترك الفتاة وسار في طريقه، واصلت السيارات سيرها، واستأنفت الفرقة الموسيقية عزفها، وظل «ميم» سائرًا

خلف سرب السيارات، وشعر بإعياء شديد جعله يجر ساقيه بصعوبة، وتمنى لو يستطيع ركوب إحدى هذه السيارات، التي تسير في هذا الموكب، فأسرع الخطى ليسأل سائق إحدى السيارات هل من الممكن أن يركب معهم ما داموا متجهين نحو البرج؟ ولكن السائق نظر إليه مبتسمًا، وقال:

- كان بودي أن أريحك من عناء السير على قدميك، فكل هذا الاحتفال وكل هذه الموسيقى من أجلك، ولكن التعليمات التي صدرت إلينا لم تشر إلى اشتراكك معنا في ركوب السيارات، أو تخصيص سيارة لك. ويبدو أن هذا حدث بسبب السهو أو الخطأ، ولذا فعليك أن تظل سائرًا على قدميك خلف السيارات، التي تحتفي بك حتى تصل إلى البرج، وما باليد حيلة!

استمر «ميم» سائرًا خلف السيارات، وهو على وشك الإغماء من فرط الإرهاق، والموسيقى، تعزف له الألحان وتُلقَى عليه الورود والأزهار من الشرفات. وفي هذه اللحظة تذكر ابنه الذي نفذ فيه حكم الإعدام، فسالت قطرات من الدمع على خديه، وتوقفت أذناه عن التقاط أنغام الموسيقى، ورن في أذنيه صوت ابنته وهي تبكي وتصرخ وقد فقدت عقلها. وسار شارد اللب، والموسيقى تواصل عزفها والأزهار تنثر فوقه. وتعجب «ميم» من مظاهر البهجة التي تبدو على جميع الوجوه.

لـم يكن فـي ذلك الموكب الضخم شـخص حزين سـواه، وتعجب: كيف يفرحون ويهللون، وهم يعلمون أن كل من في هذه المدينة محكوم عليهم بالإعدام؟

لقـد فقدت ابنته عقلهـا عندما ذكرت لها أمها هـذه الحقيقة المؤلمة. وقفـز فـي مخيلته منظر زوجتـه، عندما عاد إلى المنـزل، فوجدها ترقص مع شـاب لا يعرفه، وقد ملأت المنزل بالشـبان والطعام الشهي. واستمر يفكـر، كيف حصلـت زوجته على كل هذا الطعام، فـي الوقت الذي كان يتضـوَّر فيه جوعًا ويدور في الطاحونة ليحصل على عشـرين قرشًـا؟ من أيـن حصلت علـى كل هذا المال فـي تلك الفترة القصيـرة؟ وكيف تلهو وترقـص ويلـذ لها الطعام والشـراب، وهي تعتقد أن زوجهـا الذي تركته ملقـى علـى الأرض قد نُفِّذَ فيه حكم الإعـدام، كما نفذ حكم الإعدام في ابنهـا وفقدت ابنتها عقلهـا؟ إن الطالع العاثر هو الـذي جعله يربط حياته بفتـاة من هـذا النوع! كانت الموسـيقى تواصل عزفها ثـم توقف العزف، ووجـد «ميـم» نفسـه أمـام البرج، واختفـت السـيارات التي كانت تسـير أمامـه، وتفرقت الكتل البشـرية التي كانت مصطفة علـى جانبي الطريق، وكأن الأرض قـد ابتلعتهم، وخلت الشـرفات من الفتيات العازفات على الآلات الموسـيقية، وأطبق السـكون علـى المكان. ووجد «ميم» نفسـه وحيـدًا أمـام باب البرج، وقد وقـف عند الباب رجل يرتـدي بدلة زرقاء، وذات أزرار ذهبيـة، وعلـى رأسـه قلنسـوة زرقـاء يحمل في يـده بندقية،

فشعر «ميم» برجفة. وعندما حاول دخول باب البرج، اعترض طريقه ذلك الحارس، وصوب نحوه البندقية قائلًا:

- إلى أين أنت ذاهب؟

فقال «ميم» متلعثمًا مرتجفًا:

- علمت أن هذا البرج أقيم من أجلي لكي أبحث عن الحقيقة. وحدثني في التليفون شخص لا أعرفه، طلب مني الذهاب فورًا إلى البرج لأؤدي رسالتي.

فقال الحارس، وهو لا يزال مصوبًا بندقيته نحو قلب «ميم»:

- لا يدخل هذا البرج كل من هب ودب! هل معك ما يثبت شخصيتك؟

لم يخطر على بال «ميم» مثل هذا السؤال، فنظر إلى الحارس مندهشًا وقال:

- ألا تعرفني؟ إن جميع أهل المدينة كانوا مصطفين على جانبي الطريق ليحيوني، والفتيات يعزفن لي الموسيقى في الشرفات ويلقون عليّ الأزهار!

فقال الحارس، وهو لا يزال مصوبًا بندقيته نحو «ميم»:

- ولكني لا أعرفك، اذهب وأحضر ما يثبت شخصيتك.

شعر «ميم» باليأس وفكر في الرجوع إلى منزله، ولكنه عدل عن هذه الفكرة، وقال للحارس:

- ومن أين أحضر ما يثبت شخصيتي؟

قال الحارس:

- ليس هذا من شأني، لقد صدرت لي الأوامر بألا أسمح بالدخول إلا للشخص المسمى «ميم نون» الذي بُنى البرج من أجله، ولموظفي البرج الذين تحت أمره ورهن إشارته.

فقال «ميم»، وقد بدأ يتنفس بصعوبة من شدة الإرهاق:

- أنا «ميم نون».

فقال الحارس بدون اكتراث:

- لن أسمح لك بالدخول إلا إذا أطلعتني على ما يثبت شخصيتك. من يدريني أنك «ميم نون»؟

- أليس في داخل البرج من الموظفين من يعرف شخصيتي؟

- لست أدري! ليس هذا من اختصاصي.

فظل «ميم» فترة من الزمن مطرقًا للأرض، لا يدري ماذا يفعل. ونظر حوله عسى أن يجد من يعرفه من بين الجموع التي كانت محتشدة لتحيته، ولكنه لم يجد أحدًا، لقد أصبح الطريق قفرًا، وكأنه في مدينة مهجورة،

ولما لم يجد حلًّا لهذه المشكلة، ترك البرج وسار مطرقًا للأرض عائدًا لمنزله.

وما كاد يخطو بضع خطوات، حتى رأى السيارات الزرق وقد عادت فجأة تسير أمامه، والفرقة الموسيقية في السيارة الخلفية تعزف الألحان التي كانت تعزفها نفسها، واحتشدت الجماهير من جديد على جانبي الشارع، يلوحون له بالأعلام وينحنون له، وامتلأت الشرفات بالفتيات الجميلات، يعزفن له أنغامًا شجية، وينثرن عليه الورود والأزهار!

وقف «ميم» ينظر حوله في ذهول غير مصدق ما تراه عيناه، كيف يعرفه جميع أهل المدينة ويحتفون به كل هذا الاحتفاء ولا يعرفه حارس البرج ويطلب منه إثبات شخصيته؟ وخطرت له فكرة: رأى بالقرب منه شابًّا يلّوح له مبتسمًا، فتقدم منه وسأله:

- هل تعرفني؟

فتوقف سير الموكب وتوقف عزف الموسيقى، وقال الشاب:

- وهل في المدينة من يجهلك؟ أنت «ميم نون». أتيت إلى المدينة لتبحث عن الحقيقة.

فقال «ميم» للشاب:

- هل من الممكن أن تصحبني إلى البرج؟

فقال الشاب، وقد اتسعت عيناه دهشة:

- أنا أصحبك إلى البرج؟ إنه شرف عظيم.. ولكن لماذا؟

- حارس البرج منعني من الدخول، لقد طلب مني إثبات شخصيتي.

فقال الشاب، وقد ازدادت دهشته:

- حارس البرج لا يعرف شخصيتك! إنه برجك! بنيناه من أجلك! وكل من في المدينة يعرفك، هيا معي إلى هذا الحارس الغبي.

لاحظ «ميم» أن الطريق قد خلا فجأة من الجموع المحتشدة، واختفت السيارات، ووجد «ميم» نفسه يسير مع الشاب، متجهين نحو البرج ولا أحد غيرهما في الشارع، قال الشاب للحارس:

- كيف تمنع «ميم» من دخول البرج الذي أقامته المدينة من أجله؟

فقال الحارس، دون أن ينظر إليهما وكأنه تمثال:

- لقد صدرت لي الأوامر بعدم السماح بدخول البرج إلا لموظفيه، وللشخص الباحث عن الحقيقة السيد / (ميم نون) العظيم!

فقال الشاب:

- إنه هو ذلك الرجل، إنه «ميم نون»، كيف لا تعرفه؟

فقال الحارس، وهو لا يزال واقفًا كالتمثال:

- لم يقدم لي ما يثبت شخصيته.

فقال الشاب:

- لقد أخبرتك عن شخصيته، فهل تسمح له الآن بالدخول؟

فصوب الحارس فوهة بندقيته نحو «ميم»، وقال للشاب:

- ومن أنت؟ أنا لا أعرف شخصيتك، كيف يثبت شخص لا أعرفه شخصية شخص آخر؟ أنا لا أعرفكما أنتما الاثنين.

فقال الشاب في انفعال، وقد نفرت شرايين رقبته:

- إنك بغبائك هذا تقترف جناية. أنت تمنع «ميم» من أداء رسالته للبحث عن الحقيقة، وسوف تدفع ثمن ذلك غاليًا!

فقال الحارس:

- أنا أؤدي واجبي، يجب أن يقدم لي ما يثبت شخصيته.

أوشك الشاب أن يعتدي على الحارس، فأسرع الحارس بتصويب بندقيته نحوه، ولكن «ميم» جذب الشاب من ذراعه قائلًا له:

- لا داعي للعنف، وما دام يمنعني من الدخول، فسأعود لمنزلي أو أذهب إلى الطاحونة لأحصل على قوت يومي.

وفي هذه اللحظة سمع «ميم» صوتًا منبعثًا من مكبر صوت صغير الحجم، عند باب البرج، يقول:

- اسمح له بالدخول. إنه «ميم نون» العظيم!

فرفع الحارس يده مؤديًا لـ«ميم» تحية عسكرية قائلًا:

- تفضل بالدخول يا سيدي! أرجو أن تغفر لي جهلي وغبائي!

فدخل «ميم» البرج ونظر خلفه، فوجد الشاب ناظرًا إليه يلّوح له بيده مبتهجًا، فرد «ميم» تحيته، وخطا بضع خطوات داخل بهو البرج، إنه بهو رائع ذو أعمدة من رخام وردي اللون، يكسو أرضه بلاط متعدد الألوان، وعلى الصفين أبواب مغلقة. حار «ميم» ولم يدر ماذا يفعل بعد دخوله البرج، وإلى أين يذهب، فتح أحد الأبواب العديدة فوجد غرفة فسيحة ذات أثاث فاخر، ومكتب يجلس خلفه رجل ضخم الجثة أحمر الوجه، تقدم «ميم» نحوه بخطى مضطربة، وقال:

- أنا «ميم نون».

فانتفض الرجل واقفًا ومد له يده مصافحًا، وقد انحنى حتى كاد أنفه الضخم يلمس المكتب، وقال:

- أهلًا وسهلًا... كلنا في انتظار تشريفك، تفضل بالجلوس.

فجلس «ميم» على أحد الكراسي الفاخرة التي أمام المكتب، وظل الرجل واقفًا خلف مكتبه منحنيًا، وقال وقد أطرق للأرض، دون أن يجرؤ على النظر إلى «ميم»:

- يتكون هذا البرج يا سيدي من أربعين طابقًا، ويضم ثلاثة آلاف وأربعمائة موظف كلهم في خدمتك ورهن إشارتك! وينبغي قبل أن تذهب إلى غرفتك أن تتعرف على كل هؤلاء الموظفين.

ثـم ضغط على أحد الأزرار، ففُتح باب الغرفة ودخل شـاب وسـيم، يرتدي بدلة زرقاء مطرزة بخيوط من الذهب، وعلى رأسه قلنسوة معدنية لامعـة صفراء اللون، ووقـف أمام المكتب صامتًا. فقـال الرجل الضخم الجثة موجهًا حديثه لـ«ميم»:

- هذا أحد خدم البرج يا سيدي. وكلنا نُعتبر خدمًا لك.

ثم التفت إلى الخادم وقال:

- خـذ السـيد «ميـم» واصحبـه إلـى جميـع موظفـي البـرج للتعرف عليهم.

قـام «ميم» وخرج مـن الغرفة بصحبة ذلك الخـادم، والرجل الضخم الجثة يسير خلفه مطاطئ الرأس حتى الباب، وقال الخادم لـ«ميم»:

- إنهـا مهمـة شـاقة يا سـيدي أن تصعـد على قدميـك أربعيـن طابقًا للتعرف على جميع موظفي البرج.

فقال «ميم»:

- أليس في هذا المبنى الضخم مصعد؟

فقال الخادم:

- يوجد عدد كبير من المصاعد، أربعون مصعدًا.

- ولـمـاذا أصعد على قدمي، مادام في البرج كل هذا العدد الهائل من المصاعد؟

فأطرق الخادم نحو الأرض، وقد احمر وجهه خجلًا، وقال:

- لائحة البرج تنص على أن المصاعد يستخدمها موظفو البرج، وأنت يا سيدي أعلى مقامًا من جميع الموظفين ولا تُعتبر موظفًا بالبرج!

- ولكن البرج أقيم من أجلي، وكل من فيه من موظفين تم تعيينهم لمساعدتي على القيام بمهمتي وأداء رسالتي في البحث عن الحقيقة.

فقال الخادم، وهو لا يزال مطرقًا للأرض:

- بكل أسف يا سيدي، لم يذكر اسمك ضمن من يستخدمون المصعد، وربما يكون بسبب السهو أو الخطأ، ونحن هنا مقيدون بلوائح البرج ولا نملك مخالفتها!

فقال «ميم»:

- وأين غرفتي؟

قال الخادم:

- عند قمة البرج فوق الطابق الأربعين! إنها أعلى غرفة في المبنى، وهذا يدل على علو قدرك وارتفاع شأنك. أنت فوق الجميع. هيا معي للتعرف على موظفيك وخدمك.

صحبه الخادم وقدمه إلى عدد هائل من موظفي البرج، ولاحظ «ميم» أن كل من رآهم يحتلون غرفًا فسيحة مكيفة الهواء فاخرة الأثاث. كان الخادم الذي يصحبه يصعد بالمصعد، وينتظر «ميم» حتى يصعد عن

طريق السلم، وعندما وصلا إلى الدور العاشر، أوشك «ميم» أن ينهار من فرط الإعياء، واصفر وجهه وتفصد العرق من جبينه، فقال له الخادم في لهفة وفزع:

- ما بك يا سيدي؟ هل تشعر بتعب؟

فقال «ميم» بصوت متقطع، وهو يلهث:

- أرهقني صعود السلم، ولم أعد قادرًا على المرور على باقي الموظفين للتعرف بهم.

فقال الخادم، ولا تزال في عينيه نظرة فزع:

- أنت أهم شخص في هذا البرج. وكل ما في البرج ومن في البرج من أجلك ولا قيمة له بدونك، ولوائح البرج تحتم علينا جميعًا أن نحافظ عليك ونعتني بك ونجنبك أي إرهاق؛ لكي تؤدي رسالتك في جو من الهدوء والراحة والطمأنينة، إن البحث عن الحقيقة ليس بالأمر الهين يا سيدي، فإذا لم يعد في استطاعتك الآن المرور على باقي الموظفين فلنرجئ هذا إلى الغد، ولكن لا بد من مواصلة صعود السلم ثلاثين طابقًا أخرى للوصول إلى غرفتك؛ لكي تباشر عملك في راحة وهدوء.

في هذه اللحظة توقف المصعد أمامهما ولفظ من جوفه نحو عشرة أفراد، وعندما رأوا «ميم» واقفًا هزتهم المفاجأة وأخذوا ينحنون له ويقبلون يده واحدًا بعد الآخر، وطلب الخادم من عامل المصعد أن

يتـرك بـاب المصعـد مفتوحًـا حتى ينتهـي الجميع مـن تقبيل يـد «ميم».
وكان عامل المصعد فتى وسـيمًا في نحو الخامسـة عشرة، ذا بشرة بيضاء
وعينين زرقاوين، يرتدي سـروالًا أزرق به شـريط أخضر وقميصًا أصفر،
ويضع على رأسـه قلنسـوة تشـبه تلك التي على رأس الخادم. ترك الفتى
باب المصعد مفتوحًا ووقف بجوار الباب. ولما انتهى الجميع من تقديم
فـروض الاحترام لـ«ميـم»، تقدم «ميم» نحو المصعـد محاولًا الدخول،
ولكن عامل المصعد انحنى له وقبل يده، وقال:

- بـكل أسـف يا سـيدي، غيـر مسـموح لمقامـك العالي باسـتخدام
المصعـد، لوائـح البرج تنص على أنه لاسـتعمال الموظفيـن وأنت لعلو
قدرك لا تعتبر موظفًا بالبرج، ولو أننا جميعًا نعلم أن البرج بني من أجلك
ولا قيمة له بدونك.

ثم دخل الخادم المصعد وتبعه الفتى، وقال الخادم لـ«ميم»:

- سانتظرك يا سيدي أمام باب غرفتك بأعلى البرج.

وأقفل باب المصعد وتحرك صاعدًا، وظل «ميم» ناظرًا نحوه مشدوهًا
فترة من الوقت لا يدري ماذا يصنع. وحاول الاستمرار في صعود السلم،
ولكنه شعر بأن ساقيه لا يقويان على حمله من شدة الإرهاق. ففكر في أن
يهبط السلم ويعتذر عن عدم قدرته على أداء تلك المهمة، وقال لنفسه:

- كيف أصعد للبحث عن الحقيقة، وأنا على هذه الحال من الإعياء؟ وأي حقيقة تلك التي سأبحث عنها؟ لقد تقطعت أنفاسي وأرهق جسدي لصعود عشرة طوابق، فكيف أستمر في الصعود على السلم ثلاثين طابقًا أخرى؟ كلا! لن أصعد، لن أبحث عن الحقيقة في هذه المدينة المرعبة!

19

استدار «ميم» وبدأ يهبط السلم، وإذا به يسمع دقات أجراس تكاد تصم الآذان. وفتحت أبواب جميع الحجرات في ذلك الطابق، وخرج منها عدد كبير من الموظفين وقد استبد بهم الفزع، وأسرعوا نحو «ميم» وأقاموا من أجسادهم سدًّا يمنعه من هبوط السلم وقال أحدهم لـ«ميم»:

- ماذا تحاول أن تفعل يا سيدي «ميم»؟ هل تفكر في ترك البرج والتخلي عن مهمتك، بعد أن كابدنا كل هذا العناء وأنفقنا كل هذه الأموال لبناء هذا البرج وإعداده لك؟ لقد أتيت للبحث عن الحقيقة في هذه المدينة، ولن يسمح لك أحد من أهلها بالتخلي عن مهمتك والتقاعس عن أداء رسالتك. هل يرضيك أن يتشرد في الشارع ثلاثة آلاف وأربعمائة موظف، يعملون في هذا البرج؟

واصطفوا طابورًا وتقدموا نحو «ميم» واحدًا بعد الآخر ينحنون ويقبلون قدمه! وعندما انتهوا من هذه المهمة، قال له أحدهم:

- هيا يا سيدي «ميم» اصعد السلم لتصل إلى غرفتك، الخادم ينتظرك هناك منذ فترة طويلة وليس من سمات الرحمة والإنسانية أن تتركه واقفًا على قدميه، في انتظارك طوال هذه المدة.

فأخذ «ميم» يصعد السلم وهو يجر ساقيه بصعوبة، فتوقف رنين الأجراس ودخل الموظفون حجراتهم وساد السكون، وعندما اقترب «ميم» من الطابق الأربعين، التقطت أذناه صوت شخير أخذ يعلو شيئًا فشيئًا في أثناء صعوده السلم، وعندما وصل إلى غرفته عند قمة البرج وجد الخادم جالسًا مستندًا بظهره على الجدار بجوار باب غرفة «ميم» مادًّا ساقيه، وقد مال برأسه إلى الأمام، مستسلمًا لنوم عميق.

كانت أنفاس «ميم» متقطعة فلم يستطع الكلام، وما لبث أن ترنح وسقط مغمى عليه! استيقظ الخادم على صوت سقوط «ميم»، فانتفض مذعورًا وأخذ يربت على خدّي «ميم» محاولًا إفاقته، ولكن «ميم» ظل غائبًا عن وعيه، فأسرع الخادم بفتح غرفة «ميم» وحمله على ذراعيه وأدخله الغرفة، وتركه ممددًا على أرض الحجرة وهرول خارجًا. وبعد فترة قصيرة عاد وفي يده حقيبة صغيرة، فوجد «ميم» لا يزال مغمى عليه. أخرج من الحقيبة زجاجة صغيرة بها محلول، سكب بعضه على قطنة ووضعها أمام أنف «ميم».

بعد نحو خمس دقائق، بدأ «ميم» يفتح عينيه ونظر إلى الخادم المنهمك في إنعاشه، وقال:

- أين أنا؟

فقال له الخادم:

- في غرفتك يا سيدي.

فقال «ميم»:

- هل وصلت إلى غرفتي؟

قال الخادم:

- نعم، أخيرًا وصلت إلى غرفتك يا سيدي.

فقال «ميم» غير مصدق:

- حقيقة؟

وأغمى عليه من جديد، فأسرع الخادم وصب قدرًا آخر من السائل فوق قطعة القطن، وأخذ يمررها أمام أنف «ميم»، ولكنه لم يتحرك، فاصفر وجه الخادم، وارتعشت يداه، ولم يدر ماذا يفعل. وضع الخادم ركبتيه على الأرض، وانحنى فوق «ميم» وأخذ يُجْرِي له تنفسًا صناعيًّا، وبعد نحو عشر دقائق بدأ «ميم» يفيق لثاني مرة، وأخذ يدير عينيه في أنحاء الغرفة، فانتفض الخادم واقفًا، ثم انحنى ورفع الجزء الأعلى من جسد «ميم»، وأسنده لجدار الغرفة.

نظر «ميم» إلى الخادم، وقال مرة أخرى:

- أين أنا؟

فتردد الخادم في الإجابة عن سؤاله وخشى أن يقول له إنه في غرفته، فيغمى عليه من جديد. وبعد فترة قصيرة من التفكير، قال الخادم:

- أنت في غرفتك يا سيدي.

فقال «ميم» شارد الذهن:

- غرفتي؟ غرفتي بالمنزل؟

- كلا يا سيدي. إنها غرفتك بالبرج. عند قمة البرج.

فقال «ميم» وعيناه تدوران في اتجاه الغرفة في ذهول، وقد عاوده الإحساس الذي شعر به، عندما وجد نفسه في المدينة في أول يوم:

- البرج؟ عند قمة البرج؟ أي برج هذا؟

- البرج الذي بنيناه من أجلك.

- ولماذا بنيتم برجًا من أجلي؟!

فاستبد الفزع بالخادم، وبدأ يرتجف من جديد، وقال:

- بنينا البرج من أجلك يا سيدي لتبحث عن الحقيقة. أنت تعلم ذلك جيدًا يا سيدي، لا بد أنك تعلم ذلك.

فقال «ميم»، ونظره مثبت في سقف الغرفة:

- وأين هي الحقيقة؟

فقال الخادم، وهو لا يزال يرتجف:

- لست أدري يا سيدي! عليك أنت أن تبحث عنها؛ لتتوصل لمعرفتها، هذه هي مهمتك. لقد حضرت إلى هذه المدينة لهذا الغرض وكل موظفي البرج، بل كل أهل المدينة تحت أمرك ورهن إشارتك.

بدأ «ميم» يسترد شعوره، وأدرك أنه صعد أربعين طابقًا على قدميه، ليصل إلى هذه الحجرة، فنظر إلى الخادم وقال:

- وهل أحضر كل يوم إلى هذه الغرفة؟

قال الخادم:

- هذا بطبيعة الحال يا سيدي. كل شخص لا بد أن يذهب إلى مقر عمله، ستحضر إلى غرفتك كل يوم؛ لتبحث عن الحقيقة حتى تجدها يا سيدي.

فقال «ميم»، وقد شعر بيأس قاتل:

- وإذا لم أجدها!

فقال الخادم دون اكتراث:

- لا يهم، المهم أن تبحث عنها.

أخذ «ميم» يدير بصره في أنحاء الغرفة لأول مرة بعد أن تملك شعوره. فهاله أن رآها جرداء غير مطلية من الداخل بأي طلاء، وليس بها سوى كرسي واحد من الخشب وآلة تليفون مثبتة في الجدار. أرضها عارية غير مغطاة بالخشب الفاخر والسجاجيد الثمنية، كما هي الحال في

جميع غرف الموظفين التي شاهدها في البرج، لا يكسو أرضها سوى بلاط رديء الصنع قذر، وفي أحد أركانها مجموعة كبيرة من الكتب ملقاة بعضها فوق بعض بلا ترتيب، وللحجرة نافذتان عريضتان متقابلتان بلا مصاريع. وتعجب «ميم» عندما رأى سحابة، تدخل من إحدى النافذتين وتتحرك لتخرج من النافذة المقابلة، لم يصدق «ميم» أن هذه الغرفة الحقيرة هي غرفته. هل من المعقول أن يكون هو أهم شخص في البرج الذي بني من أجله، وتكون غرفته أحقر غرفة بالمبنى؟ إن موظفي البرج الذين هم رهن إشارته وطوع أمره والذين ما وجدوا في البرج إلَّا لخدمته يجلسون خلف مكاتب ضخمة رائعة على كراسي مريحة متحركة في غرف فاخرة الأثاث، أرضها وجدرانها مغطاة بالخشب الفاخر اللامع وتكسو أرضها السجاجيد غالية الثمن!

شعر «ميم» بدوار، فجلس على الكرسي الوحيد الذي بالغرفة، ولكنه أدرك أن الوقوف أكثر راحة من الجلوس على مثل هذا الكرسي فقام. نظر إلى الخادم، وقال:

- هل أنت متيقن أن هذه هي غرفتي، التي سأباشر فيها مهام عملي للبحث عن الحقيقة؟

فنظر إليه الخادم في دهشة، وقال:

- غرفتك طبعًا يا سيدي! هل من المعقول أن أدلّك على غرفة غير غرفتك؟ إنها أعلى غرفة في المبنى فوق قمة الطابق الأربعين، لأنك يا سيدي أعلى قدرًا من كل من في البرج وأرفعهم مقامًا!

فقال «ميم»، وهو لا يزال غير مصدق:

- إن وجودها في قمة المبنى لا يعتبر مصدرًا لراحتي، بل هو مصدر إرهاق لي؛ إذ يتحتم عليّ صعود السلم أربعين طابقًا كل يوم لأصل إليها!

فقال الخادم:

- لقد شرحت لك يا سيدي سبب عدم استخدامك المصعد وضرورة صعودك عن طريق السلم. وتيقن يا سيدي أن هذا أمر غير مقصود، كان المفروض طبعًا أن تصل إلى غرفتك عن طريق المصعد، وأن يكون لك مصعد خاص. ولكن لم يذكر ذلك في لائحة البرج. ربما يكون بسبب السهو أو الخطأ، أو بسبب علو قدرك وارتفاع مقامك فوق مقام جميع الموظفين، فلم يعتبروك موظفًا. وبكل أسف، كما ذكرت لك يا سيدي، أن المصاعد يستخدمها الموظفون. لقد ورد في المادة الرابعة من اللائحة ما نصه: «يعتبر «ميم نون» أعلى قدرًا من جميع الموظفين؛ فلقد أقيم البرج من أجله، وكل ما في البرج ومن في البرج مسخر لخدمته ومساعدته في أداء مهمته السامية، وهي البحث عن الحقيقة».

لقد حفظت هذا النص يا سيدي عن ظهر قلب! وحفظي له جاء نتيجة قراءتي له مئات المرات. ولقد فسروا تلك الجملة التي تقول: «يعتبر «ميم نون» أعلى قدرًا من جميع الموظفين» فسروها على أنها لا تنص بصراحة على أنك أحد الموظفين؛ إذ كيف تكون أعلى قدرًا من جميع

الموظفين، وتكون في الوقت نفسه موظفًا مثلهم؟ وفي البند العاشر من بنود اللائحة نص، يقول «يستخدم الموظفون المصاعد لصعودهم وهبوطهم في أنحاء البرج».

وهكذا ترى يا سيدي أن الأمر غير مقصود؛ إذ لا أحد في المدينة يرغب في إرهاقك، بل الجميع يتمنون لك من أعماق قلوبهم الراحة والهدوء، إنهم يعلمون جيدًا أن البحث عن الحقيقة أمر مهم يتطلب راحة الجسم وهدوء البال. وتيقن يا سيدي أنني أكثر الناس حزنًا لرؤيتك تصعد السلم، على حين أستخدم أنا المصعد لصعودي وهبوطي، وأنا الخادم البسيط المنوط بي أمر الصعود معك إلى غرفتك يوميًا، وأنت السيد العظيم الذي ليس في البرج من هو أعلى منه مقامًا، وهذا بطبيعة الحال يسبب لي إحراجًا شديدًا. إن جميع من

فصاح «ميم» مقاطعًا:

– كفى ثرثرة! كيف تكون غرفتي وأنا أهم شخص في البرج وأعلاهم قدرًا، كما تقول، بهذه الحقارة، على حين أن جميع غرف الموظفين الذين شاهدت حجراتهم مزودة بأجهزة تكييف الهواء ومفروشة بأفخر الأثاث والسجاد، وتضم كل وسائل الراحة؟

قال الخادم، وقد احمر وجهه خجلًا ورفع حاجبيه، وأطرق للأرض:

- أنت تعلم يا سيدي أن أي مبنى يُبنى من أسفل إلى أعلى، ولا يبنى من أعلى إلى أسفل!

فقال «ميم»:

- وما علاقة البناء من أسفل إلى أعلى بحقارة هذه الغرفة؟

قال الخادم، وهو لا يزال مطرقًا للأرض رافعًا حاجبيه:

- لقد تكلف المبنى ملايين الجنيهات، وفي أثناء البناء عندما وصلوا إلى غرفتك كانت الميزانية قد استهلكت، ولم يبق من المال المخصص لبناء البرج سوى دراهم قليلة فاضطروا اضطرارًا إلى بناء غرفتك، في حدود المبلغ الضئيل الذي تبقى. هذا هو السبب ولا سبب سواه، وأؤكد لك يا سيدي أن هذا شيء غير مقصود مطلقًا!

قال «ميم»:

- وهذه الكتب المكدسة بعضها فوق بعض بلا نظام ولا ترتيب، هل المفروض أن أقرأها؟

قال الخادم مبتسمًا:

- وهل من الممكن أن تبحث عن الحقيقة يا سيدي بدون قراءة الكتب؟ كان من المفروض أن تكون الكتب أكثر من ذلك بكثير، ولكن ما تبقى من المال لم يسمح إلا بهذا القدر.

قال «ميم»:

- ولم يسمح المبلغ بشراء خزانة ترص فيها هذه الكتب، بدلًا من تكويمها بعضها فوق بعض هكذا بلا ترتيب! كيف أعثر على كتاب، أحتاج إليه من بين هذه الكتب، الملقاة بعضها فوق بعض بلا نظام؟

قال الخادم، وقد احمر وجهه خجلًا:

- لقد شرحت لك يا سيدي كل الظروف، ورجوتك أن تتيقن أن هذا أمر غير مقصود مطلقًا، فكل من في البرج وما في البرج مسخر لخدمتك.

فقال «ميم»:

- ولكنني لاحظت عند زيارتي لبعض موظفي البرج أن حجراتهم الفاخرة تحتوي على خزائن للكتب رائعة، ولكنها خالية من الكتب، لماذا لا تحضرون لي بعضها هنا، أرتب فيها هذه الكتب؟

فاتسعت عينا الخادم دهشة، ورفع حاجبيه، وقال:

- هذا غير ممكن يا سيدي، إن هذا الأثاث صنع لهذه الغرف، فكيف تنقله إلى حجرتك؟ لائحة البرج تمنع هذا، أي أثاث في غرفة من الغرف لا يسمح بنقله إلى غرفة أخرى، حتى لو كانت غرفتك! ومع ذلك فكل صغير وكبير هنا يعلم جيدًا أنك أهم شخص في هذا البرج وأرفعهم قدرًا، البرج من أوله إلى آخره أقيم من أجلك، ولولاك ما أقيم، ولا فائدة

من وجوده بدونك، ولكنها اللائحة! هل ترضى يا سيدي أن يدار البرج بلا لوائح ولا قوانين؟ هل تقر الفوضى يا سيدي؟

شعر «ميم» بالدم يغلي في عروقه، وود لو ينقض على هذا الخادم، فيحمله ويلقي به من النافذة، ولكن في هذه اللحظة سمع صوت طفلة تبكي وتصرخ صرخات هيستيرية، فتعجب وشعر برعب شديد، فقال للخادم:

- هل في هذا البرج أطفال؟ أين هذه الطفلة التي تصرخ وتولول؟

قال الخادم، وصراخ الطفلة لا يزال مستمرًا:

- هذه الطفلة في الغرفة الصغيرة الملحقة بغرفتك، كان من المفروض إعداد هذه الغرفة؛ لتكون استراحة خاصة بك، تحتوي على سرير مريح وكراسٍ فاخرة، ويلحق بها حمام من أرقى طراز، ولكن كما ذكرت لك يا سيدي العظيم، إن ما تبقى من الميزانية لم يسمح بذلك، فبقيت غرفتك جرداء كئيبة خالية من الأثاث، غير مطلية من الداخل أو الخارج، حتى الباب، اضطروا لعمله من خشب «الأبلاكاش» الرخيص، ولم تسمح الميزانية بتركيب مزلاج له!

فقال «ميم»، وصراخ الطفلة يكاد يخترق طبلة أذنه:

- وكيف أستطيع البحث عن الحقيقة وصراخ هذه الطفلة يزعجني، ألهذا علاقة بالميزانية أيضًا؟

فقال الخادم:

- لا حيلة لنا في هذ يا سيدي، وعليك أن تعوّد نفسك وتتأقلم؛ لسماع هذا الصراخ والعويل المستمر.

فصاح «ميم» قائلًا:

- الغرفة الحقيرة لا حيلة لكم فيها، وعدم وجود الأثاث لا حيلة لكم فيه، وصعود أربعين طابقًا عن طريق السلم بدلًا من المصعد لا حيلة لكم فيه! ووجود طفلة تبكي وتصرخ بجواري لا حيلة لكم فيه أيضًا! إذا كان كل من في البرج في خدمتي ورهن إشارتي، كما تقول، فأنا آمرك بنقل هذه الطفلة فورًا بعيدًا عني. إذا احتملت جميع أنواع العذاب، فإنني لا أستطيع احتمال هذا الصراخ المستمر!

فقال الخادم بهدوء، وقد أسبل جفنيه ناظرًا نحو الأرض:

- يؤسفني يا سيدي أننا لا نستطيع تنفيذ هذا الأمر.

فصاح «ميم» في غضب:

- ولماذا لا تستطيعون تنفيذ هذا الأمر؟

قال الخادم في هدوء:

- الشخص الذي أحضر هذه الطفلة وطلب بقاءها هنا، لا يمكننا أن نرد له طلبًا إكرامًا لك!

فقال «ميم»، وقد شعر بالدم يضغط على خلايا دماغه:

- ما معنى هذا؟ من هذا الشخص الذي لا تردون له طلبًا إكرامًا لي؟

قال الخادم مطرقًا للأرض:

- السيدة التي أحضرت هذه الطفلة وتركتها هنا... هي السيدة زوجتك!

فانهار «ميم» وجلس على الكرسي الوحيد الذي بالغرفة ولزم الصمت، كان قد نسي زوجته ونسي منزله، فأخذ يسترجع تلك الذكريات الحزينة. تذكر أن ابنه نفذ فيه حكم الإعدام، في أثناء غيابه من المنزل، وأن ابنته أصيبت بالجنون، عندما أخبرتها أن كل من في هذه المدينة محكوم عليهم بالإعدام، فنظر إلى الخادم بعينين تلمع فيهما الدموع، وقال:

- هل هذه الطفلة التي تصرخ... ابنتي؟

فقال الخادم:

- وهل تظن يا سيدي أننا نجرؤ على إحضار طفلة غريبة عنك، تصرخ وتبكي، ونضعها في الغرفة الوحيدة المجاورة لغرفتك؟

شعر «ميم» باكتئاب شديد وتعجب من سلوك زوجته. كيف تحضر ابنتهما التي فقدت عقلها وتتركها هنا تهذي وتصرخ، وهي تعلم أن زوجها مشغول بأداء رسالة ضخمة؟ إنه يبحث عن الحقيقة، وأين ذهبت زوجته؟ لا بد أنها أرادت التخلص من هذه الطفلة؛ ليصفو لها الجو

لإقامـة الحفـلات. ومن يدري؟ ربمـا تكون الآن في الجـزء الخلفي من المدينة تفعل ما تشاء. وبينما تدور هذه الأفكار في رأس «ميم»، اندفعت ابنته إلى غرفته كالسـهم، وهي تطلق صرخاتها الهيستيرية، وطوقت عنق «ميم» بذراعيها، واسـتمرت فـي بكائها وصراخها، وقالـت الدموع تبلل خديها:

- لا، يا بابا.. لا، يا بابا.. لا يمكن أبدًا.

انحنـى الخـادم لـ«ميم» في هـذه اللحظة وانصرف، وبقـي «ميم» مع ابنته بمفردهما، واستمرت (الطفلة) تبكي وتقول:

- لا، يـا بابـا.. لا، يا بابـا.. لن أتركهـم ينفذون فيك حكـم الإعدام، أنـا أحبـك، أنا أحبك. لـن يأخذوك منـي.. وأنا أريد أن أعيـش.. لا أريد أن يلقـى بي فـي البالوعة، كما فعلوا بأخي.. لـن يعدمونا.. لن يعدمونا.. الدموع تملأ البئر.. أنا لا أحب الظلام.

فاحتضنها «ميم»، وأخذ يقبلها، وقد ترقرقت الدموع في عينيه، وشعر برغبة في البكاء وقال لابنته:

- لا تخافي يا حبيبتي.. لن يعدموني ولن يعدموك..!

قالت الطفلة، وهي تجهش بالبكاء:

- لا، يا بابا.. لا، يا بابا.. ماما أخبرتني أن جميع سكان المدينة محكوم عليهم بالإعدام. أنا لا أحب الظلام.. أخي أعدموه.. حملوه في السـيارة

السوداء وألقوه في البالوعة.. ماما لم تبك.. ولكني بكيت.. بكيت كثيرًا. دموعي ملأت البئر.. سيعدموننا جميعًا كما أعدموا أخي.. أنا خائفة.. أنا خائفة من الظلام.. لا تتركوني وحدي.. أخي وحده في الظلام..

واستمرت تبكي وتلطم خديها، فلم يستطع «ميم» السيطرة على مشاعره، فأخذ يبكي في صمت وهو يربت على ظهر ابنته ويقبلها، ولكنها تركت حضن أبيها، وتوقفت عن البكاء فجأة، وأخذت تدور في أنحاء الغرفة مطرقة للأرض، وتقول:

- في الصباح أعدموا أخي، في المساء سيعدمونني.. في الفجر سيعدمونك يا بابا. كان الناس يلقون الأزهار على أخي.. هل تريد زهرة يا بابا؟.. سأحضر لك كل الأزهار.. سيلقون عليّ الأزهار.. سيلقون عليك الأزهار يا بابا.. أنا أحبك. لا تتركني وحدي.. أخي وقع في البئر أمام المدرسة.. جميع الأطفال بكوا من أجله.. ولكنهم هم أيضًا سيعدمون، وانفجرت تبكي وتصرخ من جديد قائلة:

- أنا خائفة من البئر.. أعدموا أخي في البئر.. اقفل النوافذ يا بابا.. لماذا تفتح النوافذ؟.. أنا خائفة.. كلنا ستحملنا السيارة السوداء ويلقون بنا في البالوعة.. هيا يا بابا أقفل البالوعة.. هيا نذهب إلى البالوعة لنرى أخي.. أخي هناك يبكي من أجلنا.. إنه وحده في الظلام يا بابا.. أخي يخاف الظلام..! ضعوا كثيرًا من الأزهار على جثتي، عندما أُعدم حتى لا أشعر بالبرد.

وفي هذه اللحظة، دخلت من النافذة سحابة صغيرة مخترقة الغرفة، وخرجت من النافذة المقابلة، وما إن رأت الطفلة هذه السحابة حتى تقلص وجهها، وجحظت عيناها والتصقت بـ«ميم»، وطوقته بذراعيها، وجسدها يرتجف رعبًا، وصاحت:

- الذبابة.. الذبابة دخلت الغرفة.. أمي أخبرتني أننا ينفذ فينا حكم الإعدام إذا لمستنا ذبابة.. سينفذ فينا حكم الإعدام!

فاحتضنها «ميم» بقوة وغمرها بالقبلات، وقال:

- لا تخافي يا حبيبتي إنها سحابة، وليست ذبابة.

وخطرت على بال «ميم» فكرة في هذه اللحظة: لماذا لا يتصل بزوجته تليفونيًّا ويطلب منها الحضور إلى البرج، لتأخذ الطفلة وتعتني بها؛ لكي يتفرغ للبحث عن الحقيقة؟ ولكنه لم يتذكر رقم تليفون منزله، أدار بصره في الغرفة، فوجد دفتر تليفون ملقى فوق كوم الكتب، وبينما هو يمد يده نحو دفتر التليفون، صرخت ابنته صرخة هيستيرية جعلته ينتفض، والتفت فوجدها واقفة على حافة النافذة، ناظرة في فزع نحو سحابة عابرة، فأسرع نحوها واختطفها من فوق حافة النافذة، وهي تصرخ وتتلوى بين يديه، ودق جرس التليفون، فالتقط السماعة بإحدى يديه، وظل محتضنًا ابنته باليد الأخرى، وسمع صوتًا يقول:

- هل نسيت الطاحونة؟ لقد حان موعد دورانك فيها!

حاول «ميم» أن يتكلم، ولكن المتكلم عند الطرف الآخر من الخط وضع السماعة، فوضع «ميم» السماعة في مكانها، محتضنًا ابنته التي ما زالت تصرخ، ووقف حائرًا لا يدري ماذا يفعل. وأخذ يفكر: هل يترك ابنته ويذهب إلى الطاحونة بمفرده؟ ولكن ذلك مستحيل؛ إذ لو تركها لحظة فستصعد إلى حافة النافذة الخالية من المصاريع، وتلقي بنفسها من فوق قمة الطابق الأربعين، فينفذ فيها حكم الإعدام فورًا. هل يأخذها معه؟ لم يجد أمامه سوى هذا الحل. وفي هذه اللحظة تذكر شيئًا كان قد نسيه: تذكر أن الفتاة التي استضافته في منزلها، كانت قد دست في جيبه خمسين جنيهًا لتجنبه عذاب الدوران في الطاحونة ريثما تلتئم جراحه، فشعر بشيء من الراحة، ووضع يده في جيبه يتحسس تلك النقود، ولكنه لم يجدها! لم يصدق أنه فقدها، فأخذ يفتش في جيوبه ويعيد التفتيش، ولكن بلا جدوى! واستولت عليه الدهشة، أين ذهبت هذه النقود؟ واستمرت الأفكار تدور في ذهنه، لا شك أن زوجته فتشت جيوبه في أثناء نومه بالمنزل، وعثرت على هذه النقود فاستولت عليها!

فكر في الذهاب إلى منزله لرؤية زوجته ومصارحتها بهذا، ولكن جرس التليفون عاد من جديد، فالتقط السماعة وسمع الصوت نفسه يقول:

- ألا تزال في البرج؟ هيا إلى الطاحونة، ولا تضيع الوقت!

فاحتضن ابنته وخرج من غرفته واتجه نحو السلم، وبدأ يهبط درجاته وابنته تتلوى بين يديه صارخة مولولة، وعندما وصل إلى الطابق الثلاثين

رأى شيئًا، لم يكن قد لاحظ وجوده في أثناء صعوده، وجد مطعمًا فاخرًا يشغل الطابق بأسره، ووجد عددًا من موظفي البرج يتناولون طعامهم فيه، وقد تناثر في أنحاء المطعم عدد من الفتيات الجميلات، يرتدين زيًّا موحدًا: بلوزة بيضاء وجونلة قصيرة زرقاء، تصل إلى منتصف الفخذ، وعلى رؤوسهن قلنسوات زرق تشبه قلنسوة مضيفات الطائرات؛ تحمل بعضهن الطعام، ويضعنه على بعض الموائد التي جلس حولها بعض موظفي البرج، والبعض الأخريات واقفات في انتظار أية إشارة من الموظفين. استنشق «ميم» على الرغم منه رائحة الطعام الشهي، ورأى على جانبي باب المطعم خادمين يرتديان الزي الرسمي، فتقدم نحوهما محتضنًا ابنته التي ما زالت تصرخ، وسأل أحد الخادمين:

- كم ثمن وجبة الطعام هنا؟

فسأله الخادم:

- هل أنت من موظفي البرج يا سيدي؟

فقال «ميم»، وقد هدأ صراخ ابنته:

- أنا «ميم نون».

فركع الخادمان وقبلا قدمي «ميم»، وعندما رأت فتيات المطعم هذا المشهد، أدركن أن هذا الشاب لا بد أن يكون «ميم نون» الذي أقيم البرج من أجله، فهرعن إليه وأخذن يركعن واحدة بعد الأخرى، ويقبلن قدمي «ميم»، ثم اصطفت الفتيات ووقفن بلا حراك وتوقف عن تناول الطعام

كل من بالمطعم، وأسرع الجميع نحو «ميم» ينحنون له ويقبلون يده، فشعر «ميم» بحرج شديد، وأعاد سؤاله:

- كم ثمن الوجبة في هذا المطعم؟

فقال أحد الخدم:

- الطعام هنا بالمجان يا سيدي «ميم» العظيم.

فشعر «ميم» بقبس من السعادة، يخترق ظلام الحزن الذي يملأ قلبه، وقال:

- هل من الممكن أن تتناول ابنتي وزوجتي الطعام معي هنا؟

فأطرق الخادمان للأرض، ولزما الصمت، فأعاد «ميم» السؤال:

- قلت: هل من الممكن أن تتناول ابنتي المسكينة هذه وزوجتي الطعام معي هنا؟

فقال أحد الخدم، وقد توردت وجنتاه خجلًا:

- يؤسفني يا سيدي أن أخبرك أن هذا المطعم مخصص لموظفي البرج الذين في خدمتك، ولكنك يا سيدي لعلو قدرك ورفعة مقامك لا تعتبر من الموظفين. أنت فوق الجميع! ولذا فغير مسموح لمقامكم العالي، ولا لأي فرد من أفراد عائلتك الموقرة بتناول الطعام هنا.

كانت ابنته تنظر حولها بعينين زائغتين تسيل منهما الدموع، ولا تدرك شيئًا مما يدور حولها، فحملها «ميم» على كتفه وسار مطرقًا للأرض

مواصلًا هبوط السلم، وعندما وصل إلى الطابق الأرضي، شعر بألم شديد في كتفه الذي يحمل ابنته فوقه، وأحس بدوار فخشى أن تسقط ابنته، فأنزلها من فوق كتفه، وقبض على يدها بقوة، واستند على الجدار بالقرب من باب البرج، وأغمض عينيه. ولما فتح عينيه وجد عددًا هائلًا من الحرس مرتدين ملابسهم المبرقشة، وقد اصطفوا على الجانبين، رافعين أيديهم له بالتحية.

عندما خرج «ميم» من باب البرج، استرعى نظره وجود عدد هائل من السيارات الفاخرة مصطفة أمام البرج، وخلف عجلة قيادة كل سيارة يجلس سائق يرتدي معطفًا أبيض أطراف أكمامه وياقته زرقاء، ويضع على رأسه قلنسوة صفراء ذات حافة أمامية زرقاء، فاقترب «ميم» من السيارة الواقفة أمام الباب مباشرة، وهو لا يزال قابضًا على يد ابنته، التي تحاول التخلص منه، وقال للسائق.

- أنا «ميم نون».

فانتفض السائق وهبط من السيارة ووقف بجوارها رافعًا يده لتحية «ميم»، وظل على هذا الوضع ساكنًا لا يتحرك، فصرخت الطفلة صرخات هستيرية وأطل من عينيها فزع شديد. احتضنها «ميم»، ووضعها على كتفه فتشبثت بعنقه، وقال «ميم» مخاطبًا السائق:

- أشعر بإعياء شديد ودوار، وابنتي مسكينة فقدت عقلها، وأنا الآن ذاهب لأدور في الطاحونة، فهل من الممكن أن تحملني السيارة؟

- يؤسفني يا سيدي العظيم أنني لا أستطيع أن أحظى بشرف نقلك بهذه السيارة إلى الطاحونة.

فقال «ميم» مندهشًا:

- ولماذا؟ أنا في أشد حالات الإرهاق، ولا أستطيع السير حاملًا ابنتي على كتفي طوال الطريق!

فقال السائق، وهو لا يزال واقفًا رافعًا يده بالتحية:

- جميع هذه السيارات معدة لنقل موظفي البرج، الذين هم في خدمتك ورهن إشارتك، وأنت يا سيدي أعلى من في البرج قدرًا، والأوامر التي صدرت تنص على ركوب الموظفين، وأنت يا سيدي العظيم لا تعتبر موظفًا بالبرج؛ لأنك أرفع من ذلك مقامًا!

فأطرق «ميم» للأرض، وسار متجهًا نحو الطاحونة وابنته على كتفيه، محتضنة عنقه في فزع، وقد تدلت ساقاها على صدره، وما كاد يسير بضع خطوات حتى شعر بأن ساقيه لا تقويان على حمله، ورأى منظرًا عجيبًا: لقد ازدحمت الطريق بالآف البشر يلوحون بأيديهم وينحنون له، وأخذ كل من في الشرفات يلقون عليه الورود والأزهار، وينشدون له أناشيد عذبة الألحان، والدموع تسيل من عينيه ومن عيني ابنته..!

20

عندمـا وصـل «ميم» إلـى الطاحونـة، كان على وشـك الانهيار، يجر سـاقيه بصعوبـة وابنته فـوق كتفيه تهز سـاقيها هزات عصبيـة، فتصدمان صدره بعنف. أنزل ابنته من فوق كتفيه، وضغط على زر جرس الطاحونة ففتح الباب، وأطل منه الحارس الذي حيا «ميم» بابتسـامة عريضة، وقال في سخرية:

- أين كنت؟ لقد انتظرتك طويلًا حتى كدت أيئس من حضورك، هل تنوي أن تجعلني عاطلا بلا عمل؟

فلزم «ميـم» الصمت، وأخذت ابنته تدير بصرهـا في أنحاء الطاحونة فاتحة فمها في ذهول. ثم استولى عليها رعب شديد، فجلست القرفصاء في أحد أركان الطاحونة، لا تحرك بصرها عن أبيها الذي وضعه الحارس داخل الحلقة، وبدأ يدور في الطاحونة. التقط الحارس السوط الذي كان مركونًا على الجدار، وأخذ يهوي به على جسـد «ميم»، كما تقضي تقاليد الطاحونـة. ومـا كادت الطفلة ترى أباها يضرب بالسـوط، حتى انفجرت تبكي وتصرخ وتشـد شعرها وتلطم خديها، واندفعت نحو أبيها تحتضنه

وتتشبث به، فهوى الحارس على جسدها بالسوط، وجذبها من يدها، وألقى بها في الركن الذي كانت قابعة فيه!

فتوقفت عن البكاء من هول الصدمة، وأخذت تدور في أنحاء الطاحونة، تهذي قائلة:

- في الصباح أعدموا أخي. في المساء سيعدمونني.. في الفجر سيعدمون أبي... غطوني بالأزهار عندما أعدَم حتى لا أشعر بالبرد... أريد أزهارًا كثيرة مثل التي ينثرونها من الشرفات فوق أبي... والتي نثروها فوق أخي...

ثم انتابتها نوبة بكاء عنيف، فانسحبت إلى الركن الذي كانت فيه، وجلست القرفصاء وقد دفنت رأسها في حجرها، وجسدها ينتفض دون أن يسمع لبكائها صوت.

انتهى «ميم» من الدوران في الطاحونة، فأعطاه الحارس عشرين قرشًا. كانت ابنته ما زالت جالسة القرفصاء في ركن الطاحونة تبكي. ذهب إليها وجذبها من يدها برفق، ولكنها انتفضت واقفة في ذعر، وأخذت تبكي وتصرخ صرخات هستيرية، وتلطم وجهها بيدها حتى توردت وجنتاها الشاحبتان، فاحتضنها «ميم» بقوة، وأخذ يربت على ظهرها ويقبلها، فهدأت قليلًا وأخذت تقبل يد أبيها، ثم ركعت على الأرض واحتضنت ساق أبيها، وأخذت تقبل قدمه، وحارس الطاحونة واقف ينظر إليهما

بصبر نافد، منتظرًا خروجهما ليقفل باب الطاحونة. سحب «ميم» ابنته من يدها وخرجا معًا إلى الشارع.

ذهل «ميم» عندما رأى الأجساد البشرية المتلاصقة نساء ورجالا وأطفالا تملأ الشارع، حتى إن حركة أي فرد أصبحت مستحيلة. وحاول بعضهم الانحناء لـ«ميم» عندما رأوه خارجًا من الطاحونة، ساحبًا ابنته فلم يتمكنوا من شدة الزحام، وحاول «ميم» شق طريقه فلم يتمكن.

أخذت ابنته تصرخ وتولول، وفي مثل لمح البصر تخلصت من قبضة يد أبيها واختفت بين الأجساد البشرية، وكأنها عصفورة صغيرة ابتلعتها مياه المحيط. وقف «ميم» حائرًا لا يدري كيف يبحث عن ابنته، وأين اختفت. إذ لم يستطع أن يخطو خطوة واحدة في أي اتجاه بسبب ضغط الأجساد البشرية عليه. وبعد فترة قصيرة، سمع صراخ ابنته وبكاءها، على بُعد نحو عشرة أمتار.

ولكنه لم يستطع الوصول إليها، فأخذ يناديها، ولكنها استمرت في صراخها وبكائها.

بدأ العرق يتفصد من جبينه. وبدأ جسده يرتجف خوفا على ابنته، وحاول بكل قوته أن يشق طريقه نحوها، ولكن صراخها توقف ولم يعد يَسمع لها صوتًا، فأسرعت دقات قلبه، وخشى أن تكون قد نفذ فيها حكم الإعدام! وحانت منه التفاتة نحو شرفات المنازل، فوجدها مكتظة بالأجساد البشرية المتلاحمة. ورأى عددًا من الشرفات ينوء بما يحمله،

فيسقط فوق رءوس الجماهير المحتشدة في الشارع، وارتفع الصراخ والعويل. وعلى الرغم من هذه الضوضاء وهذا الصياح، الذي أخذ ينبعث من أماكن متفرقة عقب سقوط الشرفات بمن فيها، فلقد التقطت أذن «ميم» صراخ ابنته، ذلك الصراخ الهستيري، ولكن صوتها في هذه المرة كان منبعثًا من مكان أبعد من المكان السابق. اندفع شاب نحو باب الطاحونة، وأخذ يضغط على زر الجرس. كان الشاب يختنق وينفذ فيه حكم الإعدام. وفتح باب الطاحونة وأطل منه الحارس، ونظر في بلاهة، وكأنه لا يدري شيئًا عما يحدث خارج الطاحونة، فأسرع الشاب نحو آلة التليفون التي بالطاحونة قائلًا:

- سأطلب الإسعاف.

واندفع خلفه إلى الطاحونة عدد من الجماهير؛ هربًا من الزحام حتى ازدحمت الطاحونة وتلاصقت فيها الأجساد. ودون أن ينتظر الشاب الإذن له باستخدام التليفون، التقط السماعة وأدار رقم الإسعاف، وطلب النجدة، وسمعه «ميم» يقول مخاطبًا الطرف الآخر على خط التليفون:

- لقد ازداد عدد السكان زيادة رهيبة، وأصبحوا يسدون الطريق، وتعذرت الحركة.. لا أحد يستطيع أن يتحرك.

وبعد فترة، سمعه «ميم» يقول:

- لا أستطيع الانتظار أكثر من دقيقتين.. إننا نختنق. هل صدرت أوامر مالك المدينة بتنفيذ حكم الإعدام فينا اختناقا؟

ولما أنهى الشاب مكالمته ووضع سماعة التليفون في مكانها، هاله أن رأى الطاحونة، وقد امتلأت بالأجساد البشرية التي بدأت تئن وتتوجع، فبقي في مكانه عاجزًا عن الحركة في أي اتجاه.

وظل «ميم» بجوار باب الطاحونة، لكي يتسنى له سماع صراخ ابنته، التي غرقت في وسط هذا البحر الهائج من الجماهير، ولكن صوتها انقطع مرة أخرى. وبعد نحو ثلاث دقائق، وصل إلى أذنه صراخ ابنته ضعيفًا وكأنه آت من مكان بعيد، وصار الصوت يبتعد شيئًا فشيئًا حتى أصبحت أذن «ميم» عاجزة عن التقاطه.

في هذه اللحظة، سمع «ميم» صوت صفارات وأخذ الصوت يقترب ويعلو، أدرك أن هذا الصوت ينبعث من خمس سيارات صفراء اندفعت في الشارع بأقصى سرعتها منفذة حكم الإعدام في آلاف من البشر المتلاحمين. فسقط على الأرض عدد كبير منهم؛ ثم أخذ صوت صفارات السيارات يتلاشى تدريجا حتى اختفى، ثم عاد يعلو ويقترب من جديد، واندفعت السيارات تنفذ حكم الإعدام في عدد آخر من الجماهير، وسقطت على الأرض جثث أخرى.

بدأ الزحام يقل، وأصبحت حركة من بقي على قيد الحياة ممكنة، وأقبل عدد من السيارات السود هبط منها رجال يرتدون ملابس السهرة السود، ورفعوا جثث الموتى، ووضعوها في السيارات التي انطلقت نحو البالوعة لإلقاء الجثث فيها.

نظر «ميم» إلى الشارع الذي بدا له، وكأنه لا يزال مزدحمًا، ولو أن الحركة فيه أصبحت ممكنة، فانطلق يعدو باحثًا عن ابنته. إنه لم يسمع صراخها منذ فترة طويلة، ترى هل تم تنفيذ حكم الإعدام فيها تحت عجلات السيارات الصفراء، وألقوا بجثتها في البالوعة مع آلاف الجثث؟

لم يستطع «ميم» السيطرة على مشاعره، حينما تذكر ابنته عندما كانت تهذي وتقول: «ضعوا كثيرًا من الأزهار على جثتي، عندما أُعدَم حتى لا أشعر بالبرد!» فانسابت الدموع من عينيه، وسار متجهًا نحو البرج. والتقطت أذناه صوت بكاء ضعيف، خيل إليه أنه صوت ابنته ولكنه لم يستطع تحديد المكان الصادر منه، فأخذ يجري على غير هدى، ويدور في جمع الاتجاهات مناديًا ابنته. وأخذ صوت البكاء يعلو ويقترب، فتوقف ليحدد الاتجاه المنبعث منه الصوت. ورأى ابنته كانت واقفة على إفريز الشارع بجوار الجدار تبكي وتلطم خديها، نظر إليها «ميم» وكأنه يراها لأول مرة، لقد هاله شحوب وجهها وهزالها الشديد، حتى أصبحت ساقاها وكأنهما عظمتان دقيقتان لا يكسوهما لحم! وخيل إليه أن رقبتها قد استطالت لشدة نحولها، ورأى ثوبها ممزقًا مهلهلًا، فاندفع نحوها واحتضنها بقوة وأمطرها بالقبلات، ولكن الطفلة ظلت تبكي وتصرخ في فزع شديد، فحملها على كتفيه واحتضنت عنقه حتى كادت تزهق روحه.

وقـف «ميـم» حائرًا لا يدري ماذا يفعل، هل يذهـب إلى البرج أو إلى المنـزل؟ وتذكر أنه لـم يتناول طعامًا لا هو ولا ابنته منذ فترة طويلة، ففكر فـي الذهاب إلى مطعم متواضع. وتحسـس العشـرين قرشًا التي أخذها مـن حـارس الطاحونة، فوجدها فـي مكانها بجيب سـترته الأيمن، ففكر في شـراء طعـام رخيص لابنته، يقيـم أودها ويصبر هو علـى الجوع فترة أخرى، وواصل السير. فرأى مطعمًا ليس به سوى أربع مناضد، تفوح منه رائحة الشواء. وعندما استنشقت ابنته رائحة الطعام توقفت عن الصراخ، كان أمام هذا المطعم طابور طويل، فوقف «ميم» عند نهاية الطابور حاملًا ابنتـه على كتفه، وظـل الطابور يتقـدم نحو باب المطعم في بطء شـديد. وبعد نحو سـاعة وجد «ميم» نفسـه، في مقدمة الطابور، وجها لوجه أمام صاحب المطعم.

كان صاحـب المطعـم قصيرًا ضامر الجسـم، يرتـدي بدلة رمادية أنيقة، اقترب منه «ميم» وقال:

- أريد طعامًا لابنتي لا يزيد ثمنه على عشـرين قرشًا، فهذا المبلغ هو كل ما أملك..

فانحنى له الرجل احترامًا، ثم ركع على الأرض يقبل قدمي «ميم» ثم اعتدل وقال:

- يؤسفني يا سيدي «ميم»..

فقاطعه «ميم» قائلًا:

- هل تعرف اسمي؟ لم أكن أتصور أنك تعرف اسمي.

فقال الرجل:

- وهل بالمدينة من لا يعرف السيد «ميم»؟ إنك أشرف من في هذه المدينة وأعلاهم قدرًا. إنك تبحث عن الحقيقة وجميع أهل المدينة في انتظار ما ستصل إليه من نتائج!

إننا جميعًا نريد أن نعلم الحقيقة، وهل يوجد أشرف ممن يبحث عن الحقيقة؟ ولكن يؤسفني يا سيدي العظيم القدر الرفيع الشأن أن أخبرك أن العشرين قرشًا لم تعد كافية لشراء رغيف واحد، بعد أن ارتفعت الأسعار! ولذا فسوف أعطيك بالعشرين قرشًا ربع رغيف؛ لتمسك به رمق ابنتك التي أراها هزيلة شاحبة الوجه، وأتمنى لك من صميم قلبي النجاح والتوفيق في مهمتك الصعبة النبيلة.

فأخرج «ميم» العشرين قرشًا من جيبه وأعطاها للرجل، الذي سلمه ربع رغيف، اختطفته ابنته قبل أن يتمكن «ميم» من لمسه والتهمته في مثل لمح البصر! كانت الطفلة لا تزال فوق كتفي «ميم»، الذي قرر الذهاب إلى منزله لرؤية زوجته، وليترك الطفلة عندها لرعايتها؛ حتى يتسنى له التفرغ للبحث عن الحقيقة.

واصل «ميم» السير نحو منزله، وعلى جانبي الشارع استرعى انتباهه وجود طوابير طويلة أمام جميع المطاعم والمحال التجارية، بعضها يبدو

وكأنـه ممتـد إلى مالا نهايـة، ووصل إلى المنزل فأخـذ يبحث عن مفتاح الباب في جيوبه، وسمع ضجة منبعثة من داخل المنزل، فقال لنفسه:

- يا لها من زوجة! إنها غارقة حتى أذنيها في إقامة الحفلات والولائم وابنتها المسكينة تتضور جوعًا!

أدار «ميـم» المفتـاح في ثقب البـاب، وفتح البـاب، ووقف مذهولًا رأى البهـو وقد امتلأ بالرجال والنسـاء والأطفال. ومـا كاد يدخل حاملًا ابنتـه علـى كتفيه، حتى أحاط به عدد من الأطفال والرجال، وسـأله رجل مفرط في الطول نحيل متقوس الظهر:

- من أنت؟

فأنزل «ميم» ابنته من فوق كتفه، وقال:

- هذا منزلي، أسكن هنا مع زوجتي وطفلتي.

فقالت امرأة عجفاء ذات رأس صغير ورقبة طويلة وأنف مدبب، يبدو رأسها أشبه برأس الأوزة:

- آه! لا بد أنك السيد «ميم نون».

فقال «ميم»:

- نعـم.. أنا «ميم نون».. أنا الذي ينبغي أن أسـألكم: من أنتم؟ فتقدم نحوه رجل قصير في نحو السبعين، ذو نظارة غليظة العدسات، وقال:

- منذ خروجك من منزلك آخر مرة، ازداد عدد سكان المدينة زيادة رهيبة، ولم تعد المساكن كافية لإيوائهم جميعًا، فأمر مالك المدينة بوضع كل خمس عائلات في مسكن واحد. ومما زاد الأزمة تفاقمًا أن كل عائلة أصبح لها بيتان، واحد يطل على الواجهة وآخر في الجزء الخلفي من المدينة!

فقال «ميم»، وقد شعر باكتئاب شديد ويأس قاتل:

- وأين زوجتي؟

فقالت امرأة بدينة جاحظة العينين، وقد ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتيها الغليظتين:

- آه!. زوجتك!.. لقد فضّلت أن تعيش في الجزء الخلفي للمدينة، لم نعد نراها هنا!

ثم ضحكت وأطرقت للأرض قائلة:

- ألم ترها من مدة طويلة؟

فقال «ميم»:

- رأيتها أمس، كانت قد أقامت حفلًا راقصًا احتفالًا بتنفيذ حكم الإعدام فيّ وفي طفلنا.

فتجمع حوله عدد من الرجال والنساء ناظرين إليه في دهشة، وقال الرجل القصير:

- تقيم حفلًا راقصًا بمناسبة تنفيذ حكم الإعدام فيك!

وقالت المرأة التي تشبه رأسها رأس الأَوزة:

- ولكنك مازلت على قيد الحياة!

فقال «ميم»:

- لقد تأجل تنفيذ حكم الإعدام في، ولم تكن زوجتي تعلم ذلك، فروّعها ظهوري المفاجئ.

بدأت الطفلة تصرخ وتهذي، فاحتضنها «ميم» محاولًا تهدئتها، فقال الرجل الطويل:

- لماذا تصرخ هذه الطفلة؟ إن صراخها يفتت الأكباد!

فقال «ميم»:

- لقد نفذ حكم الإعدام في أخيها، وعندما ألقوا بجثته في البالوعة، وعلمت أن كل من في المدينة محكوم عليهم بالإعدام فقدت عقلها. فهي تصرخ وتبكي منذ تلك اللحظة، ولقد أرسلتها زوجتي إلى البرج، ووضعتها في غرفة مجاورة لغرفتي.

فضحكت المرأة البدينة جاحظة العينين، وقالت:

- وجود ابنتها معها سيعكّر عليها صفو الحياة، التي تنعم بها في الجزء الخلفي للمدينة!

فجلس «ميم» على أحد الكراسي وأطرق للأرض مفكرًا، وقفزت ابنته فجلست على فخذه، وبدأ يهبط من الطابق العلوي عدد آخر من الأفراد، تجمعوا حوله في شبه حلقة، على حين كان عدد من الأطفال ينزلقون على درابزين السلم مطلقين ضحكات عالية، فشعر «ميم» أنه يكاد يختنق، فقال وهو مطرق للأرض محتضنًا ابنته:

- هل من الممكن أن أجد مكانًا هنا في منزلي لأنام فيه أنا وابنتي؟

فقالت فتاة في نحو السابعة عشرة ذات وجه جميل، وساقين معوجتين:

- لا أماكن ثابتة للنوم، نحن ننام حيثما اتفق، ومن ينم مبكرًا يظفر بمكان، أما من يتأخر في النوم فقد يضطر للنوم واقفًا على قدميه!

وضحكت ضحكة عالية، وضحك معها عدد من النساء والرجال.

فقال «ميم»، وقد ازداد شعوره باليأس:

- هل من الممكن أن أترك ابنتي هنا معكم؛ حتى أتمكن من الاستمرار في أداء رسالتي في البحث عن الحقيقة؟

وسمع «ميم» في هذه اللحظة همهمة وهمسًا، وانحنى الرجل الطويل هامسًا في أذن الرجل القصير البدين قائلًا:

- لقد أقيم البرج من أجله. في البرج أكثر من أربعة آلاف موظف ليساعدوه على أداء مهمته، كلهم تحت أمره ورهن إشارته.

وقالـت الفتـاة ذات الوجـه الجميـل والسـاقين المعوجتيـن، موجهة حديثها للمرأة البدينة:

- إنه أهم شخص في البرج. كل من في البرج في خدمته.

فقالت المرأة البدينة:

- بل هو أهم شخص في المدينة، لقد نشروا صورته في صفحة كاملة في صحيفة «أخبار المدينة»، وكتبوا عنه مقالًا طويلًا.

فقالت الفتاة، وقد تجهم وجهها:

- مـن المؤكـد أنـه لـم يقـرأ هـذا المقـال؛ فهـو فقيـر لا يملـك ثمن الصحيفة!

ولما لم يتلق «ميم» إجابة عن سؤاله، أعاد السؤال قائلًا:

- كنـت أقول: هل من الممكن أن أترك ابنتي هنا؛ لأتمكن من التفرغ لأداء مهمتي في البحث عن الحقيقة؟

وفـي هذه اللحظة قفـزت ابنته من فوق فخذه، وأخـذت تصرخ تلك الصرخات الهستيرية وتبكي، وتلطم خديها، فقال الرجل الطويل:

- يخيل إليّ أن ابنتك لا تستطيع البقاء بعيدة عنك.

وقالت المرأة البدينة:

- ولا يمكننا أن نحتمل صراخها وعويلها هنا طوال اليوم! كل منا لديه ما يشغله ولا يسمح وقتنا بالعناية بابنتك المسكينة هذه، والعناية بأبنائنا في الوقت نفسه!

وقالت المرأة التي يشبه رأسها رأس الأَوزة:

- كان من الواجب أن تتحمل أمها مسئولية رعايتها، إنها ابنتها وليست ابنتنا.

واستمرت الطفلة في صراخها، وهي تدور في أنحاء البهو على غير هدى، وقد أخذ الأطفال يشدونها من ثوبها ويعبثون بشعرها ويقرصونها في ذراعها فيزداد صراخها. وجذبها طفل من ساقها فانكفأت على وجهها، وانخرطت في بكاء عنيف، وبينما يهم «ميم» ليحتضن ابنته، دق جرس التليفون الذي نقل من الطابق العلوي، وألقى به في أحد أركان البهو، فحدث هرج وتسابق عدد من الأطفال والفتيان لالتقاط السماعة حتى كادت تنشب بينهم معركة، وأخيرًا انتزعت الفتاة ذات الساقين المعوجتين السماعة منهم، وقالت:

- من المتكلم؟

ثم قالت:

- أجل.. إنه هنا.. حضر منذ دقائق.

وقدمت السماعة لـ«ميم» قائلة:

- المكالمة لك يا سيد «ميم».

كانت الطفلة مازالت تصرخ وتهذي، فأخذ «ميم» السماعة من الفتاة، وقال:

- أنا «ميم نون».

كانت الفتاة ذات الوجه الجميل والساقين المعوجتين قد أسرعت، وحملت الطفلة على كتفها باذلة أقصى جهدها لتهدئتها، ولكنها ظلت تصرخ، وكاد صراخها يطغى على صوت المتكلم، عند الطرف الآخر من الخط. ولكن أذن «ميم» الملتصقة بالسماعة تمكنت بصعوبة من التقاط صوت المتكلم يقول:

- لماذا لم تحضر إلى البرج؟ الجميع في انتظارك، لقد حان وقت استئناف العمل.

فقال «ميم»:

- سأحضر على الفور.

ووضع سماعة التليفون في مكانها.

كانت ابنته لا تزال تهذي وتبكي فاحتضنها، وغادر المنزل متجهًا نحو البرج وهي تتلوى بين يديه وتئن أنينًا خافتًا.

وفي طريقه إلى البرج اصطف الناس على جانبي الطريق يحيونه ويعزفون له الموسيقى من الشرفات. وأخذت ابنته التي حملها على

كتفيه تبكي وتطوق عنق أبيها في فزع، و«ميم» قابض على خصرها النحيل بكلتا يديه. وفوجئ «ميم» في أثناء سيره بمظاهرة، تمر بجواره في صمت وفي مقدمتها شابان يحملان لافتة مكتوبًا عليها «لا تذكروا الذين أُعدموا»، فلم يفهم شيئًا وسار خلف المتظاهرين.

بدأ الظلام يهبط وأضيئت مصابيح الشارع وواجهات المحال التجارية، وواصل «ميم» سيره خلف المتظاهرين. وقبيل الوصول إلى البرج رأى نارًا مشتعلة في الشارع، فكفت ابنته عن البكاء وظلت محملقة في النارفي رعب. وتعجب «ميم» لوجود هذه النار التي ترتفع ألسنتها ارتفاعًا شاهقًا، وتضفي على الشارع لونًا عجيبًا من الضياء غير مألوف. رأى «ميم» فتاة في نحو الخامسة عشرة تبتسم وتنحني له، وتلوح له بعلم صغير، فسألها:

- ما الذي يحدث هنا؟

فانحنت الفتاة لـ«ميم» انحناءة أخرى احترامًا له، وقالت:

- إنهم يحرقون الكتب التي نفذ حكم الإعدام في مؤلفيها!

فقال «ميم» مندهشًا:

- ولماذا يفعلون ذلك؟

- لقد ازداد عدد سكان المدينة زيادة رهيبة، وكثر المؤلفون، وشعر المؤلفون الأحياء بأن المؤلفين الذين أُعدموا ينافسونهم، والناس تقبل

على شـراء كتب الذين أُعدموا، أكثر من إقبالهم على شراء كتب الأحياء، ولـذا فلقد نظـم المؤلفون الأحيـاء هذه المظاهرة، وجمعـوا كتب جميع الذين أُعدموا من المؤلفين وأضرموا فيها النار.

قـال «ميم» وقد تجهم وجهه، وشـعر باليأس يسـري في جميع خلايا جسده:

- ولكـن المؤلفيـن الأحياء لـن يحسـنوا الكتابة، إلا إذا قـرأوا كتب الذين نفذ فيهم حكم الإعدام.

فابتسـمت الفتاة وانحنت لـ«ميم» محيية وسـارت فـي طريقها. وقال «ميم» محدثًا نفسـه وقد اسـتبد به الاكتئاب، وود لـو يذهب إلى البالوعة ويلقي بنفسه فيها:

- المدينـة التي تحرق كتب الذين نفذ فيهم حكم الإعدام لا تسـتحق أن يعيش فيها الأحياء!

وواصل سيره نحو البرج. وعندما وصله، عزفت الموسيقى واصطف الحـرس على الجانبيـن، وقد رفعوا أيديهـم له بالتحية. فسـار بين صفي الحرس وبدأ يصعد السلم محتضنًا ابنته، التي صارت تطلق من حين لآخر صرخـة يتردد صداهـا في أنحاء البـرج. وعندما وصل إلـى الطابق الذي بـه المطعم، شـاهد عددًا من الموظفيـن يتناولون عشـاءهم، وقد انبعثت مـن المطعم رائحة الشـواء، فازداد صراخ ابنتـه، وانحنى له جميع الخدم الذين كانوا أمام باب المطعم، واسـتمر صاعدًا السلم محاولًا تهدئة ابنته بلا جدوى.

وعندما وصل إلى غرفته عند قمة البرج، لم يجد بها سوى مصباح واحد خافت الضوء، ونظر من خلال النافذة العريضة المفتوحة دائمًا بلا مصاريع التي تطل على الشارع، فوجده جميلًا سابحًا في ذلك الضوء القوي المتعدد الألوان، على حين أن الجزء الخلفي من المدينة الذي يراه من النافذة المقابلة بدا مظلمًا كئيبًا، وتذكر زوجته، ترى في أي مكان في الجزء الخلفي قد استقر بها المقام؟ وماذا تفعل في هذه اللحظة؟ لا بد أنها الآن بين أحضان الشاب العملاق، مطلقة العنان لشهواتها غير عابئة به ولا بابنتها المسكينة المحتاجة لرعايتها! والتفت فلم يجد ابنته في الغرفة، فانطلق يعدو نحو الغرفة المجاورة، فوجد ابنته تطل من النافذة وقد ارتفعت ساقاها عن أرض الغرفة، وتدلى نصفها العلوي في الفضاء، فسار على أطراف أصابعه؛ حتى لا تفزع فتهوي من قمة البرج إلى الشارع واحتضنها، فأطلقت صرخة رعب، ثم تشبثت به وهي مستمرة في صراخها. أخذها معه إلى غرفته، وبعد لحظات دق جرس التليفون، فالتقط السماعة بيده اليمنى، ويده اليسرى تحضتن ابنته، وقال:

- من المتكلم؟

فسمع صوتًا يقول:

- هل ترغب في الاستفسار عن أي شيء؟ إنني....

فحال صراخ ابنته دون سماع باقي الحديث، فأعاد سؤاله قائلًا:

- من المتكلم؟

- لا شأن لك بالمتكلم، فمعرفتي لن تقدم ولن تؤخر، فأنا شخص لا تعرفه، هل ترغب في الاستفسار عن شيء؟ إنني على استعداد لتزويدك ببعض المعلومات.

فقال «ميم» وهو لا يزال محتضنا ابنته بقوة؛ حتى لا تفلت منه، وقد هدأ صراخها:

- نعم، أود الاستفسار عن أمر يحيرني.

- ما هو؟

- لماذا حُكم على سكان المدينة بالإعدام؟ لماذا جعلهم مالك المدينة يواجهون هذا المصير الرهيب؟

- لأن مالك المدينة غير راض تمام الرضا عن نوعية هذه الدمى، التي صنعها، ويرغب في صنع أنواع أرقى منها، ولذا فلا بد أن يدمرها، ليصنع غيرها.

- والدمى الجديدة التي سيصنعها، هل سيعفيها من تنفيذ حكم الإعدام؟

- لا أحد يدري! هذا يتوقف على مبلغ رضائه عن نوعيتها، إذا لم يرض عن نوعيتها فسوف يعدمها هي الأخرى؛ ليصنع دمى جديدة قد

تكون أفضل منها، هل تعلم أن جميع سكان المدينة ما هم سوى دمى صنعها مالك المدينة؟

- نعم، أعلم ذلك.

- أنصتْ جيدًا لما سأقوله لك. يوجد شيء مهم ينبغي أن تعرفه لتستفيد منه في البحث عن الحقيقة؛ هل تنصت لي جيدًا؟

- نعم، أنا منصت بكل جوارحي.

- إذن اسمع...

وفي هذه اللحظة، أفلتت الطفلة من يد «ميم»، وأخذت تصرخ صرخاتها الهستيرية وتلطم خديها، فلم يستطع «ميم» سماع كلمة واحدة من المتحدث، وترك سماعة التليفون مدلاة تتأرجح كبندول الساعة والحديث لا يزال منبعثًا منها، و«ميم» في شوق ولهفة لسماعه، وانشغل بتهدئة ابنته، ولكنها بدت وكأنها لا تريد أن تهدأ، فشعر «ميم» برغبة في البكاء وتمنى أن ينفذ فيه حكم الإعدام في هذه اللحظة. شعر «ميم» بعطف شديد على ابنته وود لو يفعل أي شيء ليخفف عنها هذا البلاء. نظر إلى وجهها الشاحب وجسمها الهزيل، ورأى عينيها وقد اتسعتا وأطل منها رعب شديد، فطوقت أباها بذراعيها، وأخذت تغمره بالقبلات قائلة:

- أنا أحبك... أحبك... أنا خائفة.. أنا خائفة.

وضغطت بيديها على عنق أبيها من شدة الفزع، حتى كاد يختنق، وقالت:

- أنا خائفة.. أنا أحبك يا بابا.. لا تتركني وحدي.. أنا خائفة...

فأخذ يهدئ من روعها قائلًا:

- لا تخافي يا حبيبتي.. لن أتركك أبدًا.

فقالت، وقد بدا في عينيها بريق غريب:

ولكنهم سيعدمونك.. وسيعدمونني.. كلنا محكوم علينا بالإعدام.

وانخرطت في بكاء عنيف، وتمنى «ميم» أن ينفذ فيهما حكم الإعدام معًا في هذه اللحظة ويرتاحا من هذا العذاب القاسي. لم يستطع السيطرة على مشاعره، فاحتضن ابنته الخائفة المعذبة، وأخذ يبكي بصوت غير مسموع، ولكن جسده كان يرتجف. وحانت منه التفاتة إلى ركن الغرفة الذي كانت الكتب مكدسة فيه، فوجد شيئًا لم يكن قد لاحظه منذ دخوله الغرفة هذا المساء. لقد اختفت معظم الكتب، ولم يعد باقيًا بهذا الركن سوى عشرة كتب، وسمع «ميم» طرقًا على باب الغرفة، ونظر فوجد الخادم واقفًا منتصب القامة مبرقش الثياب، فسأله «ميم» ماذا يريد. فانحنى له الخادم باحترام زائد، وقال:

- هل تسمح لي يا سيدي أن أضع سماعة التليفون في موضعها؟ إنها مدلاة منذ فترة طويلة، وحاول عديد من الأفراد الاتصال بك في هذه الأثناء، ولم يتمكنوا من ذلك.

فقال «ميم»، والدموع ما زالت تترقرق في عينيه:

- افعل ما تريد.

فدخل الخادم ووضع السماعة في موضعها، وانحنى لـ«ميم» حتى كاد رأسه يلمس أرض الغرفة، ثم انتصب واقفًا ورفع يده بالتحية، وظل يتقهقر بظهره حتى خرج من باب الغرفة. ناداه «ميم»، فأسرع الخادم وانحنى مرة أخرى، ووقف منتصبًا عند باب الغرفة قائلًا:

- سمعًا وطاعة يا سيدي.

فقال «ميم»:

- أين باقي الكتب التي كانت في هذا الركن؟ كانت هنا عشرات الكتب المكدسة، فلم يبق منها سوى عشرة.

- فقام الخادم:

- لقد أحرقوها.

قال «ميم» في فزع:

- أحرقوها؟! لماذا؟

- أحرقوا كتب جميع المؤلفين الذين نفذ فيهم حكم الإعدام، وتركوا كتب الذين لم ينفذ فيهم حكم الإعدام بعد.

فقال «ميم»، وكأنه يحدث نفسه:

- ولكن الأحياء سينفذ فيهم حكم الإعدام إن عاجلًا أو آجلًا، ويُلقى بهم في البالوعة! حتى الكتب في هذه المدينة محكوم عليها بالإعدام! ما أبشع هذه المدينة!

قال الخادم:

- أي أوامر أو استفسارات أخرى يا سيدي؟

فقال «ميم»، والحزن يملأ قلبه:

- يمكنك أن تنصرف.

فانحنى الخادم محييًا «ميم» وتقهقر بظهره حتى خرج من الغرفة. ودق جرس التليفون، فاحتضن ابنته، والتقط السماعة وسمع الصوت نفسه الذي سمعه من قبل يقول:

- لقد ذكرت لك أشياء عديدة، كانت ستساعدك كثيرًا في بحثك عن الحقيقة، ولكن يبدو أنك لم تسمع منها شيئًا. كنت في أثناء حديثي أسألك بعض الأسئلة، فلم أكن أسمع منك أية إجابة أو استجابة. أين كنت؟

فقال «ميم» معتذرًا:

- كنت مشغولًا بتهدئة ابنتي المسكينة التي فقدت عقلها، كانت تصرخ صراخًا مستمرًّا، فلم أستطع سماع باقي حديثك.

- لا يمكنني إعادة ما قلت، فهل لديك أي استفسارات؟

فقال «ميم» على الفور:

- نعم، أريد أن أستفسر عن شيء آخر يحيرني.

- ما هو؟

- كل أهل المدينة تبدو عليهم علامات الثراء، المحال التجارية والمطاعم مزدحمة، والجميع يشترون كل ما يريدون شراءه، ويأكلون أشهى الأطعمة فمن أين يحصلون على هذا المال، في حين أنني أنا وابنتي نتضور جوعًا، وأدور في الطاحونة في مقابل عشرين قرشًا، لم يعد في استطاعتي أن اشتري بها أكثر من ربع رغيف؟

فقال المتحدث:

- كل أهل المدينة يحصلون على المال بالطريقة نفسها التي اتبعتها زوجتك للحصول على المال الوافر الذي أقامت به الحفلات والولائم.

فانقبض قلب «ميم» عند ذكر زوجته، وقال:

- وكيف حصلت زوجتي على المال؟

فقال الطرف الآخر:

- حصلت على المال بالطريقة نفسها التي يحصل بها عليه كل سكان المدينة.

فقال «ميم»:

- هل في المدينة طواحين أخرى لا أعرفها، تعطي أجرًا أعلى من الأجر، الذي أتناوله من تلك الطاحونة التي أدور فيها؟

- ليس في المدينة من يدور في الطاحونة سواك!

فشعر «ميم» كأن صاعقة انقضت عليه، ولزم الصمت فترة من الزمن، فسمع صوت الطرف الآخر يقول:

- ألو.. ألو.. هل أنت معي على الخط؟

فقال «ميم» بصوت واهن:

- نعم، مازلت معك على الخط، ما معنى هذا الكلام الذي قلته؟ هل أنا الشخص الوحيد الذي يدور في الطاحونة في هذه المدينة، ويُلهب ظهره بالسياط؟

- أجل، أنت الشخص الوحيد الذي يدور في الطاحونة، ويلهب جسده بالسوط في هذه المدينة!

فقال «ميم»، وقد بدأ يشعر بدوار:

- ومن أين يحصل باقي أهل المدينة على تلك الأموال الطائلة التي ينفقونها بلا حساب؟ إذ لم ألحظ وجود من يرزح تحت وطأة ارتفاع الأسعار غيري؟

قال المتحدث:

- يحصلون على المال من الجزء الخلفي للمدينة.

فصاح «ميم» قائلًا:

- هل يمكن أن تفسر لي كيف يحدث هذا؟

قال الطرف الآخر في هدوء:

- في الجزء الخلفي للمدينة كل شيء مباح، هل تعلم ذلك؟

- نعم أعلم ذلك، ولكن كيف يحصلون على المال؟

- السرقة مباحة في الجزء الخلفي للمدينة. كل شخص مباح له أن يسرق هناك، ويودع ما يسرقه «المخزن العام» في الجزء الخلفي.

فصاح «ميم» مشدوهًا وقد شعر بأن ذهنه أصبح عاجزًا عن التفكير، ولم يعد في استطاعته فهم أي شيء.

- المخزن؟! أي مخزن هذا؟

فقال المتحدث في هدوء، وكأنه أستاذ يشرح لتلاميذه إحدى النظريات الاقتصادية المهمة:

- الكل يسرق في الجزء الخلفي للمدينة، ولكن لا أحد يستولى على ما يسرقه، بل يودعه «المخزن» ومن مجموع هذه السرقات يمتلئ المخزن. وكل شخص في أية لحظة من لحظات النهار أو الليل له الحق

فـي أن يذهـب إلى المخـزن، ويأخـذ أي مبلغ من المـال، ما عـدا أفرادًا قلائل، هم المقربون لمالك المدينة، وهؤلاء يحصلون على أموال طائلة عن طريق التبرعات والهبات.

فشـعر «ميم» بخدر يسـري في جسـده، وأوشـكت أن تسـقط من يده سماعة التليفون، وقال كأنه يحدث نفسه:

- إذن فلقـد كنـت أنا الشـخص الوحيد فـي المدينة، الـذي يدور في الطاحونة ويلهب ظهره بالسـياط؛ حتى يتفجر منه الدم في مقابل عشرين قرشًا لا تشتري سوى ربع رغيف!

فقال الطرف الآخر:

- أجـل. هذا صحيح.. أنت أشـرف من في هـذه المدينة. هيا واصل الرسـالة التي مـن أجلها أتيت.. هيـا ابحث عن الحقيقة فكلنـا في انتظار نتيجة بحثك.. هيا ابحث عن الحقيقة.. ابحث عن الحقيقة..

أحـس «ميـم» كأن هـذه الكلمـات تلطـم أذنه، وشـعر بيـده لا تقوى علـى حمـل السـماعة فتركها مـدلاة تتأرجـح، ولا يزال يسـمع بوضوح تلـك الجملة المتكـررة «ابحث عن الحقيقة» منبعثة من السـماعة. التقط السماعة بصعوبة وثبتها تحت ذقنه، وقال:

- ولمـاذا لـم يخبرني أحد بتلـك الحقيقة، وتركنـي الجميع أدور في الطاحونة وأتعذب؟

فقال المتحدث:

- كيف تطلب من أحد أن يخبرك عن إحدى الحقائق وقد جئت للمدينة للبحث عن الحقيقة؟ كان من المفروض أن تتوصل إلى معرفة تلك الحقيقة بنفسك، ولا يملك أحد حق اطلاعك على هذه الحقيقة، أو غيرها من الحقائق.

فصاح «ميم» قائلًا:

- من أنت؟

فقال المتحدث:

- لن تستفيد من معرفة اسمي، ولكنك قد تستفيد من سماع حديثي؟

فقال «ميم»:

- وما الحقيقة التي جئت المدينة لأبحث عنها؟

فسمع صوت يقول:

- حقائق كثيرة مازلنا نجهلها جميعًا، حتى أنا أتوق لمعرفتها والتيقن منها.

قال «ميم»:

- مثل ماذا؟

- حقائق تتعلق بمالك المدينة. حاول أن تعرف كل شيء عنه، وعليك أن تثبت وجوده، وتعرف ماذا يحدث لنا بعد أن ينفذ فينا حكم الإعدام ويلقوا بنا في البالوعة. هناك أقوال متعارضة ونريد أن نعرف الحقيقة. وهل نحن حقيقة دمى صنعها مالك المدينة؟ ولماذا صنعنا؟ وهل هو الذي يحركنا كما يشاء أو ترك لنا حرية الحركة؟ وما عمر هذه المدينة؟ وما مستقبلها؟ وماذا في داخل أجسامنا؟ كيف نتحرك؟ وكيف نفكر؟ وما الدمى الأخرى التي صنعها مالك المدينة غيرنا؟ وماذا في داخل أجسامها؟ وكيف تضاء المدينة؟ وكيف يسودها الظلام؟ وهل توجد مدن أخرى غير هذه المدينة؟ وماذا في هذه المدن إن وجدت؟ وكيف نفرح؟ وكيف نحزن؟ وكيف نخاف؟ وكيف يحدث الزلزال؟ ولماذا ينفذ حكم الإعدام في أطفال أبرياء، ويؤجل حكم الإعدام في البعض الآخر، حتى يبلغوا من العمر عتيًّا؟ كل أهل المدينة في انتظار معرفة ذلك.. وهناك أشياء أخرى نريد منك معرفتها.. مثل..

شعر «ميم» بإعياء شديد، فأفلتت السماعة من تحت ذقنه، فتركها مدلاة، وأطبق على الغرفة صمت رهيب، لم يعد يسمع الحديث الذي لا يزال منبعثًا من السماعة، وأدرك أن يده الأخرى لم تعد محتضنة ابنته. أدار بصره في أنحاء الغرفة فلم يجدها، أسرع نحو الغرفة الصغيرة الملحقة بغرفته، فوجد ابنته نائمة لأول مرة منذ رآها في البرج، وقد تَكَوَّر جسدها الصغير في أحد أركان الغرفة، فوقف ينظر إليها في حنان.

ثم جلس بجوارها ووضع يده على جبهتها، فانزعج عندما وجد جبهتها باردة كالثلج. لم تكن نائمة.. لقد نفذ فيها حكم الإعدام.

انحنى عليها يقبلها ودموعه تبلل وجهها، ولم يدر كَمْ مضى من الوقت وهو على هذه الحال. وحانت منه التفاتة، نحو باب الغرفة، فوجد الخادم واقفًا، وكأنه تمثال من الشمع، فصرخ «ميم» قائلًا:

- أين الأزهار؟

فقال الخادم، وقد شحب وجهه:

- أي أزهار يا سيدي؟

فقال «ميم» صائحًا:

- أريد أزهارًا كثيرة، أغطي بها جسدها حتى لا تشعر بالبرد!

فانطلق الخادم يعدو وعاد بعد لحظة، وفي يده باقة ضخمة من الأزهار اختطفها منه «ميم»، ونثرها فوق جثة ابنته، واختفى الخادم، ورأى «ميم» عند باب الغرفة رجلين يرتديان ثياب السهرة السود، وعلى رأس كل منهما قبعة عالية، تقدم أحد الرجلين نحو جثة الطفلة، فصاح «ميم» في رعب:

- ماذا تفعلان بجثتها؟ ماذا تفعلان؟

فقال أحد الرجلين بهدوء:

- لقد نفذ في ابنتك حكم الإعدام جوعًا.

فنظر إليها «ميم» في ذهول والدموع تنساب على خديه، وحاول أن يتكلم، ولكنه عجز عن الكلام. حمل أحد الرجلين جثة الطفلة، فسقطت من فوقها بعض الأزهار، فالتقطها «ميم» وأعاد وضعها فوق جثتها، واتجه الرجلان نحو المصعد الذي كان مفتوحًا وبجواره عامل المصعد، دخل الرجل الذي يحمل جثة الطفلة أولًا، ثم دخل خلفه الرجل الآخر، ووقف «ميم» أمام باب المصعد مطأطئ الرأس يبكي، فقال عامل المصعد لـ«ميم»:

- يمكنك يا سيد «ميم» أن تهبط بالمصعد مع جثة ابنتك. لقد صدرت الأوامر بالسماح لك باستخدام المصعد في هذه المناسبة فقط.

فدخل «ميم» مصعد البرج لأول مرة، ودخل خلفه عامل المصعد، وأقفل الباب، وهبط المصعد حتى وصل إلى الدور الأرضي.

كان جميع موظفي البرج والحرس متراصين داخل البرج وخارجه. وعندما خرج «ميم» والرجلان اللذان يحمل أحدهما جثة الطفلة، سجد جميع الموظفين والحرس المصطفين حتى لمست جباههم الأرض. وانبعثت من جميع أنحاء البرج موسيقى حزينة من مكبرات للصوت غير مرئية. واتجه الرجلان نحو سيارة سوداء عند باب البرج. وضعوا الجثة في السيارة، وجلس أحد الرجلين خلف عجلة القيادة والآخر بجواره،

وانطلقت السيارة وخلفها «ميم» يجري، والدموع تبلل خديه، والأزهار تلقى على العربة من جميع الشرفات.

بعد فترة قصيرة، بدأت السيارة السوداء تسير ببطء، وتمكن «ميم» من أن يظل سائرًا خلفها حتى وصلت إلى البالوعة، فهبط الرجلان من السيارة، واتجه أحدهما إلى غطاء البالوعة فرفعه، وسمع «ميم» صوت القطار الذي اعتاد سماعه كلما فتحت البالوعة، وحمل الرجل الآخر جثة الطفلة وألقى بها في البالوعة، ثم أعاد غطاءها إلى مكانه، وعاد الرجلان إلى مكانيهما بالسيارة، التي انطلقت في الاتجاه المضاد.

ظل «ميم» جالسًا بالقرب من غطاء البالوعة لا يقوى على القيام، ثم انتابته نوبة بكاء، فظل يبكي في صمت. وسمع صوت سيارة منطلقة بأقصى سرعتها، ونظر فرآها قادمة نحوه، ووقفت أمامه، وهبط منها رجل يرتدي زي سائقي سيارات البرج، ووقف أمام «ميم» ورفع يده بالتحية، قائلًا:

- تفضل يا سيدي «ميم» إلى البرج، لقد صدرت الأوامر العليا بالسماح لك بركوب إحدى سيارات البرج في هذه المناسبة فقط.

فقام «ميم» يجر جسده من فرط الإعياء، وكأنه يحمل البرج على ظهره! وساعده السائق حتى جلس في المقعد الخلفي للسيارة، التي انطلقت بأقصى سرعتها نحو البرج. لم ير «ميم» شيئًا ولم يسمع شيئًا في أثناء الطريق، فلقد كان لا يفكر إلا في ابنته، ثم تذكر ابنه الذي نفذ فيه

حكم الإعدام أيضًا، وفي زوجته التي لا يعرف لها مكانًا. ووقفت السيارة أمام البرج، فظل «ميم» جالسًا في ذهول، فتقدم منه السائق، وقال:

- تفضل يا سيدي، لقد وصلنا إلى البرج.

فهبط «ميم» من السيارة بصعوبة، وهو لا يكاد يرى الحرس الذين اصطفوا لتحيته. وقاده أحد الحرس إلى المصعد قائلًا:

- تفضل يا سيدي، لقد صدرت الأوامر العليا بالسماح لك بالصعود إلى غرفتك، عن طريق المصعد في هذه المناسبة فقط.

فدخل «ميم» المصعد وكأنه يسير وهو نائم، ووصل إلى قمة البرج عند الطابق الأربعين حيث لا يوجد سوى غرفته، والغرفة الصغيرة الملحقة بها، والتي نفذ فيها حكم الإعدام جوعًا في ابنته، خرج من المصعد واتجه نحو غرفته وهو يترنح، وما كاد يخطو بضع خطوات داخل الغرفة حتى سمع رنين جرس التليفون، لم يتمكن من التقاط السماعة، وظل الجرس يرن في إصرار، ولكن «ميم» تركه يرن، ولم يحاول الرد على المتكلم. حاول أن يأخذ كتابًا من الكتب القلائل التي بقيت في غرفته، ولكنه عدل عن هذه الفكرة. شعر بخدر يسري في جسده.

لقد تم تنفيذ حكم الإعدام فيه!

في هذه اللحظة، بدأت ترن جميع الأجراس التي في البرج، بل وجميع الأجراس التي في المدينة، وساد هرج في جميع أنحاء البرج، وهرع إلى

الغرفة عدد هائل من الموظفين، فاكتظت بهم الحجرة والمكان الذي أمامها، وأقبل رجلان يرتديان ملابس السهرة السود، وشقا طريقهما بين جموع الموظفين المحتشدة، واتجها نحو جثة «ميم» فحملاها، وصاح أحد موظفي البرج، في غضب، موجهًا حديثه للرجلين:

- كيف نفذ فيه حكم الإعدام؟ وبأي وسيلة قتل؟

فقال أحد الرجلين:

- لقد نفذ فيه حكم الإعدام حزنًا!

فصاح الموظف في غضب، ملوحًا بقبضة يده أمام وجه الرجلين حتى كادت تلمس أنف أحدهما:

- ولماذا يحكم عليه بالإعدام حزنًا؟ إنه أشرف من في المدينة! إنه صاحب رسالة نبيلة، إنه يبحث عن الحقيقة، وكنا جميعًا ننتظر نتيجة بحثه، لماذا يحكم عليه بالإعدام حزنًا؟!

فقال أحد الرجلين في هدوء، وهما يتجهان بجثته نحو المصعد:

- تلك كانت بعض جوانب الحقيقة التي جاء ليبحث عنها، كان من ضمن رسالته أن يتوصل إلى الإجابة عن مثل هذه الأسئلة.

وفي هذه اللحظة، ظهر رجل فارع الطول عريض المنكبين ذو عنق غليظ، ورأس صغير لا يناسب حجم جسمه. لا يدري أحد من أين أتى! وكان يلهث وكأنه جرى مسافة طويلة قبل وصوله إلى ذلك المكان.

وقـف أمـام المصعـد مانعًا الجميع مـن دخولـه، فنظروا إليه في دهشـة، وسأله الخادم:

- أنا لـم أتشـرف برؤيتك من قبل، فهل أنت من موظفي البرج؟ وماذا تريد؟

فقال الرجل، وهو لا يزال يلهث:

- أنا مندوب الضرائب. السيد «ميم نون» لم يسدد المستحق عليه من ضرائب، وجئت لتحصيلها منه!

فصـاح موظـف البـرج، الذي سـبق أن لوح بقبضـة يده أمـام وجهي الرجلين اللذين يحملان جثة «ميم»، قائلًا:

- السيد «ميم نون» نفذ فيه حكم الإعدام، هل تريد تحصيل الضرائب من جثة؟ ألا يكفي أنه كان الشـخص الوحيد في المدينة، الذي يدور في الطاحونة، وتريد الآن أن تجعله الشخص الوحيد في المدينة الذي تجبى منه الضرائب؟

فقال مندوب الضرائب، وقد بدأت أنفاسه تهدأ:

- أنـت تعلم، والجميع يعلمون أن السـيد «ميم نـون» هو الوحيد في المدينـة الخاضـع للضرائـب. فالضرائب لا تجبـى إلا ممن يحصل على رزقـه مـن عمـل، يبذل في سـبيله مجهـودًا عنيفـا. فهل مـن المعقول أن أتقاعـس عن أداء واجبـي، وأتخلى عن تحصيل الضرائب من الشـخص الوحيد في المدينة الخاضع لها؟

وضع الرجلان المتشحان بالسواد جثة «ميم» على الأرض، ووقفا في انتظار التوصل إلى حل لتلك المشكلة، التي لم تكن في الحسبان، وقال الخادم:

- لو فتشت جميع جيوبه لما وجدت معه مليمًا واحدًا، لقد عاش طوال حياته يدور في الطاحونة، ويضرب بالسياط في مقابل الحصول على عشرين قرشًا لا تكفي الآن شراء ربع رغيف، ولقد تم تنفيذ حكم الإعدام في ابنته جوعًا، عندما عجز عن إمساك رمقها.

قال مندوب الضرائب:

- لا شأن لي بذلك! يجب أن يسدد ما هو مستحق عليه من ضرائب. ومهمتي تحصيلها منه بأية وسيلة!

فقال الموظف الغاضب:

- ألا تفهم؟ لقد قال لك خادمه: إنه لا يمتلك مليمًا واحدًا، وكلنا نعلم ذلك.

قال مندوب الضرائب، مشيرًا نحو جثة «ميم»، التي ما زالت على الأرض بجوار المصعد:

- إنه يمتلك هذه البدلة وهذا القميص، سأستولى عليهما سدادًا للضرائب، ولو أن البدلة رثة والقميص ملوث بالدماء؛ لن أتركه يفلت منّي.

وفـي مثل لمح البصر، انقض منـدوب الضرائب على جثة «ميم نون» وجرده من سترته وقميصه، فأصبح نصفه الأعلى عاريا وظهرت الجروح العديـدة الداميـة، وبينمـا هو يحـاول خلع سـروال «ميم» دفعـه الخادم، فألقـاه على ظهره، وأخذ يركله بقدمـه عدة ركلات، جعلته يتدحرج على السـلم، وانحنى الرجلان المتشحان بالسواد، وحملا جثة «ميم»، ودخلا المصعـد، وقد تدلت إحدى يديه. واسـتقرت اليـد الأخرى فوق صدره، ودخـل خلفهمـا عامل المصعـد، وهبط المصعد، وخرجـا منه في الدور الأرضي، واتجها حاملين الجثة نحو السـيارة السـوداء، الواقفة أمام باب البرج.

كان الشـارع وجميـع الشـرفات قد امتـلأت بأعداد هائلة من البشـر، بعضهـم يبكي في صمت، والبعض ينشـج بصوت مرتفـع، وضعت جثة «ميـم» علـى منضدة أمام بـاب البرج، وبدا وجهه وسـيمًا ينـم عن الطيبة وكأنه مستسـلم لنوم عميق، وعلى فمه ابتسـامة، لا أحد يدري هل كانت نتيجـة تقلصـات في عضـلات الوجه، أم هي ابتسـامة حقيقيـة تدل على الرضـا والاستسـلام. وتقدمـت فتاة المطعـم التي كانت أول مـن قدم له الطعام عندما وجد نفسـه في المدينة، كانت تمسح دموعها من آن لآخر، وانحنـت وطبعت على جبينه قبلة. ثم جاءت بعدهـا الفتاة التي كانت قد توسطت لتأجيل تنفيذ حكم الإعدام فيه، والتي وضعت في جيبه خمسين جنيهًـا، وانحنـت بدورها وقبلته في جبينه، ثـم انخرطت في بكاء عنيف، وتوالـى بعد ذلك أطفال وفتيات وشـبان ونسـاء ورجال يقبلـون جبهته،

وبعضهم يزداد انفعاله، فيهوى على قدمه أو يده فيقبلها! وكان من الممكن أن يمتد هذا المشهد لعدة أيام، ولكن الرجلين ذوي الملابس السود حملا الجثة ووضعاها في السيارة السوداء، والجماهير في الشارع وفي الشرفات تبكي وتلوح بالمناديل والأعلام مودعة «ميم»، وسارت السيارة وخلفها آلاف من أهل المدينة يلقون الأزهار على السيارة، كما انهالت الأزهار على السيارة من الشرفات، ثم أخذ الجميع يترنمون بأناشيد حزينة شجية الألحان.

وصلت السيارة إلى البالوعة وخلفها معظم أهل المدينة، فهبط الرجلان من السيارة، وفتح أحدهما البالوعة، ثم اتجه نحوالسيارة، وتعاون هو وزميله في حمل جسد «ميم» وألقوه في البالوعة، وأعادا إليها غطاءها. وارتفع صوت الجماهير ينشدون تلك الأناشيد الحزينة، ثم بدأ الجميع ينصرفون، ولم يبق بجوار البالوعة سوى شاب نحيل، تبدو عليه الحيرة، ينظر حوله بعينين زائغتين مبهورًا بجمال المدينة. فلمحه شيخ في نحوالسبعين، تقدم نحو الشاب وسأله:

– ماذا وقوفك هنا أيها الشاب وقد انصرف الجميع؟ هل تبحث عن شيء؟

فقال الشاب، وهو ينظر حوله في ذهول:

– لست أدري. يخيل إلي أنني أبحث عن شيء، لكنني لا أعرف ما هو.

فقال له الشيخ:

- هيا يا بني اذهب إلى منزلك، لا داعي للوقوف هنا.

فقال الشاب:

- أنا لا أعرف لي منزلًا لقد وجدت نفسي في هذه المدينة التي لا أعرف عنها شيئًا، حتى اسمها لا أعرفه، ولا أدري من أي مكان أتيت.

فنظر إليه الشيخ، وأطال النظر، ثم قال:

- يمكنك أن تسأل عن كل هذا في مكتب الاستعلامات. إنه في هذا الشارع قبيل ميدان الشاعر، اذهب في هذا الاتجاه تجد المكتب على اليمين.

وترك الشيخ الشاب واقفًا. ثم سار الشاب في الاتجاه الذي أشار إليه الشيخ. وفي أثناء سيره في الشارع، خرجت الفتيات والفتيان إلى الشرفات يحيونه بالعزف على الجيتار وينثرون عليه الورود والأزهار، ويترنمون بأناشيد عذبة الألحان ترحيبًا به. فقال لنفسه: ما أجمل هذه المدينة! وعندما وصل إلى مكتب الاستعلامات، تقدم في خجل نحو الفتاة الجالسة خلف المكتب، وسألها:

- لقد وجدت نفسي في هذه المدينة، وأريد أن أعرف اسمها، ومن أين ولماذا أتيت هنا، وكيف أكسب رزقي.

فابتسمت له الفتاة ابتسامة رقيقة، وناولته ورقة وقلمًا قائلة:

- اكتب كل ما تود الاستفهام عنه في هذه الورقة، وضعها في الفتحة التي في هذا الجهاز المثبت بالجدار، ثم اضغط على الزر الأخضر تحصل على الإجابة عن كل أسئلتك.

فكتب الشاب الأسئلة ووضع الورقة في فتحة الجهاز، وضغط على الزر الأخضر، فخرجت ورقة بها الإجابة هكذا:

- اسم المدينة: اسم المدينة لا يدل على شيء. سمها كما تريد.

- من أي مكان أتيت: أتيت من مكان مجهول.

- المهمة التي أتيت من أجلها: البحث عن الحقيقة.

- كيف تكسب رزقك هنا: در في الطاحونة.

قرأ الشاب هذه الأسطر، وسأل الفتاة:

- أين أجد الطاحونة التي سأدور فيها؟

فقالت الفتاة، وعلى شفتيها ابتسامة عذبة:

- على اليمين، على بعد خطوات من هذا المكتب، ولكن يبدو أنك جائع. اذهب أولًا إلى المطعم في المبنى 629، وتناول طعامك هناك، ستخبرك فتاة المطعم عن مكان إقامتك. ولك الحق في السكن والغذاء مجانًا لمدة عام، قبل أن تبدأ الدوران في الطاحونة، ستعتبر ضيفًا على المدينة لمدة عام.

فشكرها الشاب، وقد احمر وجهه خجلًا، واتجه نحو المطعم.

(انتهت)

المؤلف في سطور

دكتور «يوسف عز الدين عيسى» أحد الشخصيات البارزة في القرن العشرين..

- أديب ومفكر مصري، حصل على جائزة الدولة التقديرية في الأدب عام 1987.

- صاحب مدرسة خاصة في الكتابة؛ حيث يختلط الخيال و الحلم بالواقع بشكل رمزي، ليقدم تحليلًا دقيقًا لعالمنا الحديث الواقعي الذي نعيشه اليوم.

- جمع بين العلم والأدب في أعلى مستوياتهما؛ فهو أيضًا أستاذ جامعي بكلية العلوم، حصل على الدكتوراه من جامعة شيفيلد بإنجلترا واختارته منظمة «فولبرايت» أستاذًا زائرًا في جامعتي بركلي و الينوى في الولايات المتحدة. مارس التدريس الجامعي والبحث العلمي وأشرف على مئات الأبحاث و شجع الأنشطة الثقافية و الإبداعية في الجامعة، وقد عمل أيضًا كرئيس قسم، وأنشأ قسم علم الحيوان في جامعات أخرى . وفي نفس الوقت هو أيضًا الأديب الحاصل على أعلى الأوسمة

في هذا المجال، واستمر يجمع بين العلم و الأدب حتى آخر يوم في حياته.

مارس الدكتور يوسف عز الدين عيسى كل أنواع الأدب؛ من رواية، قصه قصيرة، مسرح، شعر. وهو أيضًا رائد الدراما الإذاعية و التليفزيونية في مصر و الشرق الأوسط، وتميزت أعماله بالتشويق الشديد وباللغة السلسة و قد استمر يجمع بين العلم و الأدب حتى آخر يوم في حياته.

- تنوعت أعماله تنوعًا كبيرًا نظرًا لتنوع ثقافاته ودراساته واهتماماته. وتأثر كثيرًا بروح العصر بكل ما ينطوي عليه من علم وأدب وفلسفات وفن وموسيقى وكل مظاهر الحداثة. ورغم شغفه بالبحث في الإنسان وحقيقة الوجود والغوص في أعماق النفس البشرية لسبر أغوار البشر إلَّا أن أسلوبه تميز بالسلاسة والشاعرية التي تجذب القارئ إلى آخر كلمة يكتبها. كما تتميز أعماله باستعماله للرمز لإظهار الفكرة في العمل، فهي تدخل في سياق الأدب الفكري؛ كذلك المضمون، والرسالة التي يبغي أن تصل للمتلقي ولذلك فهي أعمال فريدة في الأدب العربي.

للدكتور يوسف عز الدين عيسى روايات عديدة: «الواجهة» و«العسل المر» و«الرجل الذي باع رأسه» و«لا تلوموا الخريف» و«التمثال» و«عين الصقر» و«ثلاث وردات وشمعة» و«الأب» و«عواصف» وله مجلدان في القصة القصيرة، «ليلة العاصفة و قصص أخرى» و«البيت وقصص أخرى» ومجلد «نريد الحياة ومسرحيات أخرى» وله عدد كبير

من الأشعار والأغاني إلى جانب كتاباته للدراما الإذاعية التي تصل إلى حوالي أربعمائة عمل.

إلى جانب الأعمال الأدبية، كتب الدكتور «يوسف عز الدين عيسى» ما يفوق المائة مقال وعمود أسبوعي في جريدة الأهرام، وغيرها من الصحف والمجلات الكبرى في مصر والعالم العربي. وقد كتب أيضًا مقالات تحليلية قدم فيها أدباء عالميون إلى العالم العربي.

- شارك في مئات الندوات الثقافية، وقدم العديد من الأدباء الشبان للحلقة الفكرية. وكان أيضا رئيسًا لنادي القصة وعضوًا بالمجلس الأعلى للثقافة والفنون وعضوًا في اتحاد الكتاب ومستشار تحرير مجلة الشاطئ، ومدير التحرير الثقافي لجريدة «الأيام»، ويدين له إنشاء قسم المسرح بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية.

- في عام 1987، منح جائزة الدولة التقديرية في الأدب، وهو أول أديب مصري يعيش خارج العاصمة (الإسكندرية) ويُمنح هذا التكريم وحسب حيثيات اللجنة، «..أنه أسس مدرسة جديدة في الكتابة الأدبية تأثر بها الكثير من الأدباء... . وكان الدكتور يوسف عز الدين عيسى قد حصل على جائزة أخرى من الدولة أيضًا عام 1978 لأعماله الإذاعية وكان من حيثيات حصوله علي الجائزة.. «أن تحولت الدراما الإذاعية علي يديه إلى نوعٍ رفيعٍ من الأدب..

- حصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى مرتين، عام 1979 وعام 1988 ، ووسام الجمهورية عام 1981، واليوبيل الفضي

والذهبي للإذاعة والتليفزيون. كما منح وسام «فارس الأدب» في عام 1999 وكان ذلك قبل رحيله بأشهر قليلة: وذلك «.. لدوره الرائد في إثراء الحركة الأدبية

- اختير الدكتور «يوسف عز الدين عيسى» كأفضل شخصية أدبية في مصر» لعامي 1998 و1999.

في عام 2001، أطلق اسمه على قاعة المحاضرات في مركز الإبداع (قصر ثقافة الحرية، سابقًا)، لتصير «الصالون الثقافي ليوسف عز الدين عيسي» وليكون اسمه رمزًا للعطاء الفكري.

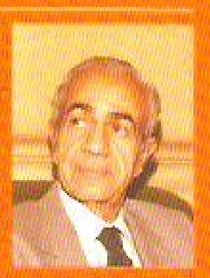
الموقع الرسمي للدكتور يوسف عز الدين عيسى:

www.eassa1914.com



... تعجّب ميم من تأثر الفتاة وبكائها من أجله، في حين أن زوجته التي يشقى من أجلها لم تذرف من أجله دمعة وهي تراه يدور في الطاحونة، بل كانت تضحك و تركته ملقى على أرض الشارع منذ لحظات، و تذكر ميم أن ظل ابتسامة خفيفة كان قد لاح على شفتيها وهي تخبره عن الإنذار بحكم الإعدام الذي قرأته في الورقة الحمراء. تمنّى في أعماق نفسه لو أن الظروف كانت قد أتاحت له فرصة رؤية هذه الفتاة الرقيقة التي ضمدت جراحه وبكت من أجله ليتزوجها بدلاً من زوجته الحالية، إذا كان لا بد من الزواج...

في رواية الواجهة نجد أنفسنا أمام بطل يتلاشى عنه كل ماضيه، واسمه.. لا يبقى من الأمس حتى الظل وهو يضرب في المدينة الغريبة دون أن يعرف إلى أين.. والرواية تحفل بالرمز والتشويق من خلال أحداثها المتسارعة.. مثيرة عددًا من التساؤلات والأفكار الملحة على الإنسان في أي مكان و زمان.



د. يوسف عز الدين عيسى، جمع بين الأدب و العلم في أعلى مستوياتها، فهو أديب له عالمه الخاص، حصل على جائزة الدولة التقديرية في الأدب وغيرها من الأوسمة الرفيعة. تأثر أدبه بروح العصر فعبر عن الإنسان وحلل النفس البشرية بكل نوازعها وأحلامها وصراعاتها بأسلوب يتأرجح بين الحلم والواقع، الخيال والحقيقة.

كسرت رواياته الحاجز التقليدي للرواية العربية فتعدى حدود الزمان و المكان وكان من أوائل رواد الواقعية السحرية.





الدار المصرية اللبنانية